سلسلة "الحقيقة الصعبة" (٢)

أبو موسى الحريري

نبي الرحمة وقرآن المسلمين

بحث في مجتمع مكة

بيروت ١٩٨٥

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة أ.د/رمزي ذكي

القاهرة

نبيّ الرحمة وقرآن المسلمين

سلسلة "الحقيقة الصعبة" (٢)

أبو موسى الحريري

نبي الرحمة وقرآن المسلمين

بحث في مجتمع مكة

بيروت ١٩٨٥

صدر من "سلسلة الحقيقة الصعبة" :

(١) أبو موسى الحريري، قسّ ونبيّ، بحث في نشأة الاسلام .
(٢) أبو موسى الحريري، نبيّ الرحمة وقرآن الشريعة . بحث في مجتمع مكّة .
(٣) أبو موسى الحريري، عالم المعجزات . بحث في تاريخ القرآن .
(٤) أبو موسى الحريري، أعربيّ هو؟! بحث في عروبة الاسلام .
(٥) أبو موسى الحريري، العلويون النصيريون . بحث في العقيدة والتاريخ .
(٦) أنور ياسين، وائل السيّد، بهاء الدين سيف الله، بين العقل والنبيّ . بحث في العقيدة الدرزية .
(٧) حمزة بن علي، اسمعيل التميمي، بهاء الدين السموقي، رسائل الحكمة، كتاب الدروز المقدّس. تحقيق أنور ياسين .

بيروت ١٩٨٥

المقدمة

من أولى الأمور لمعرفة الاسلام معرفة البيئة التي نشأ فيها ونمى . ولكنّ لدى المسلمين عاملا آخر لمعرفة دينهم ، هو الله . ألله الذى يعلو على البيئة ويتخطّى أحوال المجتمع وظروفه . يصل الانسان اليه بالوحي والايمان . وعلى العقل أن يخضع لمعطيات الوحي والايمان هذه ، وأن ينتصر لها .

بيد أنّنا نعلم أنّ أحوال المجتمع تساعد في فهم معطيات الايمان والوحي . والعقل المتواضع يحتاج الى هذه كما الى تلك . فالتاريخ والمجتمع والبيئة الطبيعيّة والعلم والثقافة والعوامل الاقتصاديّة والسياسيّة .. كلّها ضروريّة لفهم نشأة الاسلام وادراك عقائده وحسن الايمان به . وهي أيضا وسائل فعّالة لمعرفته وفهمه .

فالاسلام ، بهذه النظرة ، منوط ، الى حدّ بعيد ، بالحركة التاريخيّة ، بل هو رهين البيئة التي نشأ فيها ، ومرتهن بها . لهذا السبب كان الاسلام ، ككل دين ، لأجل خير الانسان ابن البيئة والتاريخ . وأحوال الانسان الاجتماعيّة هي التي تفرض نوعيّة الشريعة الموحاة . وحياة الانسان هي المرجوّة في كل دين .

فالانسان اذن هو الغاية . وواجب محبّته قيمة في ذاتها ، حتى أنّ الدفاع عن حقوق الله على حساب كرامة الانسان ومحبّته يجعل الدين برمّته غير مُجدٍ . فكل ايمان بالله لا ينطلق من محبّة الانسان وصالحه هو دين حرب ومواجهة . وقد يتبرّأ الله من كل جهاد في سبيله يكون الانسان فيه ضحيّة .

في رأي المسلمين ، انّ الاسلام نشأ مع النبي محمّد ، وتمّ مع النبيّ محمّد ، ويستمرّ على ما هو عليه طالما يوجد في أيديهم "كتاب منزل" من عند

الله على النبيّ محمّد . فالقرآن لا تبديل فيه ولا تحريف ، هو الضامن لاستمراريّة الاسلام وثباته . ولا يخالج المسلمين شك بأنّ القرآن هو "الحقّ اليقين"[١] ...

ومع هذا نستطيع القول : ان أحداث التاريخ والظروف الاجتماعيّة والعوامل الاقتصادية والسياسية .. كلّها ساهمت في نشأة الاسلام . واذا كنّا نؤمن بالوحي القرآني أو لا نؤمن ، فانّ ذلك لا يمنعنا البتة عن البحث في كلّ شيء : في ما هو لله ، وفي ما هو للتاريخ . وهذا الأمر لا يجعلنا - بنظر المذهولين - مؤمنين ، كما لا يجعلنا - بنظر المؤمنين - كافرين . بل نحن عن الحق نبحث ، وفي الحق ندور . والبحث عن الحقّ يستوجب لنا من الكافرين والمتديّنين سماحا .

******

على هذا نسأل : ماذا كان قبل القرآن والاسلام ؟ أكان هناك شِرْكٌ أم توحيد ؟ آلهة أوثان أم "اله بني اسرائيل"[٢] ؟ ونسأل أيضا : أكان هناك مجتمع فاسد أم مجتمع يعرف بعضَ مبادىء الخير والصلاح ؟ كيف كانت مكّة عند ظهور الاسلام ؟ وعلامَ صارت اليه بعده ؟ هل في القرآن إصلاح لمجتمعِ مكّة أم فيه اصلاح لمجتمعٍ عالمي ؟ وبكلمة : كيف كان المجتمع الذي نشأ فيه الاسلام ؟.. وهل جاء النبيّ محمّد لاصلاح هذا المجتمع أم لأجل رسالة عالميّة ؟ وهل نسأل : لو نشأ الاسلام في غير البيئة التي نشأ فيها لكان على غير ما هو عليه ؟ !

يدور البحث اذن حول بيئة الاسلام الاجتماعية ، على أنّنا عالجنا البيئة الدينية في كتابنا "قسّ ونبيّ" . وعالجنا البيئة التاريخية في كتابنا "أعربيّ هو؟".

---

(١) القرآن ، سورة ٦٩ آية ٥١ . وسنشير الى ذلك كما يلي : ٦٩/ ٥١ .
(٢) جاء في القرآن : "لا اله الاّ الذى آمنت به بنو اسرائيل" (١٠/ ٩٠) . هذا ما يشير الى انّ "اله بني اسرائيل" كان يعرف في بيئة النبي ، وان النبي دعا اليه والى الايمان به ، في جميع ما عرفه عنه بنو اسرائيل من صفات وكمالات .

في البيئة الاجتماعية هذه، لا بدّ من توضيح مقصدنا. ومقصدنا يبحث عن مفاهيم جديدة لا ندّعي فيها المعرفة، بقدر ما نسأل عن حقيقة نبحث عنها باستمرار. هذه الحقيقة باتت لدينا مكشوفة. والسؤال عنها لم يعد بدعة. وبصريح العبارة نقول: هل كان محمّد نبيّا مرسلا من لدن الله ليؤسّس دينا عالميا؟ أم انّه جاء ليصلح مجتمعا فاسدا، وبذلك أصبح نبيّا؟

انّ خطورة السؤال تضعنا في خانة الكافرين لا محالة. ولكنّنا، قبل أن يؤخذ علينا الكفر أو الايمان نودّ السعي خطوة خطوة، مستلهمين لها المصادر الاسلاميّة ذاتها، التي يعتمدها المسلمون أنفسهم. وأهمّها "القرآن" الذي "هو مرآة صافية للعصر الجاهلي" ولصدر الاسلام[٣]. وثانيها "كتب التفسير" التي "هي ثروة تاريخية قيّمة تفيد المؤرّخ في تدوين هذا التاريخ"[٤]. وثالثها "كتب الحديث وشروحها، وهي أيضا مورد غنيّ من الموارد التي لا بدّ منها لتدوين أخبار الجاهلية المتّصلة بالاسلام"[٥]. ورابعها "كتب السِيَر والمغازي"، التي رغم طرافتها، تكوّن أصلا مهمّا لمعرفة أحوال مكّة والنبيّ. وخامسها "الشعر الجاهلي الذى فيه قال عكرمة: "اذا أعياكم تفسيرُ آيةٍ من كتاب الله، فاطلبوه في الشعر، فانّه ديوان العرب، وبه حُفظتِ الأنساب، وعُرفتِ المآثر، ومنه تُعلِّمت اللغة، وهو حجّة فيما أُشكِل من غريب كتاب الله وغريب رسول الله، وحديث صحابته والتابعين"[٦].

ولئن وفّق المؤرّخون المسلمون في كتابة تاريخ الاسلام، بعد الهجرة بمائة وخمسين سنة ونيّف، فانّهم لم يوفّقوا قط في كتابة تاريخ ما قبل الاسلام، ولم يظهروا أيّة مقدرة في تدوينه، ولا همّة في استقصاء أخباره، ولا براعة في

---

(٣) د. جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ١/ ٦٦.
(٤) المرجع نفسه، ١/ ٦٧.
(٥) المرجع نفسه، ١/ ٦٧.
(٦) السيوطي، المزهر ٢/ ٤٧٠، ٢/ ٣٠٢، الجمحي، طبقات الشعراء، ١٠.

تمحيص رواياته · وهو أمر يدعو الى التساؤل : فهل تعمّد المسلمون طمس أخبار الجاهليّة ؟ يبدو ذلك · و" لقد عزا بعض الباحثين هذا التقصير الى الاسلام ، فزعم أن رغبة الاسلام كانت قد اتّجهت الى استئصال كل ما يمتّ الى أيّام الوثنية في الجزيرة العربيّة بصلة ، مستدلاً بحديث "الاسلامُ يهدمُ ما قبله"(٧) · ولئن لم يكن قصدُ الرسول هذا المعنى فانّ المسلمين لم يفهموا به الاّ هذا المعنى ·

فالاسلام ، الذي قضى ، بنظر هؤلاء المؤرّخين ، على الشِرك والوثنيّة والشِيَع والأحزاب·· ، قضى ، بالوقت نفسه ، على كل أثر للمشركين والوثنيّين والأحزاب· وحتى مصاحف القرآن العديدة والمختلفة أُحرقت وأُتلفت ، لكي لا يبقى الاّ مصحفٌ واحد يتوحّد عليه الناسُ في عقيدتهم(٨) · وقد وعى الخلفاء الأوّلون خطورة تعدّد الكتب والمصاحف ، فعمدوا الى الجهاد ضدّها ، ولم يُبقوا على كتاب واحد في الأصقاع التي افتتحوها ، لكي لا يبقى الاّ كتاب الله الكريم ، الذي "فيه نبأُ ما قبلكم ، وخبرُ ما بعدكم ، وحكمُ ما بينكم"·· وبسبب ذلك بات من الصعب على الباحثين أن يجدوا لهم مصادر ومراجع غير التي وضعها المسلمون ، وتفنّنوا في وضعها · فما أدراك تكون النتائج ؟

******

بقي علينا البحث في شرعية هذا السؤال الكبير والخطير : أكان محمّد نبيّاً مرسَلا من عند الله ، أم كان مصلِحاً اجتماعيّاً جاء ليقوّم اعوجاجَ مجتمعٍ فاسدٍ؟ أكان محمّد يعي أنّه نبيّ ، أم أنّ الظروفَ الاجتماعيّة جعلته كذلك ؟ ثمّ بماذا نجح محمّد أوّل ما نجح ؟ أنجح كمصلح اجتماعي بادىء ذى بدء ، أم أنّ نبوّته جعلتْ منه مصلحا اجتماعيّا ؟.. لنا ملء الحرّيّة بطرح هذه الأسئلة ·

(٧) صحيح مسلم ١ / ٧٨ · أنظر : جواد عليّ ، المرجع المذكور ١ / ١٠٨ ·
(٨) أنظر كتابنا "عالم المعجزات" ، رقم ٣ من "الحقيقة الصعبة" ·

والمبادئ المشروعة لطرحها لا تقلّ قيمة عن مبادئ الايمان بالنبوّة . ولا نزال عند ايماننا بأمرين : بالله القدير على كل شيء ، وبحريّة الانسان بقبوله ورفضه كل شيء . ولا يعتدّنّ أحد باخلاصه في الدين وبمعرفة علامات النبوّة والأنبياء فيما هو يقضي على حرّيّة الانسان وشرعيّة بحث العقل في ماهيّة الأشياء جميعها .

فاذا كانت هناك حقائق الهيّة منزلة، ويتوجّب علينا تقديسُها ، فهناك أيضا للانسان حرّيّة، يتوجّب علينا اجلالُها . وعظمة الايمان بالله وبالنبوّة تكمن في مدى تدخّل الله في حرّيّة الانسان دون أن يقضي عليها . وهذا ما يسمّى في المسيحية بـ " سرّ النعمة"، التي تنساب بين ما هو لله وبين ما هو للانسان بدقّة متناهيّة، دون النيل من قدرة الله أو من حرّيّة الانسان . وبغير ذلك لا نستطيع فهم أيّ أمر الهي ...

فالشك والقلق والبحث المستمرّ .. معطيات الهيّة في طبيعة الانسان . وكلّها تنكبّ في الحرّيّة التي تصنع كيانه وتحدّد هويّته البشريّة . فلا الله ينزعها منه، ولا الانسان يحقّ له أن يتخلّى عنها . وقد تبلغ درجة الشكّ عند الانسان مبلغا تتحدّى به كل طمأنينة، حتى أنّ أيّ دليل على وجود الله لم يُعطَ للانسان ليعيش مع الله بارتياح وسكينة . فما أدراك يكون في سائر الأمور الالهيّة! انّ خشيَتنا من الله أن نطمئنّ اليه كثيرا ، ونكفّ عن البحث عنه . وبذلك نقف ، مطمئنّين، عند حدود ما نرسمه من معطيات نظنّها أصبحت لدينا أكيدة .

******

من هذه المعطيات مثلا أن ننسب الى الله " شريعة" أنزلها في كتاب ، وأن نلزمه بـ " دين " أوحى به الى أحد الأنبياء ، وأن نتصوّر عنده " عقيدة " يربط بها الانسان الى الأبد ، وأن نغار عليه غيرة تجعلنا نتقاتل لأجل " الجهاد في سبيله " ... هذه كلّها من صنع الانسان، والله منها بريء . واحدة فقط يطلبها الله، وهي أن يكون الانسانُ بالانسان رحيمًا ، يعامل

أخاه بالتسامح والمحبّة. ولا يُفرض عليه، باسم الله، ما لم يَفرضه اللهُ نفسه. انّ الله بريءٌ من انسان يحبّه ويكره أخاه، وبريءٌ من كل "دين" و "نبوّة" و "كتاب" و"شريعة" و"عقيدة"، اعتبرها الانسان منزلة من السماء نكاية بأخيه.

يربأ الله أن يختار أناسا ليرذل آخرين. انّ نظريّة "الشعب المختار" هي نظرية قوميّة، تعصّبيّة. كل البشر مدعوّون ليكونوا من مختاريّ الله. ولم يكن لله يوما شعب خاصّ ميّزه عن سائر الشعوب بالعصمة والاختيار. وليس له في الأرض "هيكل" يُعبَد فيه على حساب أبنية الأرض كلّها. وليس له "كتاب" ضمّنه هويّته وكمالاته يتحدّى به كتبَ العالم الداعية الى الخير والمحبة. وليس له أخيرا "دين" يربط الانسانَ فيه بـ"شريعة" منزلة.. كل انسان، عند الله، قيمة في ذاته. يقيم بينه وبين الله رباطا روحيا باطنيا عميقا، لا يحتاج معه الى أيّ انتماء يحدّ من حرّيّته. فما بال البشر يفرضون على الله قيودَهم!!!

ويُخشى أن يكون لله رجالٌ يتعصّبون له، فيما هم يتعصّبون لما لهم. يميّزون أنفسَهم عن سائر الناس، ليحظَوا، لأجل اسم الله، بقدسيّةٍ واحترامٍ واجلال، لا تليقُ الاّ بالله. يخصّون أنفسَهم بزيٍّ وألقابٍ تحمل علامةَ تعصّبِهم.. فهل يظنّ هؤلاء الرجال أنّهم، في امتيازاتهم هذه، يكوّنون ضميرَ العالَم الذي يبكّت الناس على تصرّفاتهم! هل يظنون أنّهم يعكسون في وجوههم روح الله وصورته! وينطقون بكلامِ الله! ويُستودَعون أسرارَ الله! ويعرفون أرادةَ الله!.. أي غشّ هو هذا الذي يُقيمون عليه! وأي مكر يمكرون به اللهَ والعباد!

مصيبة الدهر في "المعصومين". وليس من متديّن مذهول الاّ ويقع في ادّعاء "العصمة". بل كل من وقف موقفا، أو اعتمد مبدأ، أو وضع كتابا، أو أسّس حزبا، أو أنشأ دينا.. ظنّ نفسه فيه معصوما. لكأنّ الانسانَ يتحدّى اللهَ في عصمته، ويحاشره على علمه وسَعَةِ معارفه.. لكأنّ العصمةَ أصبحت، عند الانسان، عِوضَ ضَعفِه، ومَظهرًا شديدا لكبريائه.. وفي هذا الحدّ من الادّعاء، بدل أن

تقضي العصمة على الشرّ، نراها تغذّيه وتوسّع دائرته .. وكم أراد الانسان ردع الآخرين عن شرّهم، فاذا به يقوم بعنف هو أعنف من عنف الشرّ نفسه .

وما معنى "النبوّة" و"الرسالة" أخيرا ؟ أحقّا يختار الله له رجالا يكشف لهم عن أسراره وأسرار الكون؟ أحقّا يبعث الله رجالا يحمّلهم كتابا منزلا من عنده، فيه علوم الدنيا جميعها، ويستمرّ قائما على مدى الدهر؟ لا بدّ من اعادة النظر في ما به نتّهم الله . انّ الأنبياء، منذ القديم، كانوا، في بدء دعوتهم، اناسا صالحين مصلحين وقوّادا لشعوبهم، يدلّونهم على الخير وفعل الصالحات، ويُعِدّونهم لمرحلة أحسن ممّا هم عليه، وَيعدونهم بالخلاص ممّا هم فيه من مفاسد . وأفضلُ الأنبياء كان أولئك الذين تخطّوا اصلاح المجتمع الى عالم الروح، وبشّروا العالم بطرق المحبّة وعمل الرحمة . أمّا أولئك الذين دعوا الى فرض دينهم وشريعتهم بالعنف والقوّة فهم مدّعو نبوّة، ومختلسو رحمة الله .

******

هذه الأمور هي من شرعيّة السؤال الذى نطرحه . فهل يقابلنا مدّعو العصمة والتنزيل بسماحة ورحابة صدر ! والبحث كله هو جواب على هذا السؤال الكبير . فليتمهّل من استطاع التمهّل والصبر . انّنا في البحث عن "الحقيقة الصعبة" نعمل . والمطمئنّون الى ما هم عليه من "عصمة" عندهم الحقيقة سهلة، موحاة، منزلة، ذات عصمة . وكل ذلك على حساب الانسان وحرّيته . فليكن لنا منهم بعضُ رحابة صدرهم، لنعمل، وايّاهم، لأجل الانسان، في البحث عن الحقيقة . وبذلك يتمكّن فينا الايمان بالله الذى نبغي أن نجرّده من تصوّراتنا، ونحرّره من حجم عقولنا الضعيفة . وخشيتنا كبيرة في أن يكون الله بحجم عقولنا .

ولئلا تكون الحقيقة سهلة اخترنا معالجة موضوع هو في غاية الصعوبة والخطورة . ونبحث فيه، لا انتقاصا من نبوّة محمّد، بل توضيحا لها وتعليلا .

ولا بدّ ، لأجل ذلك، من الكلام على البيئة التي نشأ فيها محمّد ، وعلى وعيه للرسالة التي حملها ، وعلى تطوّر هذا الوعي بتطوّر الأحداث والأحوال . وعدّتنا في ذلك ما نعرفه عن مكّة، عن طبيعتها ، وسكّانها ، ومجتمعها ، وأحوالها الاقتصادية والسياسية والدينية والحضارية، ثم عن أولويّات الدعوة المحمّديّة ، التي لم تكن، في بدايتها ، الاّ اصلاحا لمجتمع كان يدبّ فيه الفساد من كل جانب. ولو لم يتدارك محمّد ، بقوّة شخصيّته وذكائه، تلك المفاسد ، لامّحتْ ، عن سطح الجزيرة العربيّة، قبائل وعشائر برمّتها . لذلك ، كان أوّل ما قام به محمّد ، حربا على الفساد . ودعم دعوته، لنجاحها ، بتعاليم عرف ربطها بوحي السماء . فكان لدعوته نجاح لا مثيل له .

ولنا أمل في الكشف عن الحق التاريخي الذى لا ننكره على محمّد بحال من الأحوال . ويبقى لنا حقّ ما ندعو اليه، وهو الكشف عن حقيقة ما جرى، لنكفّ عمّا يجرى عندنا ، بحجة الدفاع عن حقوق الله وأنبيائه . ومرّة أخرى، ليكفّ المتديّنون المذهولون عن ادّعاء معرفة أسرار الله، وهم مطمئنّون كثيرا الى رسل السماء . وليرحمنا مدّعو العصمة ويرتدعوا عن النطق باسم الله . فهل يسدّ الله عندهم فراغا ؟ أو هل يكون الانسان ضحيّة من ضحاياهم الدينية وشرائعهم السرمديّة؟ فأين هي الحريّة اذن؟ وأين هو حقّنا في الانسانيّة ؟

الفصل الأول

طبيعة مكّة

أولاً : موقع مكّة في الجغرافيا
ثانياً : الفقر والجوع في مكّة
ثالثاً : حرّ مكّة وجفاف مناخها
رابعاً : ندرة الماء في مكّة

خاتمة الفصل الأول

أولاً : موقع مكّة في الجغرافيا

تقع مكّة بين اقليمي تهامة والحجاز. بينها وبين دمشق مسيرة شهر. ومنها الى عدن شهر أيضا. تبعد عن يثرب نحو مائتين وخمسين كلم، وعن الطائف سبعين، وعن مرفأ جدّة ثمانين. وهي "مدينة في واد، والجبال مشرفة عليها من جميع النواحي محيطة حول الكعبة"(١).

وبناء مكّة "من حجارة سود وبيض ملس.. حارّة في الصيف الاّ أنّ ليلها طيّب. وقد رفع الله عن أهلها مؤونة الاستدفاء، وأراحهم من كَلَفِ الاصطلاء.. وليس بمكّة ماء جارٍ. ومياهها من السماء. وليست لهم آبار يشربون منها. وأطيبها بئر زمزم. ولا يمكن الادمان على شربها. وليس بجميع مكّة شجر مثمر الاّ شجر البادية"(٢).

أطلق القرآن على مكّة أسماء عديدة. فهي : مكّة(٣)، وبكّة(٤)، وأم القرى(٥)، والبلد(٦) وإحدى القريتَين(٧)، والوادي(٨)... ولها أسماء كالبيت العتيق، لانّه عُتِقَ من الجبابرة، والرأس، لانّها مثل رأس الانسان،

---

(١) ياقوت الحموى، معجم البلدان، لفظة "مكة"، ٥/ ١٨٧.
(٢) المرجع نفسه، ٥/ ١٨٧ــ١٨٨. شجر البادية أى النخيل.
(٣) "سميت مكّة لانها تمك الجبارين، أى تذهب نخوتهم. ويقال: انما سمّيت مكة لازدحام الناس بها". معجم البلدان ٥/ ١٨١ــ١٨٢. وردت في القرآن مرّة واحدة في ٤٨/ ٢٤.
(٤) سمّيت بكّة ايضا "لازدحام الناس بها. ويقال مكّة اسم المدينة، وبكة اسم البيت". معجم البلدان ٥/ ١٨١ــ١٨٢. وفي القرآن مرّة واحدة في ٣/ ٩٦.
(٥) القرآن ٦/ ٩٢، ٤٢/ ٧، أى عاصمة القرى.
(٦) القرآن ١٤/ ٣٥، ٣٥/ ٩، ٩٠/ ١و٢، ٩٥/ ٣، ٢/ ١٢٦، ٢٥/ ٤٩، الخ..
(٧) القرآن ٤٣/ ٣١، أي : مكة والطائف.
(٨) "واد غير ذى زرع" القرآن ١٤/ ٣٧.

والحَرَم ، والعرش ، والقادس ، والمقدسة ، لأنّها تقدّس من الذنوب ، والباسّة لانّها تبسّ أى تحطّم الملحدين ، وكوثى باسم بقعة كانت منزل بني عبد الدار(٩) .

وأمّا عن شرف مكّة ومكانتها فقد جاء على لسان رسول الله قوله : " انّي لأعلم أنّكِ أحبُّ البلاد اليّ ، وأنّكِ أحبُّ أرضِ الله الى الله . ولولا انّ المشركين أخرجوني منك ما خرجت" . وعن عائشة قولها : " لولا الهجرة لسكنتُ مكّة . فانّي لم أرَ السماءَ بمكانٍ أقرب الى الأرضِ منها بمكة . ولم يطمئنّ قلبي ببلدٍ قط ما اطمأنّ بمكة . ولم أر القمر بمكانٍ أحسنَ منه بمكّة" . وفي حديث صحيح عن النبيّ قال : " يا أيّها الناس انّ الله حرّم مكّة يوم خلق السماوات والارض . لا يحلّ لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً"(١٠) .

لقد احتفظت مكّة بمكانتها المقدسة منذ البدء حتى اليوم . ولها اليوم شرف عظيم بأن لا يدخلها كافر أو مشرك أو ذمّي . فهي محرّمة الاّ على المسلمين(١١) . انّها دار قرار وسلام ، فيما سواها من بلدان هو دونها في المقام ، لانّها دار الاسلام الأولى ، وفيها لا تمارس الاّ الشريعة الاسلاميّة بدقّتها ، لها على العالم بأسره كل الفضل ، وليس للعالم عليها أيُ فضل . شرفها أنّها أعطتْ للاسلام من ميزاتها التي اختصّها اللهُ بها منذ الأزل . وقد اصطبغ الاسلام بما لها ، وتأثّر بها ، وأخذ عنها معظم شرائعه المدنيّة . وليس على أحد أن يُنكر لها هذا الفضل الى الأبد .

بيد أنّ مكّة ، رغم فضلها وشرف مكانتها ، لم تكن ذات طبيعة غنيّة لتسهل فيها الحياة . بل كانت الى حدّ من الجدب والفقر يصعب معها العيش بهناء . فلنفصّل ذلك .

---

(٩) معجم البلدان ، ٥/ ١٨٢–١٨٣ ، ١٨٥ .
(١٠) البخاري ، باب العلم ٣٧ ، الترمذى ، باب الحج ١ ، سورة التوبة ٩/ ٢٨ .
(١١) الاّ أنّ " بورخاردت" السويسري دخلها سنة ١٨٢٩ ، وكذلك الانكليزي "برتن" زارها سنة ١٨٥٣ . وكلاهما كتب عنها ووصفها بدقّة .

ثانياً : الفقر والجوع في مكة

ألحجاز بصورة عامّة هو " بلد الجدب والفقر والضيق"[١٢] ، فيما سوريا هي بلاد " الخمر والخمير والأمر والتأمير والديباج والحرير"[١٣] . وأكثر جدب الحجاز في مكّة، ذات الطبيعة الصحراوية القاحلة، اذ هي " اقليم صعب عسير، تجدب فيه الأرض، ولا تبتسم له السماء الاّ قليلا"[١٤] . وقد أشار القرآن الى كثرة الأمراض فيها ، فتكلّم على " أولي الضرر"[١٥] ، أى على "كل صاحب زمانة أو عمى ونحوه"[١٦] . ووصفها المقدسي بقوله : " يكون بالحرم حرّ عظيم ، وريح تقتل ، وذباب في غاية الكثرة"[١٧] .

وهي أيضا ، بشهادة القرآن ، قرية جدباء ، لا زرع فيها ولا نخيل . يعيش أهلها على ما يُجلَبُ اليها من خارج ، وما "يُجبَى اليها من ثمرات كل شيء"[١٨] . يأتيها "رزقُها رَغدًا من كل مكان"[١٩] ، لانّها "وادٍ غير ذي زرع"[٢٠] ، بل هي " بلدة ميتة"[٢١] و"بلَد ميت"[٢٢] أو أيضا "أرض ميتة"[٢٣] يحييها الله من

---

(١٢) الاصفهاني ، كتاب الأغاني ١٤/ ١٥٦ .
(١٣) المرجع نفسه ١٩/ ١٩٦، انظر الازرقي ، أخبار مكّة ٥٥ .
(١٤) طه حسين، على هامش السيرة ١/ ١ .
(١٥) القرآن ٤/ ٩٥.
(١٦) تفسير الجلالين على ٤/ ٩٥ .
(١٧) المقدسي ، جغرافيا ٩٥، ٨ .
(١٨) القرآن ٢٨/ ٥٧، ٢/ ١٢٦ . " قوت أهلها من غيرها "(اليعقوبي ، جغرافيا صفحة ٢٣٦).
(١٩) سورة النحل ١٦/ ١١٢ .
(٢٠) سورة ابراهيم ١٤/ ٣٧.
(٢١) القرآن ٢٥/ ٤٩، ٤٣/ ١١، ٥٠/ ١١ .
(٢٢) القرآن ٣٥/ ٩، ٧/ ٥٧ .
(٢٣) القرآن ٣٦/ ٣٣ .

سخائه[٢٤] ، وينزّل عليها من السماء ماء[٢٥] ، ويوجد فيها أنعاما[٢٦] ، حتى يجعل لأهلها فيها معايش[٢٧] لم تكن لها في طبيعتها الجدباء .

هذه البلدة الميتة "أذاقها اللهُ لباسَ الجوع"[٢٨] ، وابتلى به أهلَها[٢٩] . وليس على المكّيين الاّ التوسّل الى الله "الذي أطعمهم من جوع"[٣٠] ، هم الذين "ليس لهم طعام الاّ من ضَريع لا يُسْمِنُ ولا يُغني من جوع"[٣١] . ولكثرة الجوع في مكّة عَمَدَ بعضُ الناس الى قتل أولادِهم ، فحذّرهم الله بقوله : "ولا تقتلوا أولادكم خشيةَ إِملاق . نحن نُرزقهم وايّاكم"[٣٢] ، كما حذّر الذين يبيعون بناتهم للزنى ليكسبوا أجورَهنّ بقوله : "لا تُكرِهوا فَتياتِكم على البِغاء لتبتغوا عرضَ الدنيا"[٣٣] .

وقد يكون الجوع ، الذي اختبره المكّيون في حياتهم ، من أشدّ عذابات جهنم . بل هو صورة كافية عنها . قال القرآن عن سكّان جهنم : "ليس لهم طعام الاّ من ضريع، لا يسمن ولا يغني من جوع" . في حين أنّ أفضل خيرات الجنّة يكمن في طعامها الدائم : "مثل الجنّة التي وعد المتّقون تجري من تحتها الأنهار . وأكلُها دائم"[٣٤] . فيها "فواكه كثيرة"[٣٥] قد حُرِمَ منها أهلُ مكّة في حياتهم ، فعوّض الله بها عليهم في جنّته .

---

(٢٤) القرآن ٥٠/ ١١ .
(٢٥) ٤٣/ ١١ .
(٢٦) ٢٥/ ٤٩ .
(٢٧) ٧/ ١٠ ، ١٥/ ٢٠ .
(٢٨) ١٦/ ١١٢ .
(٢٩) ٢/ ١٥٥ : "لنبلونّكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والأنفس والثمرات ..."
(٣٠) ١٠٦/ ٤ .
(٣١) ٨٨/ ٦ "ضريع"، أي : شوك خبيث .
(٣٢) ١٧/ ٣١ ، ٦/ ١٥١ .
(٣٣) ٢٤/ ٣٣ .
(٣٤) ١٣/ ٣٥ .
(٣٥) ٧٧/ ٣١ .

هذه الصورة عن الفقر والجوع، التي أشار اليها القرآن، والتي عاشها المكّيون، لم تغب عن بال المسلمين الفاتحين الذين لم يهجموا هجمتهم الخاطفة الى بلاد الشام، الاّ بسبب الجُهد والفقر والجوع والبؤس الذي ضربهم في جزيرتهم القاحلة. لقد عرفَ المسلمون أنفسُهم، كما عرف عنهم ذلك أعداؤهم، بأنّ الذي دعاهم الى الفتوحات كان الجوعُ والفقرُ أكثر ممّا كان الدين.

وقد نقل الينا الواقدي(+ ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م) صورةً ضافية عن مكّة وأوضاع أهلها السيّئة. فجاء في خطبة لعمر بن الخطّاب بعد عزلِ خالد بن الوليد من قيادة الجيوش المسلمة، فقال: "سمعتُ رسولَ الله (ص) يقول: مَن صبر على أذاها (أي أذى مكّة) وشرِّها كنتُ له شفيعًا يومَ القيامة". وأضاف عمر: "وبلادكم بلادٌ لا زرعَ فيها ولا ضَرْع، ولا ماءَ أوقرُ به الابلَ لآمَنَ مسيرةَ شهر. وقد وعدَنا الله مغانمَ كثيرة. واني أريدُها للخاصةِ والعامّةِ لأؤدّي الأمانةَ والتوقير للمسلمين"(٣٦).

وفي مساجلة بين فلسطين بن هرقل وعمرو بن العاص، قال فلسطين: "شيمتكم أيّها العرب الغدرُ والمكر". أجاب عمرو: "نريد أن .. نأخذَ ما في أيديكم من العَمارةِ والأنهار عِوَضًا عمّا نحن فيه من الشوكِ والحجارةِ والبَلَدِ القفر". فقال فلسطين: "أعلَمُ انّه ما حَمَلكم على ذلك وأخرجَكم من بلادكم الاّ الجُهدُ العظيم". فردّ عمرو: "أيّها الملِك! أما زعمتَ أنّ الجُهدَ أخرجَنا من بلادنا. فنعم. كنّا نأكلُ خبزَ الشعيرِ والذرة، فاذا رأينا طعامَكم واستحسنّاه فلن نبارحَكم حتى نأخذَ البلادَ من أيديكم، وتصيروا لنا عبيدًا، ونستظلَّ تحت أصول هذه الشجرةِ العالية، والفروعِ المورقة، والأغصانِ الطيّبةِ الثمار. فانْ منعتمونا ممّا ذقناه من بلادِكم من لذيذِ العيش، فما عندنا الاّ رجالٌ أشوَقُ

---

(٣٦) الواقدي، فتوح الشام ١/ ٦٦.

الى حربكم من حبكم الحياة، لانّهم يحبّون القتالَ كما تحبّون أنتم الحياة".(٣٧) .

وجاء على لسان هرقل عن المسلمين وأحوالهم الرديئة قوله : " هؤلاء العرب خرجوا من بلاد الجدب والقحط وأكل الذرة والشعير الى بلاد خصبة كثيرة الأشجار والثمار والفواكه، فاستحسنوا ما نظروه من بلادنا وخصبنا . وليس ما يزجرهم شيء لما فيه من العزم والقوّة وشدّة الحرب".(٣٨) . ومرّة أخرى ، وصفهم بقوله : "... العربُ وهم أضعف الخلق، عراة الأجساد، جياع الأكباد".(٣٩) .

والكلام نفسه جاء على لسان وَرْدَان أحدِ قوّادِ الروم يقول فيه عن العرب : "انّ أكثرهم جياعٌ، وعبيدٌ، وعراةٌ، ومساكين . أخرجهم الينا قحطُ الحجاز وجوعُه وشدّةُ الضرر والبلاء".(٤٠) . ووَرَد على لسان هربيس الرومي بطْريقِ حمص يقول لجماعته : "انّ العربَ مَثَلُهم كمَثَلِ السبُع اذا وَجَد فريستَه لم يرجع الى غيرها . وهم قد لحقهم الجوعَ في مدينتكم . واذا أشبعناهم انصرفوا عنّا".(٤١) .

وجاء أيضا على لسان بولص قائد قوّاد الروم في مصر ما توجّه به الى العرب بقوله : "قد علمنا أنكم كنتم في بلادكم، قبل أن تفتحوا البلاد، في قحط وجوع، وتموتون هزالا . وقد ملكتم بلادا، وشبعتم لحما، وركبتم خيولا مسوّمة، وتقلّدتم بسيوف مجوهرة، وسعدتم بعد فقركم وفاقتكم".(٤٢) .

والشيء نفسه عرفه الفرس واختبروه عن العرب . فها هو كسرى يَجمَع

---

(٣٧) الواقدى، فتوح الشام ٢/ ٢١_٢٢ .
(٣٨) المرجع نفسه ١/ ٤١ .
(٣٩) المرجع نفسه ١/ ١٦١ .
(٤٠) المرجع نفسه ١/ ٦١ .
(٤١) المرجع نفسه ١/ ١٤٩، و١/ ٩٨ .
(٤٢) المرجع نفسه ٢/ ٢٣٧ .

قوّاده ويُعلمهم : "أعلموا انّ هؤلاء العرب قد أخرجهم الجدب والجهد . فهم ينظرون لهم مواضعَ يسكنون اليها ، وينزلون فيها .. واعلموا أنّ العرب لهم الطمع .."(٤٣) .

وفي مصادر أخرى غير الواقدي، نرى الشيء نفسه يتكرّر. ففي مروج الذهب نرى قول المغيرة بن شعبه لذي الجناحَين ملكِ نهاوند: "انّا معشر العرب! كنّا أذلّة يطؤنا الناس، ولا نطؤهم ، ونأكلُ الكلابَ والجِيَف"(٤٤) وفي اليعقوبي قولٌ لقُصَيّ جَدِّ قريش: "ولا أعلم مكرمةً عند العرب أعظمُ من الطعام . فليخرجْ كل انسان منكم من مالِه خرجًا" . ويعلّق اليعقوبي بقوله : "فثبتَ المُلكُ في يد قُصَيّ بسبب ذلك"(٤٥) .

وكم صلّى النبيّ الى ربّه يقول له : "أللهم انّي أعوذ بك من الجوع"(٤٦) . وكم صلّى من أجل أمّته بقوله : "أللهمّ انّهم جياع فأشبعهم"(٤٧) . وتأكد النبيّ بانّ الله "لا يقتل أمّتي بسَنَةِ جوع"(٤٨) . وقد عرف بأنّ الله "لا يسلّط على أمّتي جوعا فيهلكهم به عامّة"(٤٩) . وكم نصح لأمّته بقوله لهم: "أطعموا الجائع"(٥٠) . فعرف أخيرا نعمة الله حتى قال : "أن الله أعطاني أن لا تجوع أمّتي"(٥١) .

---

(٤٣) الواقدي، فتوح الشام ٢/ ١٨٤ .
(٤٤) المسعودي، مروج الذهب ٢/ ٣٢٣ .
(٤٥) تاريخ اليعقوبي ١/ ٢٣٩ .
(٤٦) سنن ابي داود، باب الوتر ٣٢، سنن النسائي ، باب الاستعاذة ١٩و٢٠، سنن ابن ماجه، باب الاطعمة ٥٣ .
(٤٧) سنن ابي داود، باب الجهاد ١٤٥ .
(٤٨) ابن حنبل ٥/ ٢٤٢ .
(٤٩) ابن ماجه، باب الفتن ٩، ابن حنبل ٤/ ٣٣٢ و ٣٣٣، ٦/ ١٦ .
(٥٠) البخاري، جهاد ١٧١، أطعمة ١، مرض ٤، دارمي ، سير ٢٦، حنبل...
(٥١) سنن ابن حنبل ٥/ ٣٩٣ .

ألجهد والفقر والجدب والقحط والبؤس والحرمان .. كلّها كانت في مكّـة . وبسببها زحف العـرب ، قبل الاسلام ، بتجارتهم نحو بلاد الشام واليمن وغزّة ومصر والهند ، وزحف المسلمون ، بفتوحاتهم الخاطفة .. وهي التي قرّرت نوعيّة الحياة في مكّة والحجاز وتهامة ونجد والعروض ، كما قرّرت مستوى شرائع القـرآن ، بما أجازت لهم من "مغانم" و"جهاد" .

ولم تكن دعوة الاسلام الملحّة الى فعل الحسنات واتيان الصدقات مـع اليتامى والارامل والمساكين وابناء السبيل.. الاّ من وحي جوع مكّة وفقرها . وربّما أيضا لم تكن شريعة "قطع يد السارق" ومنع "الربا" الاّ لأجل ضرب جشـع الأثرياء في أكلهم أموال الفقراء ..

فلو لم يكن الفقر والجوع في مكّة الى هذا الحدّ ، لما كان المسـلمون في فتوحاتهم بلغوا الى هذا الحدّ ، وبهـذه السرعة الخاطفة . وتبقى كلمـة الرسول في صلاته : "تعوّذوا بالله من الفقر والقلّة والذلّة" (ابن حنبل ٢ / ٥٤٠) صورة صادقة عمّا كان عليه أصحابه في مكّة .

ثالثاً : حرّ مكّة وجفاف مناخها

وزاد في فقر مكّة وقحل طبيعتها شدّةُ الحرّ والجفاف في مناخها . لهيبُ رمالها ، وحرارةُ شمسها ، ونشفُ هوائها ، جعلتْ أرضَها يابسةً قاحلةً جدباء ، لا شجر على سطحها ينعم الانسان بظلّها ، ولا عين ماء ترطّب أجواءها ، ولا اخضرار يخفّف من حدّة حرّها . لا غرابة في ذلك ، فمكة تقع في صحراء قاحلة ، بين جبلين ، تحجز عنها رطوبةَ البحر وأبخرته . وقد ذكر حديثٌ نبويٌّ شدّةَ الحرّ فيها ، فقال : " مَن صبر على حرّ مكّة ساعةً من نهار ، تباعدتْ عنه جهنم مسيرةَ مائة عام " . وقال أيضا : " ان حرّ مكّة هو جزءٌ واحدٌ من سبعين جزءًا من حرّ جهنّم "(٥٢) .

وفي القرآن عن حرّ مكّة ومقابلته بحرّ جهنّم كلامٌ كثير . فها هو يدعو المسلمين الذين تخلّفوا عن الجهاد في غزوة تبوك بقوله : " قل : نار جهنّم أشدّ حرّا لو كانوا يفقهون "(٥٣) . ويعتبر انّ من نِعَم الله على الانسان في مكّة وفرةَ الظلال والغمام والسراويل . قال : " والله جعلَ لكم ممّا خلقَ ظِلالا ... وجعلَ لكم سراويلَ تقيكم الحَرّ "(٥٤) . وقال أيضا : " وظللنا عليكم الغمام "(٥٥) .

ويوم يأتي الله ، في آخر الأزمان ، ليُدينَ الانسان ، سيأتي في ظلال وغمام : " هل ينظرون الا أن يأتيهم الله في ظلل مِن الغمام "(٥٦) . كما أنّه من دلائل صحّة الايمان بالله أن يرى الانسانُ نعمةَ الظلّ يمدّه اللهُ عليه : " ألمْ

---

(٥٢) ابن حنبل ٢/ ٣١٣ ، ٤٦٧ ، ٤٧٨ ، مسلم باب الجنّة ٣٠ .
(٥٣) سورة التوبة ٩/ ٨١ .
(٥٤) سورة النحل ١٦/ ٨١ .
(٥٥) سورة البقرة ٢/ ٥٧ ، انظر : ٧/ ١٦٠ .
(٥٦) سورة البقرة ٢/ ٢١٠ .

ترالى ربّك كيف مدّ الظلّ"(٥٧) . وقد يكون الظلّ الذي يفقده أهلُ مكّة ، من مباهج الجنّة التي يشتهيها المسلمون؛ الى درجة أن تتصف جنّة القرآن بـ" ظلّ ممدود"(٥٨) ، و" دائم"(٥٩) .

وهكذا هو بالفعل حال المتّقين، فهم " في الجنّة في ظلال "(٦٠) ، يتّكئون " فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا "(٦١) . يُدخلهم اللهُ اليها مع " أزواج مُطَهَّرة ونُدخِلُهم ظِلّا ظليلا "(٦٢) . فهم " وأزواجُهم في ظلال على الارائك متكئون "(٦٣) . وجميعُهم " في ظلال وعيون "(٦٤) ، " يتفيّئوا ظلاله عن اليمين والشمائل سُجّدًا لله "(٦٥) ، و " ظلالهم بالغدوّ والآصال "(٦٦) . في الجنّة أشجارٌ وصفت بـ" دانيةٍ عليهم ظلالُها "(٦٧) .. أمّا أصحابُ النار فلا يَنعمون بأيّ ظلّ: " لا ظليل ولا يغني من اللهب "(٦٨) .

وفي الاحاديث النبويّة صورةٌ أخرى رائعةٌ عن الذين يَرضى الله عليهم ، هؤلاء يمتّعهم الله بظلّه يومَ القيامة . يقول : " أظلّه اللهُ يومَ القيامة تحتَ ظلِّ عرشِهِ يومَ لا ظِلَّ الاّ ظلُّه "(٦٩) . وهي نعمةٌ أعطاها اللهُ لرسولِهِ ليكونَ له ظِلٌّ كظلّ الله . يقول : " أظلّه في ظلّي يوم لا ظلّ الاّ ظلّي "(٧٠) . والمسلم الذي يحظى بالسعادة القصوى " يتقلّب في ظلّها في الجنّة "(٧١)(*) .

---

(٥٧) ٢٥/ ٤٥ .
(٥٨) ٥٦/ ٣١ .
(٥٩) ١٣/ ٣٥ .
(٦٠) ٧٧/ ٤١ .
(٦١) ٧٦/ ١٣ .
(٦٢) ٤/ ٥٧ .
(٦٣) ٣٦/ ٥٦ .
(٦٤) ٧٧/ ٤١ .
(٦٥) ١٦/ ٤٨ .
(٦٦) ١٣/ ١٥ .
(٦٧) ٧٦/ ١٤ .
(٦٨) ٧٧/ ٣١ .
(٦٩) سنن الترمذي، باب البيوع ٦٧، سنن الدارمي، البيوع ٥٠، مسند ابن حنبل ١/ ٧٣، ٢/ ٣٥٩، ٣/ ٤٢٧، الخ ...
(٧٠) صحيح مسلم، باب البر ٣٨، الدارمي، باب الرقاق ٤٤، ابن مالك، الموطأ، باب الشعر ١٣، ١٤، ابن حنبل، ٢/ ٢٣٧، ٣٣٨ . الخ ...
(٧١) مسند ابن حنبل ٣/ ١٥٤، ٢٣٠ .
(*) قد يكون من براهين القرآن والاسلام على وجود الله وجود الظلّ، اذ هو الذى " جعل لكم مما خلق ظلالا " (سورة النحل ١٦/ ٨١) .

رابعاً : ندرة الماء في مكة

وساهم في فقر أرض مكة ندرةُ الماء فيها وقلّةُ الأمطار فوقَ سطحها . وبحقٍ سمّي المطر "غيثا" لانّه يغيثُ الناسَ والأنعامَ من موتٍ محتّم . وليس في مكّة سوى بعض الآبار المحفورة لسقايةِ الناس والسَرْحِ ، وكان أهمّها شهرةً "بئرُ زمـزم"، حفرها عبدُ المطلب جَدّ النبي قربَ الكعبة . وقيل انّها من عهد اسماعيل . وقد جرى عليها خصامٌ شديد بين زعماء مكّة، وذلك لشدّةِ حاجةِ الناس اليها والى الاستفادة من مائها والاستقلال بها .

وقد أشارت كتبُ الاحاديثِ والسِيَر الى أنّ اللهَ فضّلَ قريشًا بسَبْعِ خصال ، أهمّها وأعظمها "السقاية"، الى درجةٍ أن اتّهمَ القرآنُ أصحابَه بجعلِهم سقايةَ الحجّاج تعادلُ الايمانَ بالله والجهادَ في سبيله . قال : "أجعلتم سقايةَ الحاجِّ وعمارةَ المسجدِ الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهدَ في سبيلِ الله! لا يستوون عند الله"(٧٢) .

ولقلّة الماء في مكّة اعتبر القرآنُ وجودَها نعمةً يمدُّ اللهُ بها الأرضَ فتنبتُ الزرع ، وتسقي الشجر، وتروي السَرْحَ ، وتحيي الناسَ، وتفجّر الينابيعَ ، وتبعد عن السكّان الهلع والظمأ والمرض والموت . ووفرتُها آيةٌ من آياتِ الله البيّنات . قال : "هو الذي أنزل من السماء ماءً لكم . منه شرابٌ ، ومنه شجر فيه تُسيمون . ينبتُ لكم به الزرعَ والزيتونَ والنخيلَ والأعنابَ ومن كلِ الثمرات . انّ في ذلك لآيةً لقوم يتفكّرون"(٧٣) .

---

(٧٢) سورة التوبة ٩/ ١٩ .
(٧٣) سورة النحل ١٦/ ١٠ .

ولا بدّ من ذكر بعض آيات القرآن ـ مع ما فيها من ترداد ـ تأكيدا على نعمة الماء التي أحيى بها اللهُ الأرضَ بعد موتِها . قال : "وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم."[٧٤] . و"هو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء."[٧٥] . و"أنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتّى."[٧٦] . و"نزّلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنّات وحب الحصيد."[٧٧] . "وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها."[٧٨] . و"جعلنا من الماء كل شيء حيّ."[٧٩] . وبالماء فاضت الينابيع وتفجّرت : "أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها."[٨٠] .

وكما أنّ الأكل والظلّ في الجنّة دائمان، كذلك الماء فهو فيها دافق أبدا : "ظلّ ممدود وماء مسكوب."[٨١] . وفي الحديث "انّ في الجنّة بحر الماء."[٨٢] . وما وعد الله بالماء الغزير والأنهار الجارية في الجنّة الاّ تعويضا عمّا حُرِم منه المكّيون في حياتهم الدنيا، ومكافأة للذين عملوا الصالحات. قال : "ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنّات تجري من تحتها الأنهار."[٨٣] .

وبسبب ذلك شدّد النبي في أحاديثه على "فضل صدقة الماء."[٨٤] ، كأفضل صدقة يستحق المسلم معها الجنّة حيث "الانهار تجري من تحتها".

---

(٧٤) سورة البقرة ٢ / ٢٢، سورة ابراهيم ١٤ / ٣٢ .
(٧٥) سورة الانعام ٦ / ٩٩ .
(٧٦) سورة ٢٠ / ٥٣. انظر : ٣١ / ١٠، ٣٥ / ٢٧ .
(٧٧) سورة ٥٠ / ٩ .
(٧٨) سورة ٢ / ١٦٤، ١٦ / ٦٥، ٢٩ / ٦٣، ٣٠ / ٢٤ .
(٧٩) سورة ٢١ / ٣٠ .
(٨٠) سورة ١٣ / ١٧ .
(٨١) سورة ٥٦ / ٣١ .
(٨٢) سنن الترمذي، باب الجنّة ٢٧، احمد بن حنبل ٥ / ٥ .
(٨٣) انظر : ٢ / ٢٥، ٣ / ١٥، ٥ / ١٢، ٦ / ٦، ٧ / ٤٣، ٩ / ٧٢، ١٠ / ٩. ألخ ..
(٨٤) ابن ماجة، باب الادب ٨، صحيح البخاري، باب المساقاة ١ .

خاتمة الفصل الأول

مكّة اذن قرية فقيرة الموارد ، قليلة الخيرات، شديدة الحرّ جافّة المناخ ، شحيحة المياه، مجدبة التربة، نادرة الأمطار، ضئيلة الرزق، ضعيفة المواسم، صعبة المعاش . تحتاج الى سَنَدٍ لها من الخارج لتدرأ عنها خطرَ الجوع والموت . انّها صحراء قاحلة محرومة، محط ظلم الأرض والسماء : إنْ أمطرتْ جَرَفَ "السيلُ" ما عليها ، وانْ جفّتْ ألهبَ الحرُّ رمالَها . لا مأمنَ فيها من وحشٍ ضارٍ يبحث عن فريسةٍ ليسدّ بها جوعَه، ولا ملجأ لسكّانها من غضبِ السماء في حالتَي السيلِ والقيظ. كل ما فيها يدعو الى حتميّة الموتِ عليها . انّها بحسب وصف القرآن لها : "بلدة ميتة" أو "بلد ميت" أو "أرض ميتة" ، تعوزها نفحةُ الحياة من كل مكان .

الاّ أنّ اللهَ لا يتركُ للموتِ باعاً طويلا ، ولا للفقرِ والجوعِ أن يمرحا ويستبدّا . فنعمتُه تشمَلُ كلَ مكان، ورحمتُه تفيضُ على جميع أهل الأرض ... فكان على مكّة من نِعَمِ اللهِ ومراحمِه أنْ أوجدَ لها نوعاً من المعاش استعاضتْ به عن ظلم الطبيعة وجدبها . وهو تجارتها الواسعة التي تحدّثْ بها قديما كل تجارة في زمانها . وقد نتج عنها مالٌ وثراءٌ وحياةٌ ونعيم . وبسبب هذه التجارة الرابحة ونشاطِ المكّيين أصبحتْ مكّة موقعا تجاريّا لا مثيل له .

واليوم كما بالأمس، تنعم مكّة بما استخرجتْ من بطنِ الأرض من كنوز : كنوز النفط والذهب والفضة ، وبما يأمّها في مواسم الحجّ من حجيج وسائحين ومصلّين . ولها كل ذلك، بحسب تعبير القرآن "رغدا من كل مكان". يجلب اليها رزقها من "خارج".

ولكن، قبل التعرّف على تجارة مكّة مورد رزقها الوحيد، يجدر بنا أن نتعرّف على سكّانها، في ألوانهم وأنواعهم ومختلف مشاربهم. فهؤلاء هم الذين قاموا برزق مكّة وجلبوا اليها الخيرات. وهم الذين قاموا بالتجارة الواسعة كتعويض عن فقر طبيعتها وقحط أرضها.

وسكّان مكّة كانوا هم أيضا "جلبا" من خارج. معظمهم طارئون عليها. وبحسب تعبير الروايات الاسلاميّة "عرب مستعربة"، أي ينتمون الى العروبة انتماء. ولم تكن لهم "العروبة" في الأصل. ونحن نبغي، في الفصل التالي، اظهار هذا الانتماء، وتبيانه بما يتيسّر من أدلّة عليه.

الفصل الثاني

سكان مكة

أولاً : قبل قصي
ثانياً : أسباب الهجرة إلى مكة
ثالثاً : قريش قبيلة التجمع
رابعاً : سكان مكة من غير قريش

خاتمة الفصل الثاني

أولاً : قبل قصيّ

منذ بدء البدء كان الله ، وكان الملائكة في مكّة يسبّحون . ومنذ بدء الخلق أوجد الله مكّة على صورةٍ لها في السماء حيث "البيتُ المعمور يدخله كلَ يومٍ وليلةٍ سبعون ألف ملك"(١) . واندفعتِ الناس صوبَ مكّة ، وتدفّقت منذ آدم وبنيه ، حتى ازدحمتْ بالسكّان ، وارتكبوا فيها الفواحش ، فأرسل الله عليهم الطوفان ليزيحهم عنها ويطهّر الأرضَ منهم ، "فرفع اللهُ الكعبةَ وقتَ الطوفان الى السماء الدنيا"(٢) . ثمّ انتهى الطوفان ، فأعاد اللهُ الكعبةَ الى ما كانت عليه .

عن مُجاهِد قال : "لقد خلقَ الله موضعَ البيتِ قبلَ أن يخلقَ شيئاً من الأرض بألفَي سنة" . وعن كعبِ الأحبار قال : "كانتِ الكعبة غُثاءً على الماء قبل أن يخلقَ اللهُ السماواتِ والأرضَ بأربعين سنة" . وعن ابن عَبّاس قال : "لمّا كان العرشُ على الماء .. بعثَ اللهُ ريحا .. وَدَحا الأرضَ .. فمادتْ ثمّ مادت .. فكانت مكّةُ أُمَّ القرى"(٣) .

بعد الطوفان عادَ الناس الى مكّة ، وقامتْ فيها قبائلُ عديدة ، وكان أوّلَ من اشتهر منهم ، بعلم المؤرّخين المسلمين ، قبائلُ يمانيّةٌ أفسدتِ الأرضَ وما عليها . عُرفَ منها قبيلتا "جُرْهُم" و "قَطُورا" . هاتان جاءتا في الوقتِ الذي جاء فيه ابراهيمُ وابنُه اسماعيل من بلادِ الكلدانيين . و"نكحَ اسماعيلُ في جرهم"(٤) .

---

(١) الازرقي ، أخبار مكّة ١/ ٣٤ .
(٢) الازرقي ، أخبار مكة ، ١/ ٣٢ .
(٣) الازرقي ، أخبار مكّة ، ١/ ٣٢ ، ٣٥ ، ٧٨-٧٩ وما بعدها .
(٤) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ٥/ ١٨٥-١٨٧ .

ولمّا توفّي اسماعيل تولّى أمرَ البيتِ بعدَه أبنُه "نابت" أكبرُ أولاده. ثمّ وَليَ بعده مَضاضُ بن عمرو الجرهمي خالُ أولادِ اسماعيل. ثم تنافستْ جرهمُ وقطورا في المُلك، وتداعَوا الى الحرب، فانهزمتْ قطورا. ثم تداعَوا الى الصلح.. ثمّ انّ جرهمًا بَغَوا بمكّة فاستحلّوا حَرامًا، وظلموا مَنْ دَخلها، وأكلوا مالَ الكعبة.

في هذه الأثناء جاء "العماليقُ" من سيناء، هربا من وجه موسى الذي حاربهم وطردهم الى نواحي مكّة، وسكنوا مع جرهم الذين ملكوا واستبدّوا. ثمّ هجرتْ "خُزاعة" قبيلةً أخرى من اليمن، وفرعً من الأزْد. وكان ذلك عقبَ خرابِ سَدِّ مأرِب. ووقع بين خزاعة، من جهةٍ، وجرهم والعماليق، من جهةٍ ثانية، معارك. فكان النصرُ لخزاعة التي "وَليتِ البيتَ ثلاثمائة سنة. يتوارثون ذلك كابرًا عن كابر، حتى آخرهم حُلَيل بن حبشيّة"[٥]، الذى تزوّج قُصَيّ ابنُ كِلابٍ بِنْته حُبّى.. فكانت بنهايةِ حُليل نهايةُ عهدِ بني خزاعة، وبدايةُ عهدِ قريش، على يدِ قُصَيّ.

وفي علم المؤرّخين المسلمين أيضًا أنّ خزاعةَ، بعد تملّكِها، أقامتْ عليها مَلِكًا اسمه "عَمرو بن لُحَيّ"[٦]. هذا كان أوّلَ مَن نصبَ الأوثانَ في مكّة، وأدخلَ اليها عبادتَها، وغيّر دينَ التوحيد، بعد أنْ كان "إلهُ بني اسرائيل" هو المعبود فيها. ووضع في الكعبة صنمَ "هُبَل" الشهير، وقد استقدمه من بلادِ الشام، وفرضَ سيطرتَه على سائرِ العشائر والبطون حتى صارت جميعُها تُقبلُ على "هبل" للتبرّك منه. وبه قُضِي على ايمانِ ابراهيم الحنيف الذي، بمجيء الاسلام، سيعودُ ويُفرَضُ على شعوبِ الجزيرة كلّها. وعند "فتحِ مكّة" سيكون "هُبل" أوّلَ ضحيّةٍ من ضحايا الاسلام.

جميعُ سكّان مكّة اذن نزحوا اليها من "خارج". فهم طارئون "مستعربون".

---

(٥) معجم البلدان، ٥/ ١٨٥–١٨٧.
(٦) انظر ابن سعد ١/ ٦٦، الازرقي ١/ ٥٧، ابن الاثير ٢/ ٧ وغيرهم.

ثانياً : أسبابُ الهجرة إلى مكّة

ألهجرة الى مكّة هي من ثوابت التاريخ الجاهلي . وهو أمر سهل اثباته . الاّ أنّ أمرين مختلَفٌ فيهما : الأوّل من أين كانت الهجرة ؟ والثاني ما هي أسبابُ الهجرة ؟ وأمران آخران يؤكّدان ذلك : الأوّل ـ وبشهادة المؤرّخين المسلمين أنفسِهم ـ هويّةُ سكّان مكّة "الاستعرابيّة"، أي انتماؤُهم الى "عروبةٍ" لم تكن لهم في الأصل . والثاني تنوّعُ سكّان مكّة واتنيّاتُهم المختلفة .

يُجمع أهلُ الأخبار أنّ معظمَ سكّان مكّة كانوا دخلاء عليها، ونازحين اليها من خارج . فهم من مختلَفِ أنحاء الجزيرة المسمّاة عربيّة، ومن الهلال الخصيب . أي : من اليمَن، وبلادِ فارس والروم، ومن مصر والحبشة والسودان، ومن فينيقيا وفلسطين، وسوريا وبلاد ما بين النهرين .

واختلاط اتنيّاتِهم أدّى الى اختلاطِ أديانهم وتنوّعِ معتقداتهم ولغاتهم . فكان منهم يهود ونصارى وصابئة ومجوس وعبدة أوثان . كما كان في لغاتهم اللغة الحِميرية والمِسنَد والثموديّة واللحيانيّة والدَيدانيّة والقبطية والحُبشية والروميّة واليونانية والعبرانية والارامية والعربيّة، وغيرها . وحسنا ما قال اليعقوبي : "وكانت أديانُ العرب مختلِفةً بالمجاورات لأهلِ الملل والانتقال الى البلدان والانتجاعات" [٧] . يعني : أنّ أديانَ العرب كانت من كل بلد مجاور لمكّة، وكانت مختلِفةً باختلاف الملل، وقد دخلتْ مكّة إمّا بواسطة المبشِّرين، وامّا بواسطة أعمالٍ تجاريّة [٨] .

---

(٧) تاريخ اليعقوبي، ١/ ٢٥٤ .
(٨) أنظر كتابنا : "أعربيّ هو ؟" في سلسلة "الحقيقة الصعبة" رقم ٤ .

ثالثاً : قريش قبيلة التجمع

كان "قصيّ أوّلَ من أصابَ المُلكَ بعد وُلدِ اسماعيل . وذلك في أيّام المنذر بن النعمان على الحيرة والمَلِكِ بَهرامِ جور في الفرس"(١٠) . وقصيّ هو الجدّ الرابع للنبيّ محمّد . توفّي أبوه وهو صغير . فتزوّجت أمّه من ربيعة بن حرام ، من قبيلة "بني عذرة" النصرانية، التي هي فرع من فروع الغساسنة عملاء الروم . ثم أخذته أمّه الى أرض زوجها على مقربة من تَبوك ، من أرض الشام . فسمّي "قصيّاً" لاقصائه عن بني قومه، أو "لبعد داره عن دار قومه"(١١) . ولمّا كبر رجع الى مكّة حيث تزوّج من حُبّى بنت حُليل الخزاعي ، وولدتْ له أربعة ذكور، هم : عبد الدار، عبد مَناف ، عبد العزّى، وعبد قُصيّ .

ولمّا استقرّ أمرُ قصيّ في مكّة، وكثر مالُه، استولى على المدينة، بعد موت حُليل الخزاعي . و"جَمَعَ" حواليه شتاتَ القبائل والعشائر ، وتزعّمها ، وسمّاها "قريشًا"، أي "تجمّعا" . وفي ذلك قال ابن الكلبي : "انّما قريشٌ جُمّاعُ النسَبِ ليس بأب ولا بأمّ، ولا حاضن ولا حاضنة"(١٢) . وقال اليعقوبي : "وكان قُصيّ أوّل من أعزّ قريشا .. فَجَمَعَهَا وأسكنها مكّة"(١٣) . وقال ابن سيّده : "قَرَشَ قرشا ، أي جَمَعَ وضمّ من هنا وهنا"(١٤) . وقيل : "سمّيت بذلك لتقرّشها أي تَجَمّعِهَا الى الكعبة بعد تفرّقها في البلاد"(١٥) . وقيل أيضا : "وقُصيّ هو

---

(١٠) معجم البلدان لياقوت الحموي، ٥/ ١٨٧ .
(١١) تاريخ الطبري، ٢/ ٢٥٥، السيرة الحلبية، ١/ ١١ـ١٢ .
(١٢) أنظر : طبقات ابن سعد ، ١/ ٦٦، ٦٩، ٧١، نهاية الارب ، ١٦/ ٢٠ .
(١٣) تاريخ اليعقوبي ، ١/ ٢٤٠ .
(١٤) عن لسان العرب، ٦/ ٣٣٤، مادة "قريش" .
(١٥) انظر ايضا : ابن هشام ١/ ٨٧، الحلبية ١/ ٢٤، الازرقي ١/ ١٠٨ وغيرها .

جُمّاعَ قريش. فلا يقال لأحد من فوقه قرشيّ"(١٦) . وفي ذلك قال الشاعر(١٧):

قُصَيٌّ أبوكم كان يُدعى مُجَمِّعًا ... بهِ جَمَعَ اللهُ القبائلَ مِن فِهْر.

وكان قُصَيّ "رجلا جليدا حازما بارعا"(١٨) . وهو "أوّلُ رجلٍ من بني كنانة أصابَ مُلْكًا، وأطاع له به قومُه. فكانت اليه الحِجابةُ والرِفادة والسِقاية والنَدوة واللِواء والقِيادة"(١٩) . وكان أيضا "أوّل من أعزّ قريشًا، وظهر به فخرُها، ومجدُها، وسناها، وتقرّشها. فجمعَها وأسكنها مكّة، وكانت قبل ذلك متفرّقةَ الدار، قليلةَ العزّ، ذليلةَ البقاع، حتى جمعَ اللهُ إِلْفَتَها، وأكرم دارَها، وأعزّ مثواها"(٢٠) . و "كان أمرُه في قومِه كالدين المتّبع في حياته وبعد موته"(٢١) .

أمّا كيف تمّ له ذلك؟ فيذكر أهل الأخبار أنّ قيصرَ الروم أعانَ قُصيًّا على خزاعة(٢٢) . وكان ذلك عن طريقِ الغساسنة حُلفاء الروم، بواسطة قبيلة زوجِ أمّه "بني عذرة"، من "قضاعة" النصرانيّة التي كانت تقيم في بادية الشام، على مقربة من "تبّوك". وقد كانت خاضعةً لنفوذ الروم(٢٣) . ولم تكن الاستعانة بالروم بِدْعًا بين القبائل العربية والأفراد، فعثمانُ بنُ الحوَيْرث توسّط، فيما بعد، لدى الروم، لتنصيبِ نفسِه مَلِكًا على مكّة. ولكنّه لم يوفّق(٢٤) .

---

(١٦) السيرة الحلبية، ١/ ٢٤.

(١٧) انظر: الازرقي ١/ ١٠٧، ابن هشام ١/ ١١٦، اليعقوبي ١/ ٢٤٠، ابن سعد في الطبقات ١/ ٧١، الطبرى ٢/ ٢٥٦، الحلبية ١/ ١٣، العقد ٣/ ٣١٢.

(١٨) السيرة الحلبية ١/ ٢٤.

(١٩) الازرقي ١/ ١٠٧. انظر معاني هذه المآثر في ما بعد.

(٢٠) تاريخ اليعقوبي ١/ ٢٤٠.

(٢١) الكامل لابن الاثير ٢/ ١٣.

(٢٢) ابن قتيبة، المعارف، ٦٤ حيث قال: "وأعانه قيصر عليها".

(٢٣) الشريف، مكّة والمدينة، ١٦٠، وات، محمد في مكّة، ١٣.

(٢٤) الثعالبي، ثمار القلوب ١٦، الكامل لابن الاثير ٢/ ٧، المعارف لابن قتيبة ٦٠، ١١٧، ١٢٠، ١٣٠، طبقات ابن سعد ١/ ٦٨، ابن حبيب، المحبر، ١٧١، وات، محمّد في مكّة ١٥، لامنس، مكة عشية الهجرة (بالفرنسية) ص ١٥.

أوّل رئيس من رؤساء مكّة يمكن أن نقول أن حديثنا عنه هو حديث عن شخص عاش حقّا، وعمل عملا في هذه المدينة.. وهو أوّل رجل نتكلّم عن بعض أعماله ونحن واثقون ممّا نكتبه عنه ونقوله"(٣٢). ونثق أيضا بنسبة عظماء قريش اليه والى أولاده. ومعظم مشاهير رجال الاسلام ينتسبون اليه. فاليه ينتسب مثلا النبيّ محمّد والقس ورقة وخديجة وعلي وبنو هاشم وأميّة، كما في هذه الشجرة:

قصيّ

عبد الدار — عبد العزّى — عبد مناف — عبد قصيّ

عبد الدار ← السبّاق ← عامر ← الأسود ← أبو العاص، سفيان، حرب

أبو العاص ← عفّان ← عثمان

حرب ← صخر

عبد العزّى ← أسد ← نوفل، الحويرث، خويلد

نوفل ← ورقة

الحويرث ← عثمان

خويلد ← خديجة

عبد مناف ← عبد شمس، هاشم، المطّلب، نوفل، وهب، أميمة..

هاشم ← عبد المطّلب ← عبد الله، أبو طالب، العبّاس، أبو لهب، حمزة..

عبد الله ← محمّد

أبو طالب ← علي ← الحسن، الحسين ← أئمّة ١٢

العبّاس ← فضل

أبو لهب ← عتبة

في هذه السلسلة "القُصَيويّة"، كما ترى، ظهرَ الاسلام، ومنها جاء محمّد، وبلغتها نزل القرآن، ومن رجالاتها استخلف الخلفاء، وظهرت الأئمّة، وتكوّنت الفرق، وأُنشأتِ الدول، وافتتحت بلاد الشام وأفريقيا وأوروبا، وأسلمت المسكونة... ومن هذه السلسلة قامت ممالك وانقرضت أخرى، وبعضها لا يزال مستمرّا. واليها انتسب رجال عظماء في العلم والأدب والدين. ومنها أيضا تأسست شيع دينية وأحزاب سياسيّة، حاربت بعضها بعضا، ولا تزال. منها من انتمى الى الاسلام في الظاهر دون الباطن، ومنها من اتّخذ الاسلام غطاء لستر معتقد باطني.. وكلّ ذلك يكوّن لدينا دليلا بعد دليل على أنّ "قريشا" لم تكن الاّ "تجمّعا" لم تنصهر أفراده بحال من الاحوال.

(٣٢) د. جواد عليّ، المفصّل في تاريخ العرب قبل الاسلام ٤/ ٢٢.

رابعاً : سكان مكة من غير قريش

مرّة أخرى نعود الى تنوّع السكان في مكّة . ومن الطبيعي أن يكون فيها مثل هذا التنوّع، نظرا الى مكانتها التجاريّة الشهيرة، وموقعها الجغرافي الوسيط بين الشمال والجنوب، ووجود الكعبة محجّة لجميع الملل والأديان، وشرعة احترام الأشهر الحرم التي أوجبت أمنا وسلاما وحرّية .. فبسبب ذلك وفد الى مكّة شعوب من مختلف الاثنيّات والمنتجعات والبلدان .

مِن هؤلاء مَن كان مِن الحبشة ومصر والسودان، ومَن كان مِن فينيقيا وفلسطين وغزّة وبلاد الشام، ومَن كان مِن العراق وفارس ومملكتي الغساسنة والمناذرة، ومَن كان مِن اليمن وحضرموت والبحرين، ومَن كان من دولتي الفرس والروم، ومن اليونان وآسيا ... ومنهم أيضا من كان يهوديّا، أو نصرانيا، أو مجوسيّا، أو صابئا، أو عابد أوثان ... ومنهم من كان تاجرا، أو بنّاء، أو حدّادا، أو صائغا ... ومنهم من كان مواليا أو مملوكا يعمل لحساب غيره ... ومنهم من كان من المبشّرين أو من أهل العلم والمعرفة، أو أيضا من أصحاب الأدب والشعر والخطابة ... ومنهم أخيرا من كان يتجسّس لصالح بلد منشأه، أو كان مهاجِرا، أو سائحا، أو مهجّرا، أو مطرودا خليعا .

كل هذه الأصناف من البشر كان في مكّة، في بداية البعثة النبويّة . والدليل على ذلك وجود كلمات في القرآن مأخوذة عن "الفرس والروم والنبط والحبشة والبربر والسريانيّة والعبرانيّة والقبط.."(٣٣) ممّا جعل أبا بكر يقول: "في القرآن من اللغات خمسون لغة"(٣٤) . وهناك أيضا آيات غير قليلة تشير

(٣٣) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن ١/ ١٣٥: "فيما وقع فيه بغير لغة العرب" .
(٣٤) أبو بكر الواسطي، الارشاد في القرآت العشر . عن الاتقان ١/ ١٣٥ .

النجاشي الذى وجد المسلمون الأوّلون فيه "خيرَ جار في خيرِ دار"، وحملوا له من الرسول "سورة مريم"، وهي آية في الايمان بالمسيح وأمّه وعجائبه ... وفي القرآن أيضا ذكر لحادثة نجران لبقاء صورتها في مخيّلة الناس[٣٨].

الاّ أنّ الأحباش لم يَبقوا على صفاء دمهم الحبشي، بل تزاوجوا مع قريش وسائر القبائل القاطنة في مكة، حتى أصبح كثير منهم يُعَدّ من قريش وكنانة، ويُحْسَبُ، بالتالي، فرعاً من فروع قريش، وإنْ دون مستواهم فخرًا. وبهذا أصبح الاحباشُ، بنظر بعضِ الباحثين، من سكّان مكّة الأصيلين. وقد أشار بعضهم الى أنّ قوما من أشراف مكّة تزوّجوا من حبشيّات، فأولدنَ لهم أولادا حفظَ التاريخُ اسمهم، أمثال: فضلة بن هاشم بن عبد مناف، ونفيل ابن عبد العزّى، وعمرو بن ربيعة، والخطّاب بن نفيل والد الخليفة عمر، وعمرو ابن العاص، وجماعة آخرين[٣٩].

وكان المكّيون يعتمدون على شجاعة الأحباش وانصياعهم ليكلّفوهم بمهامّ التجارة وخفارة القوافل والأعمال الصعبة. ويذكر لنا ابن سَعْد عن أحد سادة هُذيل انّه كان "يمشي وراءه الأحابيش"[٤٠]. والنبي محمّد "كان عنده من الاحابيش بَلال وأخوه أبو رويحَة. وكان بَلال يمشي أمامَه مستلّا سيفَه.." وأشار المحدِّثون الى وجود غيرهما في حاشية النبيّ، حتى أنّهم ذكروا من هؤلاء أخا النجاشي نفسه"[٤١]. ويذكرون أيضا أنّ النبيّ، بعد فتح مكّة، فكّر بالسير على بني هوازن، فنصحه أبناء وطنه أن يستخدم في ذلك الحبشان[٤٢].

---

(٣٨) أنظر سورتي مريم ١٩ والبروج ٨٥ في القرآن.
(٣٩) انظر فصل "أبناء الحبشيات" في المحبر لابن حبيب، ص ٣٠٦.
(٤٠) طبقات ابن سعد ٢/ ٣٦.
(٤١) أنظر: أسد الغابة في أسماء الصحابة ٢/ ١٤٤، ٣/ ٣٦، ٤/ ٢٥٣، مسند ابن حنبل ٤/ ٩٠، الخراج لابي يوسف، ص ١١٩.
(٤٢) كتاب الاغاني للاصفهاني ١/ ٢٣.

ولكثرة الأحباش في مكّة وشدّة نفوذهم كانوا ينشرون الذعر بين الناس . وكان قد سرى اعتقاد فيما بين قريش بـ "أنّ الكعبة يهدمها الأحباش"(٤٣) . وبالفعل كانت قد تعدّدت غزوات الأحباش على ساحل مكّة، في حياة النبيّ(٤٤). وبعد موته، فاضطرّ عمر بن الخطّاب الى ارسال حملة خاصّة بهم ، ولكنّها هلكتْ كلّها(٤٥) . وبسبب ذلك وُضِعَ على لسان النبيّ حديثٌ خطير في شأنهم يقول فيهم : "لا تبعثوا الرابضين التركَ والحبشة" . يريد : "لا تهيّجوا عليكم الأحباش (والأتراك في أيّام العبّاسيين) ما داموا رابضين ساكنين لا يقصدونكم" (٤٦) .

وقد رأى الأب هنري لامنس أنّ الأحباش كانوا يؤلّفون قوّة عسكريّة وتنظيما قائما ، كوّنتهم مكّة للدفاع عنها(٤٧) . وتبيّن له أنّهم كانوا جماعة قائمة بذاتها ، مستقلّة في ادارة شؤونها ، يدبّر أمورَها رجالٌ منهم ، يُعرف أحدهم بـ "سيّد الأحابيش"(٤٨) . وقد عاشوا عيشة بدويّة خارج مكّة، يعملون لسادة قريش ، في خفارة تجارتهم ، وفي حراسة أعمالهم ، وصناعات يدوية، وخدمات منزليّة . وقد كان من نسائهم مرضعات ومربّيات كثيرات . ويذكر أنّه كان منهنّ للنبيّ أكثر من واحدة ..

بيد أنّ انفصال الأحباش عن أهل قريش لم يكن ظاهرا الى هذا الحدّ ، كما أنّه لم يكن بدون اختلاطهم مع قريش اختلاط مصالح ، ومصاهرة، ومشاركة في أمور عامّة، وفي معتقدات دينيّة، لم يَسْلَم القرآنُ منها في تقرير عقيدته في الله والمسيح وسائر الأنبياء وفرائض الدين العمليّة .

---

(٤٣) الأزرقي ١٩٣ ، سنن أبي داود ٢/ ١٣٣ ، النهاية لابن الأثير ٢/ ١٩٣ و ٢٦٤ .
(٤٤) طبقات ابن سعد ٢/ ١١٨ . و ٤/ ١٨٨ .
(٤٥) أسد الغابة ٤/ ١٤ .
(٤٦) النهاية ٢/ ٥٩، ابو داود ٢/ ١٣٣ ، ابن الديبع ، تيسير الوصول ٣/ ١١ .
(٤٧) الاحابيش والنظام العسكري في مكّة زمن الهجرة، المشرق سنة ١٩٣٦ ج ٤ .
(٤٨) ابن سعد ٢/ ٧٠ ، الاغاني ١٤/ ٢٠ ، ١٩/ ٧٩ ، ابن هشام ٢٤٥ ، ٧٤٣ ...

وعند أهل الاخبار أيضا ذكر عن جماعات نصرانيّة من عين التمر، في ما بين النهرين (٦٤)، ومن المصريين ذكور واناث رافق عدد منهم ماريّة القبطية هديّة المقوقس ملك الأقباط الى النبيّ (٦٥)، ومن اليونانيين جارية في حرم عبّاس (٦٦). ونذكر أيضا "فرات بن حيّان" وهو أشهر الادلاّء وقادة القوافل في مجاهل الصحراء (٦٧)..

وقبل دعوة النبيّ بسنوات عدّة، وكانت الكعبة "لا سقف عليها" (٦٨)، جاء رجل من الروم، أو من الأقباط، اسمه "باقوم" أو باخوميوس، وراح يعمل فيها ويسقّفها وينجّر أبوابًا لها. وتذكر كتب الأخبار أيضا أطبّاء وجرّاحين وأطبّاء أسنان "كانوا كلّهم من النصارى في مكّة" (٦٩). كما تذكر الكتّاب والحَسَبة والمعلّمين دون أن تذكر "اسم معلم واحد من القرشيين" (٧٠).

وهناك عنصر آخر من الوجود النصراني الواسع في مكّة، وهو يعود الى نساء نصرانيّات تزوّجن من أهل مكّة. وهنّ من اثنيّات مختلفة. فوالدة "عائشة" زوج الرسول، واسمها "أم رومان" من نساء النصارى، وهي من قبيلة طيّ النصرانيّة، تزوّجها أبو بكر الصديق ليكون له مع قبيلتها حِلفٌ ومصاهرة (٧١). وكذلك كان لعثمان بن عفّان زوجةٌ نصرانيّة (٧٢)، وللخليفتين معاوية ويزيد أيضا زوجات نصرانيّات من بني كلب (٧٣).

---

(٦٤) الواحدي أسباب النزول ٢١٢، أسد الغابة ٣/ ١٣١، ٥/ ٤٦٢، ١٩٤.
(٦٥) أسد الغابة ٤/ ٢٦٨، وغير ماريّة القبطية من أقباط مصر تجدها في أسد الغابة ٥/ ١٢٨، ٤/ ٢٤٢، الذهبي، ميزان الاعتدال ٣/ ١٣٤.
(٦٦) اسد الغابة ١/ ٢١٢، ٤/ ٢٣٢.
(٦٧) ابن سعد ٣/ ٦٧. يذكر ابو داود عنه انه كان حليفًا للأنصار في ١/ ٢٦٢.
(٦٨) تاريخ الطبرى ٢/ ٢٠٠، الحلبية ١/ ١٤٣، الاصابة ١/ ١٣٦، ١٦٦.
(٦٩) لامنس، النصارى في مكّة... مشرق ج٣٥، سنة ١٩٣٧، ص ٢٦٧.
(٧٠) المرجع نفسه، ص ٢٦٨.
(٧١) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ١٨٠.
(٧٢) شيخو، النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، ص ١٢٠.
(٧٣) لامنس، في كتابيه بالفرنسية "معاوية" ص ٣٠٩، و"يزيد".

وعرف عن عثمان انه زوّج بنتا له اسمها "أم حبيبة" من أحد شبّان النصارى[(٧٤)] . وكذلك النبيّ زوّج أحدى بناته الى عتبة بن أبي لهب الذى اعتنق النصرانيّة ومات عليها[(٧٥)] . وقد شَهِدَ على نصرانيّته أمام النبيّ نفسه ، وقال له بجرأة : "يا محمّد ! أشهَدُ أني نصراني قد كفرتُ بربّك، وطلّقتُ ابنتَك."[(٧٦)] .

وليس مَن ينكر على أبي سفيان دوره وحماسه في اسلامه حتى كان " لا يسقط له رأي في الجاهلية" . ومع هذا " لم يتراجع عن اختيار أصهرة وأحماء من النصارى . ولقد تبعه محمّد نفسُه في هذا السبيل."[(٧٧)] . والنّبيّ ، الذى يجهل المسلمون دينَه الأساسي ، أو يتجاهلون، كانت معظمُ زوجاتِه ممّن لهنّ علاقةٌ قريبةٌ بالنصرانيّة، ان لم نقلْ من النصرانيات : لقد تزوّج أوّلَ ما تزوّج من خديجة، وهي بنت عمّ القس ورقة رئيس النصارى في مكّة[(٧٨)] ، وبنت عمّ عثمان بن الحويرث أيضا ، وقد مات على نصرانيّته في بلاد الروم . ثم تزوّج من عائشة بنت "أم رومان" النصرانيّة، كما رأينا . ثمّ من سَودَة مطلّقة زَيْد بن نفيل زعيمِ الحنفاء ، ثمّ من أمّ حبيبة مطلّقة عبد الله بن جحش الذي تنصّر وهو في الحبشة، وهو ابن عمّة الرسول المدعوة "أميمة" . ثم من ماريّة القبطية هديّة ملك القبط ...

وتبقى اشارةٌ سريعة الى بني أسد بن عبد العزّى بن قصيّ . هؤلاء هم من "الملأ الأعلى" في مكّة . وكانوا أقرب أُسَر قريش الى النصرانيّة . بل "قومٌ كثيرٌ منهم قد تَنَصّر" ، على حدّ قولِ اليعقوبي[(٧٩)] . وقد منحوا "لقبَ

---

(٧٤) طبقات ابن سعد ٨/ ٦٨، ابن هشام ١٤٣-١٤٤، ابن قتيبة المعارف ٤٢ .
(٧٥) أسد الغابة ٥/ ٤٥٦ .
(٧٦) الاغاني ١٥/ ٦٢، لامنس، فاطمة (بالفرنسية) ، ص ٣ .
(٧٧) لامنس ، النصارى في مكّة ، المشرق ج ٣٥، سنة ١٩٣٧، ص ٤٧٢ .
(٧٨) راجع كتابنا "قس ونبي" .

الأحلاف لعددٍ من نصارى غسّان"(٨٠) الذين كان لهم حظّ النزول في "بطحاء مكّة، منزلِ الأسر الكريمة، وحظّ السكن بجوار الكعبة في أقدس بقعة من مكّة"(٨١). اذا عرفنا ذلك نكون عرفنا "أيّ تأثير كان لهم، وبأيّة عناية كان يحيطهم أبناء مكّة"(٨٢).

ومن المعروف أن الغسّانيين كانوا "ملوك الشام"، وذوي تأثير كبير بسهرهم على الحدود البيزنطيّة، وبحفظهم طرق القوافل الذاهبة والآيبة من بلاد الروم واليها. وهو أمر في بالغ الأهمّية بالنسبة الى المدينة المقدّسة.

٣ً ـ ألمناذرة :

لقد حصل رجال مكّة من كسرى عهدا للمتاجرة في بلاده(٨٣) كتلك العهود التي حصلوها من الروم والحبشة واليمن ومصر. وبواسطة هذا العهد أيضا سُمح للفرس بدخول مكّة، وبشراء البضائع منها بأسعار مقبولة، ليبيعوها للبيزنطيين، عن طريق العراق وتدمر، بأغلى الأثمان. وبدخول الفرس مكّة، وتنقّل المكّيين في بلاد فارس، حصلت علاقات على مختلف الصعد. فكانت الديانة المجوسيّة، على ما يبدو من القرآن وكتب السِيَر، معروفةً في مكّة معرفة تامّة. وكذلك لغة الفرس التي أدخلت الكثير من مفرداتها في اللهجات المكّية. وذلك قبل اجتياح المسلمين لبلاد فارس، وقبل معرفتهم باللغة الفارسيّة.

---

(٧٩) تاريخ اليعقوبي ١/٢٥٧.
(٨٠) الأزرقي، ٤٦٦، أسد الغابة ٥/ ١٥.
(٨١) الأزرقي، ٤٥٨، ٤٦٠، لامنس، النصارى في مكّة زمن الهجرة، مشرق ١٩٣٧، جـ ٣٥، ص ٢٧٦.
(٨٢) لامنس، المرجع السابق مع مراجعه.
(٨٣) تاريخ الطبرى ٢/١٢.

وبسبب عهود قريش مع الفرس استطاع المكّيون الاتّصال المباشر مع المناذرة أهل الحيرة والأنبار، حلفاء الفرس، وأعداء الغساسنة والبيزنطيين. وكان هؤلاء المناذرة يتاجرون في أسواق مكّة في حماية بعض رؤساء القبائل العربيّة(٨٤). وبسبب هذا النشاط التجاري تعلّم المكّيون أصولَ الكتابة والقلم العربي من الحيرة(٨٥). وجاء معلّمون من الحيرة والأنبار يدرّسون لغتهم في مكّة، حتى أصبحتْ لغتُهم وقلمُهم هما لغة قريش وقلمها المعمول به حتى اليوم(٨٦). ومع اللغة دخلت معتقدات وعادات من أهل الحيرة، وظهرت جليًّا في القرآن والأحاديث النبويّة.

ولكن، رغم اتّصال مكّة بالفرس، لم يعرف عن هؤلاء أنّهم نشطوا في تجارتهم مع مكّة، وذلك بسبب استيراد الفرس أنفسهم للبضائع من بلد نشأتها، أى من الهند وامارات الخليج الفارسي. فلهذا لم يكن تأثير بالغ بين مكّة وبلاد فارس. بل كان اتّصال مباشر بين هؤلاء الفرس ومصادر بضائعهم، ممّا أضعف الحركة التجارية بينهم وبين مكّة. أضف الى ذلك: انّ "احتكار الفرس للتجارة الشرقيّة، ومغالاتهم في قيمة الضرائب، ورفع الأسعار، من الأسباب التي روّجت تجارة مكّة، وقوّت مركزها لدى البيزنطيين"(٨٧). ومع ذلك استفادت قريش من حلفاء الفرس أعظم ما يمكن أن يستفيده انسان، أى اللغة والقلم العربيين. لقد كان المناذرة بالنسبة الى مكّة والحجاز تماما كما كان الفينيقيون بالنسبة الى اليونان والرومان.

---

(٨٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ١/ ٣٥٩ــ٣٦٠، النويرى، نهاية الأرب، ١٥/ ٤٢٥، أحمد أمين، فجر الاسلام، ١٤.
(٨٥) ابن هشام ١ ٢٩١، الزبيرى، نسب قريش ١٣٦، وخاصّة البلاذرى، فتوح البلدان، ص ٤٥٦ــ٤٥٧.
(٨٦) أنظر كتابنا "أعربي هو؟"، فصل اللغة العربية.
(٨٧) الشريف، مكّة والمدينة...، ص ١٦٣ــ١٦٤.

٤ــ أليهود ــ المتنصّرون (أي ألنّصارى):

لا نجد لليهود، في السور المكّية، أيّ ذكر. بل لفظة "يهود" نفسها لم يستعملها القرآن المكّي. ولكن هناك استعمال واسع للفظتي "أهل الكتاب"(٨٨) و "بني اسرائيل"(٨٩)، وللفظة "نصارى"(٩٠)، كما أنّ هناك ذكرا لأنبياء العهد القديم وشخصياته البارزة، ابتداء من آدم وقصّته في الجنّة، وأبنائه وأحفاده، الى نوح وأولاده وحادثة الطوفان، الى ابراهيم وأبنيه وامرأته هاجر، الى لوط وعمله الشنيع مع بناته، الى يعقوب وأسباطه الاثني عشر، الى يوسف وقصّته مع أخوته، الى موسى وهارون ويشوع بن نون، وقصّتهم مع فرعون مصر... الى تعاليم مأخوذة مباشرة من التوراة والمزامير والأسفار الحكمية.. الى غير ذلك الكثير الكثير...

ولكن هذا لا يعني أنّ القرآن المكّي أخذ معارفه عن اليهود مباشرة. فهذه كلّها أمور مشتركة بين اليهود واليهود ــ المتنصّرين، أي، النصارى. وليس من حجّة تدلّ على أنّ النبيّ أخذ علمه بها من اليهود. بل هناك حجّة تثبت عكس ذلك، أي تثبت أن القرآن لم ينقل عن اليهود، اذ لو كان أخذ عن اليهود مباشرة، لكان، أقلّه، ذكر، ولو مرّة واحدة، اسما من أسماء أحد الأنبياء اليهود الكبار، أمثال: اشعيا، وارميا، وحزقيال، وعاموس، وهوشع، وغيرهم.. جلّ ما أخذه القرآن كان من الأسفار الخمسة الأولى، وهي أسفار مشتركة بين اليهود والنصارى، دون سواها من أسفار العهد القديم.

والمسلمون أنفسهم يشهدون على غياب اليهود عن مكّة. فصاحب كتاب "مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول" يؤكّد ب "أنّه لم تكن في مكّة جالية

---

(٨٨) يرد هذا التعبير ٥٤ مرّة. انظر المعجم المفهرس للقرآن.
(٨٩) يرد هذا التعبير ٤١ مرّة. انظر المعجم المفهرس للقرآن.
(٩٠) يرد هذا التعبير ١٤ مرّة. انظر المعجم المفهرس للقرآن.

يهودية كبيرة، ولا صغيرة، حيث لم يذكر القرآن المكّي احتكاكا ولجاجا بينهم وبين النبي كما حدث في يثرب. ومن المحتمل أنّ المستقرّين منهم بمكة كانوا أفرادا قلائل .. وانّه لم يكن لهم أثر في حياة مكّة السياسيّة، كما كان شأن الاسرائيليين في يثرب"(٩١).

وربما يعود سبب ذلك الى أنّ عمل اليهود لم يكن يناسب وضع مكّة التجارى، ولا وضع اليهود الديني والقومي يناسب وضع بلد مفتوح كمكّة: فمكة مدينة تجارية، واليهود شعب يعمل في الصناعة والزراعة. مكّة مدينة مفتوحة، واليهود شعب مغلق على ذاته. مكّة سمحة، متساهلة، تترفّع عن كل تعصّب، واليهود يشدّهم التعصّب، وتتأكّلهم الأنانيّة والأثرة. مكّة تقبل في كعبتها آلهة متنوّعة، وتمارس عبادات وتقاليد متلوّنة، واليهود يغارون على يَهْوَاهُم، ويتشدّدون في ممارساتهم الدينية. مكّة تستميت في فعل الحسنات والصدقات، واليهود يتأكّلهم الشحّ والبخل. مكّة تهوى الحركة والتنقّل وتغيير السلع والبضائع، واليهود يفضّلون الاستقرار، ويميتهم التفريط والإسراف...

فاذا ما استجاب القدر ونجح أحد أبناء مكّة بثورة اجتماعيّة ما، فسوف يكون اليهود أوّل ضحيّة لأيّة ثورة. سيكون ذلك لا محالة. ولا محالة قد كان ذلك.

زد على ذلك: ان اجلاء الأحباش لليهود عن اليمن، بعد حادثة نجران، أكمل سعيه فأجلاهم عن مكّة، طريق الأحباش اليها. وأيضا: انّنا لم نسمع قط بأيّة قبيلة يهوديّة سكنت مكّة، أو رابطت في ضواحيها. وأيضا: منذ البدء، وتحسّبا لما بعد، تنبّه تجّار مكّة وأربابها الى خطر اليهود عليهم في اقتصادهم ومعتقداتهم. وفي السيرة أيضا، نرى جميع الذين عرفوا علامات النبوّة العتيدة في محمّد، حذّروه من خطر اليهود المحدق. ونحن ان لم

(٩١) ابراهيم الشريف، ص ٩٥.

نأخذ بهذه التنبوءات، فاننّا لا نستطيع الاّ الأخذ بهذا الخطر والتأكّد منه والتنبّه اليه(٩٢) .

الاّ أنّ خطأ جسيما وقع فيه المخبِرون والمحدِّثون وأصحاب السِير، وهو يكمن في خلطهم بين اليهود واليهود ـ المتنصّرين . أولئك لم تعرفهم مكّة ، أمّا هؤلاء فمعظم مكّة منهم . هؤلاء هم المسمّون في القرآن "أهل العلم" و"بني أسرائيل" و"أهل الكتاب" و"النصارى" و "الحنفاء" و "الحمس" و "الصابئة" . وهم يختلفون في عقيدتهم عن اليهود وعن المسيحيين سواء . عن اليهود لأنّهم يؤمنون بالمسيح ، فيما اليهود لا يؤمنون به وعن المسيحيين لأنّهم يؤمنون بالمسيح نبيّا ورسولا فحسب ، فيما المسيحيون يعتبرونه الها أو ابنا لله . على هؤلاء المسيحيين لم يتعرّف محمّد الاّ في السنة ما قبل الأخيرة من رسالته ، أى في ما يسمّى بـ"عام الوفود" ، وقد كان لهم مناوئا(٩٣) .

---

(٩٢) أنظر في ذلك كتب السير عن تنبّوءات الأحبار والرهبان والكهّان والسحرة والملوك .. وجميعهم يحذّر النبي من خطر اليهود . راجع : سيرة ابن هشام ، وطبقات ابن سعد ، والسيرة الحلبيّة، والمكيّة، وابن كثير، والطبرى، وابن الأثير، واليعقوبي ، والمسعودى، وابن خلدون ، والواقدى، وغيرهم وغيرهم ...

(٩٣) أنظر كتاب "قسّ ونبيّ" في الفرق بين المسيحيين والنصارى واليهود .

خاتمة الفصل الثاني

نستنتج من وضع سكّان مكّة جملة أمور، قد تكون بالغة الأهمّية في بدء البعثة النبويّة، في مطلع القرن السابع للميلاد . ونوعيّة سكّان مكّة، كطبيعتها وموقعها، تقرّر نوعيّة البعثة المحمدية . فالرسالة انّما تكون لشعب يدركها ويفهمها . انّها رسالة معيّنة لشعب معيّن، في وضع معيّن، في زمن معيّن، وفي بيئة معيّنة . وتكون بلغة يدركها الجميع، وفي متناول الجميع . ألم يقل القرآن : "لقد منّ الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم".(٩٤) ؟ ألم يقل أيضا : "أرسلنا فيكم رسولا منكم".(٩٥) ؟ أو قوله : "لكل أمّة رسول" (٩٦) ؟ أو "بعثنا في كل أمّة رسولا".(٩٧) ؟.. لهذا السبب نستطيع القول: ان نوعيّة الشعب تحدّد نوعيّة الرسالة اليه وتفرضها عليه .

وشعب مكّة لا بدّ هو الآخر من أن تميّزه طبيعة الأرض التي تغمره، فتطبعه البيئة بطابعها، ويوجّهه المجتمع بحسب توجّهاته وقيمه . وأهم صفات هذا المجتمع البشري في مكّة انّه "شعب تجمّع"، لا يؤلّف "جماعة" . وشعب "منفتح" لا مغلق . وشعب "حركة" تجاريّة ناشطة، لا شعب راكد خمول . انّه شعب متساهل سموح، لا شعب متعصّب مترمّت . ومكّة لم تكن في عزلة عن العالم الخارجي . وسكّان مكّة لم يكونوا ليكرهوا الغريب والجار، كما يصوّره أهل الأخبار . بل كانوا يرحلون، يسافرون، يتاجرون، يأخذون ما عند غيرهم، ويتأثرون بما لغيرهم من مناقب وقيم، ويتصاهرون مع غيرهم، ويتعاملون مع الكل في كل شيء .

---

(٩٤) القرآن ٣/ ١٦٤، أنظر : ٢/ ٦٢، ٢/ ١٢٩ .
(٩٥) القرآن ٢/ ١٥١، ٢٣٩ .
(٩٦) القرآن ١٠/ ٤٧ .
(٩٧) القرآن ١٦/ ٣٦ .

والمكّيون، في مدينتهم، كان لهم اختلاط واسع بشعوب الأرض المعروفة لديهم آنذاك. ومدينتهم لم تكن محرّمة، في ذلك التاريخ، على النصارى أو اليهود أو المجوس أو عبدة الأوثان، كما هي حالها اليوم. ولم يكن أهل مكّة ليخافوا على مدينتهم اذا ما مارس كل صاحب دين دينه. وهذا الانفتاح قرّر، في الواقع، نوعيّة المجتمع فيها، وبالتالي، نوعيّة الرسالة النبويّة.

فقريش لم تكن وحدها متحكّمة بمكّة. وليست وحدها تستأثر بالحياة فيها. بل هناك قبائل وشعوب مختلفة الأعراق والأنساب انصهرت بالمجتمع المكّي. كما كان فيها أغراب وطارئون أمّوها للاستفادة من التجارة والأرباح، ولأجل وفرة الأمن فيها، أو للتعبّد في كعبتها.. الاّ أنّ المؤرّخين المسلمين اقتصروا، منذ عهد العباسيين، الكلام على قريش، وذلك اعلاء لشأن النبيّ. وهكذا، أنقصوا من حقّ بقيّة السكّان، دون مبرّر غير مبرّر الاحتفاظ بصحّة انتماء النبيّ القوميّ الى ما سمّوه بـ"الأمّة العربيّة".

ولنا أن نلاحظ أيضا انّ الهجرة الى مكّة لم تكن متدفّقة اليها من جهة الجنوب فحسب، كما يحلو للمسلمين اثباته، بل كانت متتالية اليها من كلّ حدب وصوب، من مختلف البيئات والمجتمعات. ومن أجل كل سبب من تلك الأسباب التي رأينا. وقد توقّفنا على هويّة بعض السكّان، لما لهم في مكّة وفي الدعوة القرآنيّة من أثر ونفوذ. فكان للأحباش، مثلا، في مكّة، أثر في الحياة العامّة. وكان للغساسنة أثر في تجارة مكّة وسياستها. وكان للمناذرة أثر في اللغة والعلم. وكان للنصارى أثر في العقيدة والفرائض الدينيّة... وغير هؤلاء الكثير من الرومانيين واليونانيين والمصريين والسودانيين والأقباط. كلّهم طرأوا أبواب مكّة. وكلّهم وجدوا فيها معاشا.

الفصل الثالث

مكة مدينة التجارة

أولاً : موقع مكة التجاري
ثانياً : دور مكة التجاري
ثالثاً : تجارة مكة في القرآن
رابعاً : البضائع والأرباح
خامساً: قريش التجار
سادساً: سر نجاح قريش

خاتمة الفصل الثالث

أولاً : موقع مكّة التجاري

اذا كانت مكّة قد اشتهرت في التاريخ بكعبتها ، فانّها لم تقلّ شهرة من حيث دورها التجاري الذي يعود الى موقعها الجغرافي الممتاز. ففقر أرض مكّة لم يُعدِم أهلَها حيلةً. وجدب صحرائها يعادله نشاط أهلِها . وحال طبيعتها القحل لم يقف حائلا دون استراتيجيّة موقعها في جغرافيا الجزيرة. لقد عوّض الله على مكّة بموقعها هذا حتى غدت تستفيد منه الى أقصى حدود الاستفادة .

تقع مكّة في منتصف الطريق التجاري الممتدّ بين اليَمن ــ بلادِ اليُمْنِ والخيرات ــ وبلادِ الشام ــ سوقِ الاستهلاكِ الكبير. في هذه العقدة تتجمّع القوافل الواردة من " العربيّة السعيدة" باتّجاه بلاد الشام ، والقوافل العائدة من بلاد الشام باتّجاه العربيّة السعيدة . وفيها تستريح الرجال من حرّ البادية وعناء السفر. ومنها تتزوّد رزقها وبضاعتها وما تحتاج اليه . وبفضل هذا الموقع سكن الناسُ مكّة ، وهم من جميع الأنحاء ومختلف الألوان والمشارب. وكان لهم فيها ربح وأموال وترف .

" في منتصف الطريق المعبّد للقوافل ، بين اليمن والشام ، تقوم مكّة في واد منبسط من أودية جبال السراة ، تحيط بها الجبال الجرداء من كلّ جانب ، وتكاد تحجبه الا من ثلاثة منافذ ، يصله أحدُها بطريق اليمن ، ويصله الثاني بطريق قريب من البحر الأحمر عند مرفأ جُدّة ، ويصله الثالث بالطريق المؤدّي الى فلسطين "[1] . بهذه الطرق اتّصلت مكّة بالجهات الأربع ، وكانت

---

(١) الشريف ، مكّة والمدينة .. ٩٥ . انظر معجم البلدان ٥/ ١٨٧ .

على صلة باليمن وممالك حمير وسبأ وحضرموت ، ومنها مع بلاد الهند ، ثم مع بلاد العراق وسوريا وفينيقيا وفلسطين ، ومع غزّة ومصر والسودان والحبشة ... عبر الجبال والبوادي والسهول والسهوب .

وبسبب موقعها التجاري الهامّ سمّاها القرآن "أمّ القرى"(٢) ، أي عاصمة الجزيرة آنذاك ، والمركز الرئيسي لمناطق تهامة ونَجد والحجاز ، والملتقى الطبيعي للقوافل الراحلة والمحمّلة بالسلع التجارية ، والتجمّع الكبير للقبائل والعشائر من مختلف الأقاليم ، والعقدة التي يمرّ بها الغادون والعائدون . "وفي القرن السادس الميلادي كانت أهمّ المراكز التجاريّة في شبه الجزيرة العربيّة"(٣) . لكأنّها مدينة "كوسموبوليتيّة" تضمّ فيها من كل لون ونوع .

وممّا زاد في أهمّية موقعها أنّها "بَعُدَتْ عن منطقة الصراع الدولي لبُعْد موقعها . فنجت ممّا أصاب غيرَها من أطراف الجزيرة العربيّة من الوقوع في مجال العراك القائم بين الشرق والغرب (الفرس والروم) في ذلك الوقت ، ولبُعدِ موقعها وصعوبةِ وصول الجيوش اليها احتفظتْ باستقلالها .. بعدما أصاب الممالكَ القائمة في أطراف الجزيرة من انهيار ، ووقوعها جميعا تحت سلطان الدول الكبرى . وقد أتاح لها هذا كما أتاح لها موقفُها الحيادي أن تمثّل دورَ الوسيط المحايد في نقل التجارة التي كانت ضرورية لكل من الطرفين المتنازعين"(٤) .

ومن المزايا التي أكسبت مكّة ثروة ومالا أنّ "مَن دخلها كان آمنا ، ومن أحدث في غيرها من البلدان حَدَثًا ثم لجأ اليها فهو آمنٌ اذا دخلها . فاذا خرج منها أُقيمتْ عليه الحدود .. وكان أهلُها آمنين يَغزُون الناسَ ولا

---

(٢) القرآن ٦/ ٩٢ ، ٤٢/ ٧ .
(٣) حوزيين ، العربية والشرق الأقصى (بالانكليزية) ، القاهرة ١٩٤٢ ، ص ١٤٢ .
(٤) الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٢٠٠ .

يغزَون، ويَسبُون ولا يُسبَون .. ولم تُسَبْ قرشيّةٌ قط فتوطًأ قهرًا، ولا يُجال عليها السهام»[٥]. وقد أشار القرآن الى أمن مكّة وأبلغ. كما أشار الى متاعب غيرها من القرى ومخاوف أهليها فيها :

لقد استحثّ النبيّ أهل قريش الى عبادة الله، ربّ الكعبة «الذي أطعمهم من جوع وآمّنهم من خوف»[٦]. وقال أيضا في طلب ابراهيم : « واذ قال ابراهيم : ربّ اجعل هذا بلدا آمنا »[٧]. وجاء في القرآن أيضا : « من دخله كان آمنا »[٨]. وأيضا : «أو لم نمكّن لهم حَرَمًا آمِنا»[٩] ؟ و «أو لم يروا أنّا جعلنا حرما آمنا»[١٠] ؟ وقوله : « لندخلنّ المسجد الحرام ان شاء الله آمنين»[١١]. وأخيرا : «واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا»[١٢]. فالأمن في مكّة اذن كان مستتبا، ممّا جعلها تلعب دورا تجاريّا هامّا ومميّزا .

ثمّ أنّ وجود البيت الحرام في مكّة أكسبها دورا اقتصاديا بارزا . هذا البيت الذي أمّه أهل الجزيرة من مختلف الأنحاء، كان له عندهم قدسيّةٌ واحترام لم يحرزهما أيّ بيت آخر يُعبَد فيه اسمُ الله . وقد ضاهى بما فُرِضَ عليه من اجلالٍ واكرام هيكلَ اليهودِ في أورشليم . عنده كان يجتمع عبدة الأديان جميعُهم، من يهودٍ ونصارى ومجوسٍ وصابئة . وقد انعقد إجماعُهم على تعظيمه والحجِّ اليه . وأحاطوه بِسُورِ أمْنٍ حتى أمسى أكثرَ أمكنةِ الجزيرة أستقرارا وسلاما . فيما كان كل مكان آخر غيرُه يَتَعرّضُ للنهْب والسلْب والغزو[١٣] . وكان يُمنَع

(٥) ياقوت الحموى، معجم البلدان ٥/ ١٨٢ـ١٨٣، ١٨٥ .
(٦) القرآن ١٠٦/ ٢ـ٤ .
(٧) ٢/ ١٢٦، ١٤/ ٣٥ .
(٨) ٣/ ٩٧ .
(٩) ٢٨/ ٥٧ .
(١٠) ٢٩/ ٦٧ .
(١١) ٤٨/ ٢٧ .
(١٢) ٢/ ١٢٥ .
(١٣) انظر سورتي ١٠٦/ ٤، ٤٨/ ٢٧ .

فيه اتيان أىّ محرّم، من قتال واقتتال[(١٤)] ، أو اعتداء[(١٥)] ، أو كفر[(١٦)]، أو مباشرة النساء[(١٧)] .

ولأهمّيّة التجارة في مكّة، كمورد رزق وحيد لها، فرضَ التجارُ فيها ، لأجل سلامة البائعين والشارين، "أشهرًا حُرُمًا"، لا يكون فيها غزو أو نهب أو قتال . وهي أشهر : ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرّم، ورجب. فيها يأمن الناس على أنفسهم وبضاعتهم وقوافلهم، فتغدو الجزيرة ، طوال هذه الأشهر، حركة هائلة من البيع والشراء ... الاّ أنّ النبيّ ، بتشريعه للجهاد في سبيل الله ضدّ الكفّار والمشركين، لم يتورّع من كسر قدسية هذه الأشهر والذهاب بحرمتها ، فحلّل، لأجل الله، القتال في الأشهر الحرم وفي المسجد الحرام بالذات، ذلك لأنّ الكفر والشرك، برأيه، أعظمُ فتنةً من القتال[(١٨)] .

ويزيدُ في أهمّيّة مكّة أهمّيةُ الأسواق فيها وفي ضواحيها . وهي أسواق تجاريّة وأدبية على السواء . وقد ذكر لنا التاريخ منها : عكاظ ومجنّة وذا المجاز، وغيرها .. وكانت عكاظ أكثرها شهرة وغنى وتنوّعا في السلع. وكان يؤمّه الشعراء والخطباء ورجال الدين، كما يؤمّه أصحاب التجارة والثروة والمال . وكان الانتفاع يحصل للجميع. الاّ أنّ الاسلام، بمجيئه، قضى على التجارة فيها وهدم ذلك"[(١٩)] . وورد في الحديث "عن ابن عبّاس قال: كانت عكاظ ومجنّة وذو المجاز أسواقا في الجاهلية. فلما كان الاسلام تأثّموا من التجارة فيها، فأنزل الله : ليس عليكم جناح في موسم الحج"[(٢٠)] ، أى ليس عليكم أن تجنحوا الى التجارة وأنتم تقصدون حجّ البيت.

---

(١٤) القرآن ٢/ ١٩١ .

(١٥) انظر : ٥/ ٢ .

(١٦) انظر : ٢/ ٢١٧، ٢٢/ ٢٥، ٤٨/ ٢٥، ٩/ ١٧ .

(١٧) انظر : ٢/ ١٨٧ .

(١٨) القرآن ٢/ ٢١٧ .

(١٩) تاج العروس، ٥/ ٢٥٤ : عكظ.

(٢٠) ارشاد السارى ٤/ ٣٧ ، تفسير الطبرى ٢/ ١٦٤ ، سورة البقرة ٢/ ١٩٨ .

ثانياً : دور مكّة التجاري

قبل القرن السادس للميلاد، كانت التجارة في الجزيرة العربيّة في أيدى اليمنيين، فينيقيي العرب آنذاك. أولئك عبروا الصحراء، كما هؤلاء عبروا البحار. فتاجروا بمختلف أنواع السلع، مع مختلف البلدان المجاورة. فكسبوا من ذلك مالا وعلما وانفتاحا وتوسّعا ومجتمعا متحضّرا. وأنشأوا مدنيّة تلو مدنيّة يدين لها العالم حتى اليوم. وخلّفوا، فوق أرضهم، ممالك بلغت في الحضارة شأنا كبيرا. فمن دول مثل حمير وسبأ وحضرموت وقتبان وغيرها.. الى انتشار لغاتهم وحضاراتهم، الى توسّعهم في حقول الصناعة والزراعة والتجارة.. نرى عالما يختلف في ذهنيّته وهويّته اختلافا جوهريّا عن جيرانه.

هؤلاء اليمنيّون، في مختلف عصورهم، عبروا الصحراء صوب بلاد الشام، مرورا بمحطّات تجاريّة أنشأوها على طرق قوافلهم. فكان منها محطّة في عسير، وثانية في نجران، وثالثة في مكّة، ورابعة في يثرب، وخامسة في البتراء، الى غير ذلك. وكانت مكّة أشهرها، لأيّ سبب من الأسباب التي رأينا. وكثيرا ما توقّف اليمنيّون فيها، لاستعادة قواهم، والتقاط أنفاسهم، بعد عناء سَيْرٍ مُضْنٍ. وكان توقّفهم يطول ليدّخروا نشاطا يدوم. وكان المكّيون يقظين ليسرقوا منهم أسرار الربح وكسب المال. وقد أعدّوا نفوسهم ومدينتهم وابلهم ومجتمعهم للقيام بمهمّة التجارة هذه. وساعدهم على ذلك، في بداية القرن السادس، سوءُ حال اليمن التي "تدهورت نتيجةً للصراع الداخلي بسبب الخلاف الديني"(٢١) بين المسيحية واليهوديّة(٢٢) بتشجيع من الفرس والروم.

---

(٢١) ألشريف، مكة والمدينة، ص ٢٠٢.
(٢٢) انظر في التاريخ والقرآن قصة شهداء نجران.

لم يفتأ المكّيون اذن حتى اكتسبوا من اليمنيين أسرار الربح وجمع المال. ولم يتأخروا ليتعلّموا مهنة التجارة والسفر. فسافروا بأنفسهم، وتاجروا، وغامروا، ودخلت جرثومة عبادة المال في قلوبهم، وكانوا أهلا لها. فاختبروا عبور البادية، وحمّلوا عِيْرُهُم من بضائع اليمن، ووجّهوها صوب بلاد الشام، فباعوا، وربحوا، ورجعوا ميسورين مسرورين. ثمّ مرّة ثانية، وثالثة، ورابعة، فتملّكهم المال حتى العبادة. وما ان كانت الدعوة المحمّدية حتى أصبح المكّيون يستأثرون بالتجارة والأرباح. فعظمت أموالهم، وتعدّدت أسفارهم بكل اتّجاه. وأصبح معظم سكّان مكّة تجارا محتكِرين، ومرابين نهِمين، وأثرياء متخَمين، ومغامرين لا يتعبون. وسيطروا، من ثمّ، على طرق التجارة، فأزاحوا بقايا اليمنيين من وجههم، وأضحت مسالك الصحراء تحت سيطرتهم، وبكل اتّجاه.

الاّ أنّ الضربة كانت على اليمنيين قاسية. بل هي ضربتان: ضربة من الحبشة، وضربة من مكّة. الأولى كانت بسبب احتلال حبشي لها، وتغيير صورة الحكم فيها، على يد "أَبْرَهَة" قائدِ الجيوش الحبشيّة. والثانية كانت بسبب استغلال المكّيين لهذا الاحتلال واستئثارهم بقوافل التجارة ... لكن، ما ان استقرّ أمر "أبرهة" قليلا، واستولى على اليمن، حتى قرّر الزحف على مكّة ليمنع تجّارها من استغلال الوضع. وان اقتضى الأمر سيهدّم الكعبة على رؤوس أربابها. وبالفعل كانت هذه نيّته. فقصد الكعبة. وكثيرا ما يفسّر المسلمون حملة أبرهة هذه بدوافع دينية وحسب. الاّ أنّ الحقيقة كانت لأجل القضاء على تجارة مكّة ومكاسبها، التي كادت، لفرط أرباحها، تقضي على اقتصاد اليمن والحبشة معا.

وسبب آخر في ضعف تجارة اليمن وقد يعود الى "وقوعها في منطقة التصارع الدولي بين الأمبراطوريّة الفارسية والأمبراطوريّة البيزنطيّة. وقد استخدمتِ الأخيرةُ الحبشةَ حليفتَها لاقرارِ النفوذ الرومي على جنوب بلاد

العرب عن طريق غزو اليمن . وتكرّرت غزوات الحبشة على اليمن حتى سقطت في يدها في النصف الأوّل من القرن السادس، وقد استمرّ حكم الحبشة لليمن حتى أخرجهم منها الفرس في حوالي سنة ٦٧٥ م . ولم تتحرّر اليمن من الاحتلال الأجنبي (الحبشي والرومي والفارسي) الاّ بعد ظهور الاسلام وانضمامها الى الدولة العربيّة الاسلاميّة"(٢٣) . وبضعف اليمن انتقلت التجارة منها الى حيث تجد لها شعبا جائعا ومركزا ناشطا ملائما، فكانت مكّة .

وكذلك أيضا أصاب ممالك الشمال، من أنباط وتدمريين وغساسنة ومناذرة، ما أصاب اليمن . وكانت مكّة هي المستفيدة في كلّ مرّة . فنتيجة لتدهور العلاقات بين الفرس والروم، تدهورت العلاقات أيضا بين حلفائهم : فاشترك المناذرة، ملوكُ الحِيرة، في هذا الصراع الى جانب الفرس، واشترك الغساسنةُ الى جانب الروم . فأضعفوا بعضَهم بعضا، وفقدوا سيطرتهم على طرق التجارة، وخسروا منتوجات بلادهم الغنيّة، وأصبح اهتمامُهم الكبير القضاءُ على بعضهم بعضا . وقد أجاد الواقدي بوصفهم عندما قال عنهم : "ان هؤلاء عرب وأنتم عرب . وهلاك كل شيء من جنسه"(٢٤) . وكانت مكّة، بسبب هذا العداء، أحسن المستفيدين وأكبر المستغلّين .

وأيضا، بعدما قضى الرومان على الأنباط، ودمّروا تدمر، أصبح أهل مكة سادة تلك الطرق . وقد أعانهم على ذلك خبرتُهم بمنعرجات الصحراء الصعبة، وتحمّلُهم القيظ وجفاف المناخ، وتربيتُهم الابل والاعتماد عليها، وتنظيمُ القوافل وتزويدُها بما تحتاج اليه من زاد وماء، وعلمُهم بمواقع الواحات حيث يتوافر العشب والخصب، وتعيينُهم لمنازل اللصوص والصعاليك وقطّاع الطرق، ومعرفتَهم بالحصون حيث يلجأون لحراسة أموالهم وبضائعهم .. كل ذلك ساهم في انتقال

(٢٣) الشريف، مكّة والمدينة، ص ٢٠٣ .
(٢٤) الواقدي، فتح الشام، ٢/ ١٨٥ . وغيرها في "أعربي هو" ص ١٤٣ .

التجارة الى مكّة وسكّانها الذين أصبحوا أسياد البادية دون منازع.

ولكن، لماذا مكّة؟ وليس يثرب، أو الطائف، أو نجران، أو غيرها؟ لماذا أصبحت مكّة هي المحطّة التجارية الكبرى على حساب سائر المحطّات الشهيرة الممتدّة على الطريق الرومانيّة التي تربط اليمن ببلاد الشام عبر البادية؟ لماذا لم تكن يثرب "وهي أرض يتوفّر فيها الماء والنبات؟"(٢٥) ولماذا لم تكن الطائف وهي تقع على مسيرة يوم من مكّة، وتنفرد بمناخها وخصبها اللذين جعلا منها واحة هذا الاقليم القحل؟(٢٦) ولماذا لم تكن نجران المدينة المسيحية العامرة، ذات كعبة شهيرة ككعبة مكّة؟ ولماذا أخيرا لم تكن البتراء المدينة التاريخيّة المحصّنة بالصخور والقلاع، والغنيّة بخزّانات المياه وأهراءات الحنطة؟

من الجائز أن تكون هذه المدن مراكز تجاريّة هامّة، وأن تنافس مكّة، وتستجلب الأنظار اليها.. الاّ أنّ نجران والبتراء أحرقتا ودمّرتا. والطائف تنحاز عن الطريق العام لقوافل الابل. ويثرب يستأثر بها اليهود بما لهم من مكر ودهاء وأثرة.. ولم يبق الاّ مكّة تتمتّع بصفات تنفرد بها، وتحظى بموقع استراتيجي هام لأعمال التجارة. فهي "على مفترق طرق العطور والتوابل والقوافل التجارية بين الخليج وفارس والحبشة وبابل واليمن وسورية"(٢٧). ونشاط أهلها استحثّهم للتعويض عمّا نكبتهم به الطبيعة من فقر وجفاف. وبيت الكعبة شدّ العرب كل العرب اليها، وتحصّنها بين الجبال أبعد عنها الغزاة. وجدب أرضها وقرّ عليها الاقتتال في سبيل المراعي.. كل هذه، وغيرها، استوجب أن تكون مكّة هي المختارة لأن تلعب دورها التجاري الكبير في الجزيرة.

---

(٢٥) معجم البلدان، ٥/ ٥٥.
(٢٦) المرجع نفسه، ٤/ ٩٨.
(٢٧) لامنس، مكة الجمهورية التجارية، (بالفرنسية)، ص ٥١.

ثالثاً : تجارة مكّة في القرآن

لو لم يشهد القرآن على عظم تجارة مكّة لبقيت معرفتنا بما جاءت به كتب السير والأخبار مضطربة. فهذه الكتب لم تعمل الاّ في تفسير ما جاء به القرآن. وما جاء به القرآن هو لنا خير دليل. فهو يشير، بصراحة ووضوح وابلاغ، الى انهماك أهل مكّة بجمع المال، والى أسفارهم الرابحة في الصيف والشتاء، في البرّ والبحر[٢٨]. "واستعمل لفظة تجارة وتجارتهم ومصطلحات أخرى عديدة ذات صلة بالاتّجار والتجارة والمعيشة والكسب. كما أنّ فيه اشارات كثيرة الى تجارة قريش، والى أثر التجارة في حياة الناس في ذلك الوقت.

"وفيه تحريم للربا وتوبيخ وتقريع.. وفيه أمور أخرى توحي الينا بما كان للتجارة من أثر كبير في حياة أولئك الجاهليين، بل نجد القرآن الكريم يحاججهم ويناقشهم ويخاطبهم بلغتهم التي يفهمونها، لغة الربح والخسارة والكسب والثواب والعقاب والتأجيل والتعجيل وما أشبه ذلك من كلام له أبلغ الوقع والادراك في نفس التاجر الذى يعي الناحية المادّية من ربح وخسارة وكسب وتوفير، أكثر من وعيه وادراكه للأمور الروحية التي لا يفهمها كثيرا، لانّها ليست من صميم حياته ومحيطه العملي"[٢٩].

لقد مدح القرآن رجالا "لا تلهيهم تجارة ولا بيع"[٣٠]. وحذّر أولئك "الذين اتّخذوا دينهم لهوا ولعبا، وغرّتهم الحياة الدنيا"[٣١]. وندّد بالذين

(٢٨) Cf. Torrey, The Commercial-theological terms in the Koran..
(٢٩) د. جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ٧/ ٢٢٨.
(٣٠) القرآن ٢٤/ ٣٧.
(٣١) ٦/ ٧٠، ٧/ ٥١.

"اذا رأوا تجارة أو لَهْوًا انفضّوا اليها وتركوك قائما . قل ما عند الله خيرٌ من اللهو من التجارة . والله خير الرازقين"(٣٢) . وأنّب الذين يهتمّون بالبيع والشراء على حساب اهتمامهم بالله : "ذَرُوا البيعَ . ذلك خير لكم . ان كنتم تعلمون"(٣٣) . وعلّم بأن "لا تُلْهِكم أموالكم عن ذكر الله"(٣٤) . ووضع لهم شرعة التعامل الصحيح فلا تكون فيما بينهم تجارةٌ الاّ عن تراضٍ، ولا يأكل الواحد منهم مال الآخر(٣٥) . ودعاهم أخيرا الى تجارة مع الله لا تكسد ولا تبور، وتنجّيهم من عذابات جهنّم، فقال : "يا أيّها الذين آمنوا ! هل أدلّكم على تجارة تنجّيكم من عذاب أليم؟ تؤمنون بالله ورسوله، وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم . ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون"(٣٦) .

ثم أوضح القرآن شروط التجارة والمعاملة ليؤمّن التّجار على أموالهم وأمتعتهم من اللصوص والسارقين . فدعاهم الى احترام "الأشهر الحرم"، اذ هي فرصة مقدسة يغتنمها العرب ليشدّوا الرحال الى مكّة، ويقيموا فيها "الأسواق"، ويتبادلوا السلع، ويبيعوا ويشتروا ويتعارفوا ويتسامروا . وأوصاهم بأن يتزوّدوا ويستفيدوا من هدنة الأشهر الحرم، ويسدّوا عوزهم، ويشهدوا لهم منافع(٣٧) .. الاّ أنّ النبي، بعد انتشار الاسلام وقوّته، عاد فنقض ما أوصى به(٣٨) .

---

(٣٢) ٦٢/ ١١ .
(٣٣) ٦٢/ ٩ .
(٣٤) ٦٣/ ٩ .
(٣٥) ٤/ ٢٩ .
(٣٦) ٦١/ ١٠، ٩/ ٢٤، ٣٥/ ٢٩ .
(٣٧) ٢٢/ ٢٧، ٢/ ١٩٧ـ١٩٨ .
(٣٨) ٢/ ٢١٧ .

لكنّ القرآن كان حذرا جدّا من تفاقم الأعمال التجاريّة وتزايد الأموال وأصناف السلع في مكّة. وخشي أن تقضي كثرةُ التجارة والأرباح على الحياة الروحيّة وذكر الله واقامة الصلاة. فكم دعا الى عدم اعتبار الربا كالبيع حيث قال: "أحلّ الله البيع وحرّم الربا"[٣٩] . وكم دعا أصحابه الى ترك البيع والشراء لأجل القيام بالصلاة: "اذا نودي للصلاة.. فاسعوا الى ذكر الله. وذروا البيع"[٤٠] . وكم ذكّرهم باليوم الأخير الذى لا يفيد فيه لا بيع ولا تجارة[٤١] . وفي رأيه، انّ خير تجارة هي التجارة مع الله، بالصوم والصلاة والصدقات، فهي "لن تبور"[٤٢] ولا يُخشى كسادَها[٤٣] ، وتنجّي من عذاب النار[٤٤] .

وتشديد القرآن على نوعيّة التجارة يشير الى حقيقة راهنة، وهي "أنّ محمّدا احتفظ، كل حياته، بطابع تربيته القرشية. هذا الطابع كان تجاريا بصميمه، وهو يفضح نفسه في كل آية من آيات القرآن"[٤٥] . وحتى بعد انتقاله الى المدينة حيث "أصبح الرسول مشترعا، بقي عالَمُه الخاص، في عمقِه، قرشيا وتجاريا"[٤٦] . فالبحر، مثلا، لم يلهمْه سوى "ما ينفع الناس"[٤٧] ، أي "الصيد حلالاً والطعام متاعا"[٤٨] . والله نفسه "سخّر البحر لتأكلوا منه"[٤٩] .

---

(٣٩) ٢/ ٢٧٥ .
(٤٠) ٦٢/ ٩ .
(٤١) ٢/ ٢٥٤، ١٤/ ٣١ .
(٤٢) ٣٥/ ٢٩ .
(٤٣) ٩/ ٢٤ .
(٤٤) ٦١/ ١٠ .
(٤٥) لامنس، مكة عشية الهجرة، بالفرنسية، ص ٢١٥ .
(٤٦) المرجع نفسه. ويستعمل لامنس لـ"عالمه الخاص" كلمة Weltanschauung
(٤٧) ٢/ ١٦٤ .
(٤٨) ٥/ ٩٦ .
(٤٩) ١٦/ ١٤. أنظر: ١٤/ ٣٢، ١٧/ ٦٦، ٣٣/ ٦٥، ٤٥/ ١٢ .

وحتى " لغة القرآن اللاهوتيّة لم تخرج قطّ في أسلوبها وألفاظها عن أسلوب الواقع التجارى وألفاظه العمليّة" (٥٠) . وحتى كلام الله، يوم القيامة العامّة، لا يخلو من ألفاظ التجّار وتعابيرهم . فهو يقول مثلا "انّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنّة" (٥١) . وتجدر الاشارة هنا الى أنّ لفظتي "البيع والشراء" يستعملهما القرآن في كل مواضيعه، وفي أىّ شكل كان (٥٢) ، وكذلك ألفاظ مثل : الحساب والاحصاء والمثقال والوزن والميزان والكيل والخازن والقسط والأجر والأموال والمتفرّق والأمانات والودائع والصكّ والرقاع والسجل والقنطار والدرهم والدينار والصرف والتصريف والتفصيل واللهو واللعب... (٥٣) وهي ألفاظ من صميم الواقع التجارى . لكأنّ القرآن توجّهُه التجارة، وتسيّره ألفاظُها . وهو يعالج مواضيعَه بالنسبة اليها .

---

(٥٠) لامنس، المرجع السابق، ص ٢١٦ .
(٥١) القرآن ٩/ ١١١ .
(٥٢) أنظر هاتين اللفظتين في معجم القرآن المفهرس .
(٥٣) أنظر هذه الألفاظ في معجم القرآن المفهرس .

رابعاً : البضائع والأرباح

كانت البضائع المتداولة في مكّة كثيرة ومتنوّعة، ومن مصادر مختلفة. فكانت القوافل تحمل من الجنوب حاصلات الهند والحبشة والسودان ومصر واليمن وجزيرة سقطرة، ومن الشمال حاصلات العراق والشام وفينيقيا .. فمن الهند كانت تحمل "الذهب والقصدير والحجارة الكريمة والعاج وخشب الصندل والتوابل والأفاويه، كالبهار والفلفل ونحوها، والمنسوجات الحريرية والقطنية والكتّانيّة، والأرجوان والميعة والزعفران، والآنية من الفضة والصفر والحديد.

"كما تحمل من حاصلات أفريقيا الشرقية العطور والأطياب وخشب الابنوس وريش النعام والجلود والذهب والعاج والرقيق(٥٤). كما تحمل من حاصلات اليمن البخور واللبان والمرّ واللادن والعطور والحجارة الكريمة كاليشب والعقيق والجلود ذات الرائحة الطيّبة(٥٥). ومن حاصلات جزيرة سقطرة العود والند. ومن البحرين اللؤلؤ.

"وتحمل من الشمال القمح والدقيق والزيت والخمر ومصنوعات فينيقيا(٥٦). هذا بالاضافة الى ما تحمله من حاصلات بلاد العرب نفسها من الزيت والبلح والقرظ والصوف والوبر والشعر والجلود والسمن"(٥٧).

وقد أشار القرآن الى كثرة السلع وتنوّعها. ويذكر جميع هذه الأصناف

(٥٤) الطبرى ٢/ ١٨١، جورج فضلوه العرب والملاحة، ٧٦.
(٥٥) تاريخ الطبرى ٢/ ٧٥، الواقدى ١/ ٦٥، الاغاني للاصفهاني ١/ ٦٤-٦٥، جرجي زيدان، العرب قبل الاسلام ١٥١.
(٥٦) أنظر: ابن هشام ١/ ١٤٧، أنساب الاشراف ١/ ٥٨، زيدان ١٧٨.
(٥٧) الطبرى ٢/ ١٢٥. نقلا عن الشريف، مكة والمدينة، ٢٠٥-٢٠٦.

بأسمائها . ويتكلّم على استخدام أهل مكّة لها . وينوّه بأن مكّة كانت لها محطة استراحة لتنتقل بعدها الى حيث يجدى استهلاكها أرباحا وافرة.

وزاد في أرباح مكّة، علاوة على وفرة السلع المتبادلة، عمليّات الصيرفة والشحن والتفريغ والتأمين والضرائب.. وقد اكتسبت قريش، بما كان لها من حرمة وزعامة، مكانة عظيمة في التجارة والأرباح . فقد أمّنتِ التجّارَ والداخلين على مكّة، ووفّرت لهم الطمأنينة، و"السقاية" و"الرفادة"، وجعلت تنقلاتهم تحصل بأمان وسلام . وكان للأمن، طبعا، ثمنٌ باهظ، يدفعه العابرون، وينضمّ الى مكاسب قريش وأرباحها .

وبكثرة البضائع كثرت القوافل التجارية صيفا وشتاء شمالا وجنوبا، في البرّ كما في البحر. وكان يبلغ عدد القافلة أحيانا ألفين وخمسمائة بعير. وتقدّر حمولتها بأكثر من خمسين ألف دينار(٥٨) . ولم يبق من قريش رجل أو امرأة يستطيع التجارة والسفر وجني الأرباح الاّ وكان ينضمّ الى القوافل حتى "كانت القافلة تحمل أموالا لأهل مكّة جميعا"(٥٩) . وقد ألمح القرآن الى مساهمة النساء في قوله : "للرجال نصيب ممّا اكتسبوا، وللنساء نصيب ممّا اكتسبن"(٦٠).

وفي كتب الأخبار أخبارٌ كثيرة عن مقدار الربح الذي كان يصيبه التجّار. وقد عبّر الواقدي عن ذلك بقوله : "وكانوا يربحون في تجارتهم للدينار دينارا"(٦١). وقال ابن سعد : "ربحوا للدرهم درهما"(٦٢) . وقال الطبرى: "أصابوا للدرهم درهمين"(٦٣) . وكل عمل، مهما كان شأنه، كان رابحا، فعبدالله بن جدعان يؤكّد لنا بقوله : "قد رأيتَني ولو رفعتُ حجرا لرجوتُ أن أُصيبَ ذهَبا أو فضّة"(٦٤) . وقيل عن أحد الصحابة انه "لو اشترى ترابا لربح فيه"(٦٥) .

---

(٥٨) اليعقوبي ١/ ٢٠٢ .
(٥٩) الواقدى، المغازى ١٨ .
(٦٠) سورة النساء ٤/ ٣٢ .
(٦١) الواقدى، المغازى ١٩٨ .
(٦٢) طبقات ١/ ٢٦١، ٤٢–٤٣ .
(٦٣) تاريخ الطبرى ١/ ١٤٦٠ .
(٦٤) ابن حنبل ٣/ ٢٧١، ٧ .
(٦٥) الترمذى ١/ ١٤٥ .

خامساً: قريش التجار

ألثروة في بلد تجاري رهن بذكاء أهله . وان لم يدعم الثروةَ ذكاءٌ تزول لا محالة . ويستتبع الثروةَ والذكاءَ دهاءٌ وخبرة . والكلّ يفترضُ الكثيرَ من المعرفة: معرفةٍ بطبائع الناس، وأحوالِ المجتمع ، ومنعرجاتِ الطرق ، وعلمٍ بأكثر من لغة، وميلٍ الى السلم والمراوغة، وادراكٍ لأسواق البضائع ، ومهارةٍ في لعبة العرض والطلب.. ولم ينقصْ قريشًا من هذه شيء ، حتى غدتْ في التاريخ قبيلةَ التجارة بدون منازع .

ولم تبخل علينا كتبُ الأخبار بما عرفته عن قريش. فسمّتها "قريش التّجار" في قول ورد على لسان كاهنة من اليمن جاء فيه : "لله درّ الديار لقريش التّجار"(٦٦) ، وفي قول سائر "فلان يتقرّش المال، يجمعه"(٦٧) . وفي تقاليد قريش ، "من لم يكن منهم تاجرا فليس عندهم بشيء"(٦٨) . وكان أهل قريش يعرفون بأن لا بقاء لهم ان لم يكونوا تجّارا . فجاء بذلك قولهم : "ما لنا بها (بمكة) بقاء . وانّما نزلناها على التجارة"(٦٩) .

واسم "قريش" مِن الذي "يَقرُشُ عن حاجةِ الناس فيسدّها بالمال . والتقرّش هو التنتيش، أى يفتّشون عن الحاجة فيسدّونها بما يبلغهم" (٧٠) . وسمّاهم قصيّ ، جَدّهم الأعلى ، بهذا الاسم ، لانّهم يفتّشون الحاجّ فيَسِدّون

---

(٦٦) رسائل الجاحظ ، الرحمانية ١٩٥٨، ص ١٥٦ .
(٦٧) لسان العرب ٦/ ٣٣٤-٣٣٦، مادة : قرش. المكية ١/ ١٤ .
(٦٨) السيرة المكية ١/ ١١٨ بهامش الحلبية .
(٦٩) الواقدى، المغازى، ١٩٦ .
(٧٠) تاريخ الطبرى ٢/ ٢٦٣ .

خِلّتهم . فمَن كان محتاجا أغنوه، ومن كان عاريا كسوه، ومن كان معدوما كسوه، ومن كان طريدا آووه"[٧١] . وقيل أيضا : القرش: الجمع والكسب. عن ابن سيده : قرش قرشا جمع وضمّ من هنا وهنا . وبه سميت قريش. وتقرّش القوم : تجمّعوا . وقيل سمّيت بذلك لانهم كانوا أهل تجارة، ولم يكونوا أصحاب ضرع وزرع، من قولهم : فلان يتقرّش المال أي يجمعه[٧٢] . وصاروا من ثمّ أصحاب مال وغنى، فملكوا الأملاك كما ملكوا الابل[٧٣] .وأيضا قيل : "سمّيت قريش قريشا لانّها كانت تجّارا تكتسب وتتّجر"[٧٤] . "والتقرّش: التجارة والاكتساب"[٧٥] . ووصفوا بأنّهم "كانوا قوما تجّارا"[٧٦] .

وصارت قريش، بعد قصيّ، بأجمعهم "تجّارا خلطاء"[٧٧] . وقد أخذتْ عنه مآثره التجارية، حتى أصبحت مكّة، في أيّام حكمهم، ملتقى القوافل من جميع أنحاء العالم المعروف لديهم . وسافر أبناء قصيّ وأحفاده، وتاجروا مع البلدان المجاورة، وأخذوا منها العهود . فأخذ هاشم بن عبد مناف بن قصيّ "عهدا" من ملوك الروم والغساسنة. وأخذ شمس بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصيّ "عهدا" من نجاشي الحبشة. وأخذ عبد المطلب بن هاشم "عهدا" من ملوك حمير واليمن . وأخذ نوفل بن عبد مناف بن قصيّ "عهدا" من أكاسرة الفرس... وبذلك كان لفروع قريش جميعها سوق تجارية واسعة في محيطهم[٧٨] .

---

(٧١) الزبيرى، كتاب نسب قريش ١٢، تاج العروس ٤/ ٣٣٧ : قرش .
(٧٢) لسان العرب ٦/ ٣٣٤، ٣٣٦، مادة : قرش .
(٧٣) ابن حبيب، المحبر ١٦٨، الكامل لابن الأثير ٢/ ٨، البلاذرى، أنساب ١/ ٣٩، طبقات ابن سعد ١/ ٧١، تاج العروس، ٢/ ١٢٥، ٣/ ٣٧٢، في مادّتي : بطح وظهر.
(٧٤) الازرقي، أخبار مكّة ١/ ٨٠ .
(٧٥) سيرة ابن هشام ١/ ٨٦ .
(٧٦) الواقدى، المغازى ١٩٦ .
(٧٧) الثعالبي، ثمار القلوب ١٨، المكية ١/ ١٤٠، الجاحظ، الحيوان ٢ ٤٧٢ .
(٧٨) الطبرى ٢/ ٣٥٢، تاريخ اليعقوبي ١/ ٢٠٠، ذيل الأمالي ١٩٩ .

اذا صحّت هذه الأخبار يكون آل قصيّ قد احتكروا التجارة بين أيديهم ، بعدما قضوا على تجارة اليمن . وكان أهمّ ما فعلوه لنجاحهم إبرام التحالفات والمعاهدات مع رؤساء الدول المجاورة لهم ، وشيوخ القبائل التي يمرّون بها . كما أرضوا الجميع بدفعهم الضرائب والجعالات ، وبتقديمهم الهدايا . وذلك ممّا أمّن لمدينتهم الحماية من الغزوات واللصوصيّة .

وأكثر من توقّف عنده أهل الأخبار في الحديث عن تجارته الواسعة كان هاشم بن عبد مناف بن قصيّ ، الذى تزعّم قومه ، وجمع ثروةً ، وسنّ لقريش رحلَتَي الصيف والشتاء[٧٩] ، ونظّم لهم الايلاف[٨٠] ، أى الجعل الذى فرضه على القبائل لحماية مكّة من الصعاليك واللصوص ، وتأليف قلوب سادات القبائل لصدّهم عن التحرّش بمصالح مكّة . وذلك بأن "أشرك في تجارته رؤساء القبائل من العرب.. وجعل لهم معه ربحا"[٨١] .

وقد بدّل "الايلاف" في أسلوب تجارة مكّة بأن جعل لها قوافل كبيرة ، تمرّ بسلام وأمان في مختلف أنحاء الجزيرة . وصيّر مكّة مكانا مقصودا آمنا ، فيما غيرهم كان يتخطّف من أرضه . وقد أشار القرآن الى ذلك ، وأشرنا اليه سابقا[٨٢] .

ويُذكر عن هاشم أيضا انّه "حصل على عهد من الغساسنة والروم على المتاجرة في أرض الدولة البيزنطيّة"[٨٣] . ثم توسّع أبناؤه فعقدوا "حبالا" أى "عهودا" تجارية وأمنيّة مع الأحباش والفرس وأهل العراق واليمن . وكانوا

---

(٧٩) تاريخ الطبرى ٢ / ٢٥٢ ، الاشتقاق ٩ ، آمالي المرتضى ٢ / ٢٦٩ ، الازرقي ١ / ٦٧ ، ابن سعد ١ / ٧٦ ، نهاية الارب ١٦ / ٣٣ ...
(٨٠) نهاية الأرب ١٦ / ٣٣ ، سورة قريش في القرآن ١٠٦ / ١ـ٤ .
(٨١) رسائل الجاحظ ، ٧٠ ، الثعالبي ، ثمار القلوب ١٢٥ .
(٨٢) أنظر صفحة ٦١ من هذا البحث.
(٨٣) تاريخ الطبرى ٢ / ١٢ .

يصلون بتجارتهم الى غزّة ومصر ، وربّما الى أنقره "فيدخل (أحدهم) على قيصر فيكرمه ويحبّه".[(٨٤)] وكاد القيصر يمنح براءته لعثمان بن الحويرث ، فيوليه على مكّة وقبائلها ، ويصطنع منه عميلا لدولته في بلاد العرب ، لولا وعي أبناء قريش ومنعهم له من الاستئثار بالزعامة والتجارة. وقد شجّعهم على منعهم هذا اطمئنانهم الى بعد بلدهم عن الروم ، وقوّة مركزهم بازاء حاجة البيزنطيين لبضائعهم التي كانوا يوفّرونها لهم[(٨٥)].

ونظرا الى عمق الروح التجارية في قريش يذكر عن أبي بكر الصديق أنّه أجبر ابنه على الطلاق من امرأته ، لأنّ امرأته كانت تلهيه عن التجارة[(٨٦)]. كما يذكر عن خديجة امرأة النبيّ أنّها طلّقت رجلين لها قبله بسبب اهتمامها بجمع المال وتكديس الثروة ، حتى أصبحت تجارتها تعدل تجارة قريش كلّها.

من هنا نفهم استياء تجّار مكّة من محمّد ، ونفرتهم منه ، ومعارضتهم له ، في مكّة كما في يثرب طريق تجارتهم الى بلاد الشام. وقد علموا أنّ المسلمين سيتعرّضون لقوافلهم ، ويقطعون عليهم الأرباح. ولذلك قالوا : "قد عوّر علينا محمّد متجرنا وهو طريقنا". وقال أبو سفيان زعيمهم وشريكه صفوان بن أميّة : "ان أقمنا بمكّة أكلْنا روءوسَ أموالِنا".[(٨٧)] وقالا أيضا : "كنّا قوما تجّارا وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله قد حصرتنا حتى نهكتْ أموالَنا".[(٨٨)] ... مثل هذا الكلام يُشعر بمقدار الخسائر التي مُنيتْ بها قريش بسبب هجرة المسلمين الى يثرب ، حتى انّهم ، لغيظهم ، لقّبوا الرسول بـ"القاطع"[(٨٩)].

---

(٨٤) ابن سعد ١/ ٧٥ ، نهاية الأرب ١٦/ ٣٣ ، البلاذرى ١/ ٥٨ ، الطبرى ١/ ١٠٨٩ ، الاغاني ٢/ ٤٧ ، الاشتقاق ٩ ، ٢٣ ، اليعقوبي ١/ ٢٨٠ و٢٨٢...

(٨٥) أنظر الشريف ، مكة والمدينة ١٦٣.

(٨٦) الاغاني ١٦/ ١٣٣.

(٨٧) تاريخ الطبرى ٢/ ٤٩٢.

(٨٨) المرجع نفسه ٢/ ٦٤٦.

(٨٩) السيرة الحلبية ٣/ ٦٠.

سادساً: سِر نجاح قريش

في عمق كل شعب ، كما في عمق كل انسان ، ميل الى التعويض عمّا حُرِمَ منه . وفي قبيلة قريش من هذا الميل الى التعويض عمّا حرمتْهم الطبيعةُ منه أمرٌ خطير . لقد حُرموا من الزراعة والخصب والماء والمناخ الطيّب ، وحُرموا من الثروة الطبيعيّة وأيّة حضارة عمرانيّة أو علميّة . فكان لا بدّ لهم من أن يبحثوا جاهدين عن ثروة أخرى في مكان ما . لا بدّ لهم من ثروة يصنعونها بجهدهم ، ومن رزق يحصّلونه بعرق جبينهم وتعبِ سواعدهم .. فيكون لهم بذلك حياة فيها بعض الثروة والرخاء . فكان لهم ، بدل الزراعة والصناعة ، تجارة واسعة ، ومهارة في الكسب والربح . وهذه أيضا ما كانت لتكون لولا صفات تحلّوا بها وساهمت في نجاحهم .

من أسرار نجاحهم حرِصهم على تحالفهم فيما بينهم ، وعلى تحالفهم مع سائر القبائل التي يتاجرون معها ، أو يمرّون بها . من هذا القبيل جاء قول ابن عبّاس لأهل مكّة الذين أخذوا يعذّبون أبا ذرّ الغَفاري . قال لهم : " ويلكم ألستم تعلمون أنّه من غِفار ، وانّه من طريق تجارتكم الى الشام ؟ فأنقذه منهم "(٩٠).
ففي هذه الحادثة دليل ساطع على ميلهم الى اكتساب صداقات الناس ، ورغبتِهم في فضّ كلّ خلاف يقع بينهم وبين غيرهم ، وانصافِهم كلّ غريب يطرأ عليهم ، وجنوحِهم الى السلم والهدوء . فكان لهم بهذه الصفات سرُّ نجاحهم التجاري .

ومن أسرار نجاحهم أيضا ترفّعهم عن الشحِ والبخلِ ، وامعانُهم في العطاء ، وبذلُهم كل غال ونفيس في سبيل تجارتهم وأرباحهم . وفي ذلك يقول الجاحظ عنهم : " لم يعتريهم من بخل التجّار قليلٌ ولا كثير . فأعطوا الشعراءَ كما يُعطي

---

(٩٠) الاصابة ٤/ ٦٤ ، رقم ٣٨٢ .

الملوك، وقرّوا الأضياف، ووصلوا الأرحام، وقاموا بنوائب زوّار البيت. فكان أحدُهم يحيسُ الحَيسة في الأنطاع، فيأكل منها القائمُ والقاعد، والداخل والراكب. وأطعموا بدل الحَيْس الفالوذَج.."(٩١) . وكانوا يوفّرون لحجيج بيت الله الطعام والسقاية. وهي من مآثر قصيّ التي ورثوها عنه.

ومن صفات قريش التعاون التامّ فيما بينهم، وميلهم الى السلم. فهم قبيلة تشدّ بعضَهم الى بعض رابطةُ النسب والعصبية. فكم عقدوا فيما بينهم الأحلاف، درءا لكل خلاف، وكم ابتعدوا عن خصومة، لئلا تنالَ منها أرباحَهم، وكم تحاشَوا المعاركَ والحروب، وتركوا الغزو والنهب، واسترضوا القبائل، ورموا السلاح، ومالوا الى الاستقرار.. حتى "عُيّرتْ قريش بأنّها لا تُحسنُ القتال، وانّها تجاري وتساير مَن غلب، وانّها لا تَخرجُ الاّ بخفارة خفير، وبحلفِ حليف، وبحبلٍ من هذه الحبال التي عقدتْها مع سادات القبائل"(٩٢) . لا همّ لهم الاّ النجاح في تجارتهم ووفرة المال في أيديهم.

وزاد في غناهم اطمئنانُ الناس اليهم، لكثرة ما سمعوا عن تديّنهم، فعُرفَ عنهم ايمانُهم "الحنيف". فهم في التاريخ "الحنفاء"، و"الصابئة"، و"الحُمْس"، و"الإبيونيّون".. فيما غيرهم من "أهل الحِلّة". وقد نعتوا بـ" آل الله"، وبـ"جيران الله"، و"سكّان حرم الله"، و"أهل الله"(٩٣). يَحترمون حدودَ الله، ويقدِّسون الكعبة(٩٤)، ويتحنّثون في غار حراء، ويقيمون المناسِك، وُينكرون الفواحشَ، ويعاقبون على الجرائم، ويخافون الحسابَ العسير،

---

(٩١) الجاحظ، كتاب الحيوان، ٤٧٠ وما بعدها. الحَيْس: طعامٌ مركّب من تمر وسمن وسويق. أنطاع من نِطْع: بساط من الجلد يُفرش تحت المحكوم عليه بالعذاب. الفالوذَج: حلواء تُعمل من الدقيق والماء والعسل (فارسية).
(٩٢) تاريخ الطبرى، ٣/ ٢٥٧ وما بعدها.
(٩٣) الثعالبي، ثمار القلوب ١٠، العقد الفريد ٣/ ٣١٣.
(٩٤) الثعالبي ١٠، الروض الانف ١/ ١١٨، الاشتقاق ٤٩١، اليعقوبي ١/ ٢٥٤

ويؤمنون باليوم الأخير، ويرجون القيامة ... وجعلوا الرحمة في حياتهم والاهتمام بالفقراء من أولى الأمور، فعقدوا حلف الفضول للدفاع عن البائس المحتاج، و"جعلوا الصدقة واطعام المحتاج من أمور الدين"، حتى أصبح انفاق قريش على المساكين يعدّ عندهم عرفا مقدّسا (٩٥) .

وقد يكون السبب الأهمّ في نجاح تجارة قريش، معرفتهم باللغة العربيّة التي تعلّموها من أهل "غربيّ" الفرات، من الحيرة والأنبار. فنقلها التجّار معهم، كما أخذوها عن المرسلين النصارى (٩٦) . وهي لغة مستساغة التعبير، غنيّة المفردات، دقيقة المفاهيم، حسنة الصيغة. أجادها القرشيّون تماما فتغلّبت على لهجات الأعراب جميعا ... ويبدو أنّ مكّة لم تعدَمْ من غير لغة، فكان فيها مَن يعرف اليونانية، والروميّة، والحبشية، والعبرية، والسريانيّة، والقبطية.. ولهذه كلّها أثر في مفردات القرآن (٩٧) . وهي من الضرورة العمليّة بمكان لأجل حركة التجارة وكيفيّة التعامل مع الناس. وقد تكون اللغة المسمّاة "عربيّة"، نسبة الى "غرب" الفرات، تجمّعا من لغات ولهجات عديدة، تماما كما أهل قريش الناطقون بها هم "تجمّع" من قبائل وعشائر وبطون متلوّنة. وليس كاللغة الميسّرة ما يسهّل عمليّة التجارة ويوسّع حركتها.

---

(٩٥) أنظر فيما بعد فصلا كاملا عن اهتمام قريش وجماعة النبي بالفقراء والمساكين والأيتام .. مما يدعو الى القول بنزعتهم "الابيونية"، وهي شيعة من النصارى، عقيدتهم الاساسية: الاهتمام البالغ بالفقراء والمعدومين. انظر كتاب "قسّ ونبي".

(٩٦) أنظر كتاب "أعربي هو؟". فصل اللغة العربية.

(٩٧) أنظر السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، "فصل فيما وقع فيه بغير لغة العرب".

خاتمة الفصل الثالث

من الكلام على تجارة مكّة نستخلص أمرين : أمر فقر الطبيعة في مكّة الذى استحثّ المكّيين على التعويض عنه بالبحث عن مورد رزق آخر، يكون كـ ردّة فعل " قويّة عن حالة البؤس والحرمان · وأمر غنى موقع مكّة الجغرافي الذي دفعها الى التجارة دفعا ، هذه التجارة التي جاءتها بالرزق رغدا من كلّ مكّان ·

فوق أرض مكّة اذن : فقر وغنى · جدب ورزق · عسر ويسر · طبيعة محرومة من موارد العيش، وجغرافية ردّت عليها ما حرمت منه · لا زرع ولا ضرع· بل تجارة وأموال وأرباح · وهو وضع خطير في سلّم الاقتصاد المدني · وقد لا تسلم مدينة من خطر وضع اقتصادي كهذا · فالاقتصاد الصحيح زراعة وصناعة ثمّ تجارة · أمّا وضع مكّة فتجارة وحسب · فعلام تكون النتائج ؟

والسؤال الذى ينتج من هذا الواقع يدور حول كيفيّة المجتمع في مكّة · فالمجتمع التجارى يفرض على المدينة نوعا معيّنا من الحياة، ويحتّم نمطا خاصّا من العيش · فالى أىّ مدى نستطيع الاطمئنان الى صحّة هذا المجتمع ؟ وهل كان مجتمع مكّة صحيح البنية، منسجم الطبقات ، يوفّر لجميع أفراده الحياة الكريمة ؟ لا يبدو ذلك · فلننظر ·

الفصل الرابع

مجتمع مكة

أولاً : فقراء الطبيعة وأثرياء الجغرافيا
ثانياً : طبقة الأعزة الأغنياء
ثالثاً : طبقة الأذلة الفقراء
رابعاً : ثورة المحرومين

خاتمة الفصل الرابع

أولاً : فقراء الطبيعة وأثرياء الجغرافيا

في مجتمع مكّة، كما في أيّ مجتمع تجاري، طبقتان من الناس: أغنياءُ مترَفون، وفقراءُ محرومون. أولئك استبدّوا بالتجارة وكسب المال، وهؤلاء استبدّ بهم التّجار وأرباب المال. أولئك تملّكوا الأرزاق والأنعام، وهؤلاء تملّكهم الجوع والحرمان. ألأوّلون أغنياء جشعون مترفون حتى الاسراف، والآخرون لا يملكون من حطام الدنيا شيئا. ألأغنياء استفادوا من موقع مكّة الجغرافي ومركزها التجاري، والفقراء اتّكلوا على ما تَمُنّ به الطبيعة من مواسم الغيث والكلاء. أولئك جاء رزقهم رغداً من كل مكان، وهؤلاء يترقّبون عيشَهم من أرض قحيط وغيوم ضحلة. أهل الجغرافيا شباع "كثير شحم بطونهم"[1]، وأهل الطبيعة جياع "مسنتون عجاف"[2].

وقد ميّز القرآن، منذ البدء، بين هاتين الطبقتين. فسمّى طبقة الأغنياء "الملاء الأعلى"[3] و"الأعزّة"[4] و"المترَفين"[5]. وسمّى طبقة الفقراء "أذلّة"[6] و"أراذل"[7] و"أرذلين"[8]. ووصف الحربَ بينهما بما يدفعنا الى القول: لا الغنيّ كان يشعر بأيّة رحمة تجاه الفقير، ولا الفقير استطاع، لبؤسه، أن يحرّك نبضات قلب الغني ... والأمر، كما يبدو، طبيعيّ في بيئة

---

(١) مسند ابن حنبل ١/ ٤٤٢ .
(٢) من شعر قيل في هاشم: عَمرو الذي هَشَم الثريدَ لقومِهِ وأهلُ مكّةَ مُسْنَتُون عِجَافُ.
(٣) ٢/ ٢٤٦، ٧/ ٦٠، ١١/ ٢٧، ١٢/ ٤٣، ٢٦/ ٣٤ ...
(٤) ٥/ ٥٤، ٢٧/ ٣٤، ٦٣/ ٨، ١٨/ ٣٤ .
(٥) ٣٤/ ٣٤، ٤٣/ ٢٣، ٥٦/ ٤٥، ١٧/ ١٦، ٢٣/ ٦٤ ..
(٦) ٣/ ١٢٣، ٥/ ٥٤، ٢٧/ ٣٤ و ٣٧، ٦٣/ ٨ ..
(٧) ٢٦/ ١١١، ٢١/ ٢٧ .
(٨) ٢٦/ ١١١، ٢١/ ٢٧ .

يتحكّم بها التجّار وأصحاب الأموال بما يتّصفون به من مكر وغشّ وخداع ودهاء واستغلال ... ولئن لانَ قلبُ تاجر بعض الشيء، فلأنّه يترقّبُ، بعد اللين، أكثر من شيء.

وليس في الأمر غرابة. ففي بيئة كبيئة مكّة، لا نظام يحمي حقوق الضعيف، ولا عقوبة تلجم طمع المستبدّ. وفي مكّة، أكثر من أيّ مجتمع بدائي آخر، كان استئثار واستكلاب من جهة، وذلّ وبؤس من جهة ثانية. والحكم فيها كان للمستغلّين. والمجتمع التجاري فيه ميل الى الاحتكار أكثر من أيّ مجتمع اقتصادي آخر. كما في بنيته شقّة واسعة وعميقة بين أفراده أكثر ممّا نجده في مجتمع زراعي أو صناعي. أضف الى ذلك عدم وجود طبقة وسطى تحافظ على بعض التوازن والاعتدال بين طبقتي الفقر والثراء.

فبأيّة صورة اذن سيتحفنا القرآن عن هذا المجتمع المتصدّع والمتجاذب بين شرّين؟ شرّ الفقر والجوع والحرمان، وشرّ الغنى والتخمة وحكر المال.

ألصورتان، في القرآن، واضحتان ناطقتان : صورة عن مكّة وعن الفقر فيها، وصورة ثانية عن الذين يكدّسون الأموال، و"يأكلون أموال اليتامى"(٩). وقد تعمّد القرآن اظهار الصورتين، كما تعمّد الوقوف الى جانب الأولى، ومحاربة الثانية. وتعمّد أيضا الاسترسال في الكلام على الفقراء، ومنهم خاصّة "المساكين" و"أبناء السبيل" و"اليتامى".. ووعد المحسنين وصانعي الصدقات بجنّة جهّزها الله لهم. وتوعّد الذين لم يطعموا مسكينا أو لم يأووا غريبا بنار وعذاب أبديين.

والحقيقة هي أنّ المسيحية، اذا كانت تختصرُها كلمةُ "المحبّة"، فالاسلام، أقلّه الاسلام المكّي، تختصره كلمة "الرحمة".. وما كلام القرآن على "اليتامى"

---

(٩) سورة النساء ٤/ ١٠.

و" المساكين " وأمثالهم ، الا لأنه يرى في الاهتمام بهم صحة الدين وصلاح المجتمع. وما كلامه على الارث والزواج والمغانم والزكاة والصدقة والجهاد الا لاجل العناية الفائقة باليتامى والمساكين وأبناء السبيل . وما الجنة وطيباتها وما فيها من خيرات وملذات الا لصانعي البر والاحسان مع المحرومين من خيرات هذه الدنيا . وقد يرى المسلمون أن القرآن وتعاليم الوحي أوسع من ذلك، ولكن الحقيقة، كما سنرى، لم ينطلق النبي ولم يبدأ الا من ذلك . هذه ناحية أهملها المسلمون لأجل اظهار شمولية النبوة الكونية . وكان الأجدر بهم ألا يهملوا هذه ولا يتركوا تلك . وربما تكون تلك أجدر بالله ورسوله وجماعة " المتقين ".

وربما كان القرآن، باهتمامه هذا ، بلغ شأنا اجتماعيا رائعا ، لم يبلغه في أي شأن آخر، حتى في مجالات الوحي والتنزيل والعصمة والنبوة والمعرفة والعلم .. هذه أمور يعترضها الشك في كل نواحيها ، فيما صورة " الرحمة " لا تحتاج الى من يثبتها لكثرة وضوحها . وربما نستطيع القول : ان تعاليم الوحي جاءت لتدعم تعاليم " الرحمة ". ويجب أن نعلن، منذ الآن، بأن أهل قريش، فيما عُرفَ عنهم من تسامحهم الديني ، لم يقفوا من محمد موقف العداء، الا بسبب معرفتهم بنيته في ضرب أغنيائهم " الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما "(١٠) .

وفي رأينا ان ظاهرة " الرحمة " التي يريدها محمد هي أخطر من ظاهرة " النبوة " التي يريدها له المسلمون . وظاهرة " اصلاح مجتمع متصدع " كمجتمع مكة هي أعنف من ظاهرة نسبة القرآن العضوية الى الله . لكأن محمدا ، الذى أراد تفجير مجتمع مكة، كان هو ذاك الانفجار الذى حدث في مكة ، ثم في الجزيرة ، ثم في أنحاء العالم . والمسلمون الأولون الذين خاضوا " الفتوحات " لم يكن لهم ذلك بقوة الدين وآيات الله البينات ، بقدر ما كان لهم بدفعة الجوع والفقر والحرمان . وعلى هذه النقطة ألف ألف دليل من تاريخ المسلمين .

---

(١٠) سورة النساء ٤/ ١٠ .

وبحقّ نقول : ليس كانفجار المحرومين الجائعين يمكن أن يكون بمثل ما حدث. هو كانفجار الشيوعيّة في عصرنا الحديث التي أمسكت بيد الجائع المحروم لتضرب بها أعناق الشباعى المترفين . وهو كانفجار "محرومي الشيعة" الذين أشعلوا الأرض انتقاما لبؤسهم . والاسلام أضاف على الشيوعيّة ومحرومي الأرض دعما من السماء أصبح معه خطيرا .

فالمجتمع المكّي اذن، وبوجه عام، ومن وجهة النظر الاقتصادية، هو "مجتمع بسيط التكوين . يتألّف من طبقتين اقتصاديّتين: طبقة أصحاب الأموال من التجّار وأصحاب الابل الذين تتركّز في أيديهم الثروة وتتحكّم رؤوس أموالهم في الحياة الاقتصادية . وطبقة الفقراء الذين لم يستطيعوا المشاركة في النشاط التجارى الجارف في المدن، والذين أوصدت طبيعة الحياة الرعوية في مجتمع البادية أبواب الثراء في وجوههم .. وكانت الهوّة الاقتصادية بين هاتين الطبقتين بعيدة الغور الى حدّ كبير ممّا أدّى الى اختلال التوازن الاقتصادى بينهما اختلالا شديدا . وهذا الاختلال الاقتصادى وقف منه القرآن الكريم موقفا حاسما".(١١)

واذا كان الحظّ آتى الأغنياء دون الفقراء "فتلك خطيئة المجتمع الذى يعيشون فيه وليست خطيئتهم . وماذا يملكون (الفقراء) لتغيير حظّهم في مجتمع صحراوي مواردُ الرزق فيه محدودة، ومجال العمل فيه ضيّق! انّ تلك القوافل التجارية التي تسيل بها شعابُ الصحراء، وهذه القطعان من الماشية التي يضيق بها حمى القبيلة، كان من الممكن أن يكون لهم فيها نصيب لو أنّ المجتمع سار على قواعد عادلة غير القواعد التي يسير عليها".(١٢)

ولكن من أىّ باب تدخل العدالة وقد علّمنا القرآن بعد الانجيل بأنّ الأغنياء "لا يدخلون الجنّة حتى يلج الجمل في سمّ الخياط"(٧/٤٠ = متى ١٩/٢٤).

(١١) (١٢) الشريف، مكة والمدينة، ٨٢، ٨٣ .

ثانياً : طبقة الأعزّة الأغنياء

هم أيضا "الملاء الأعلى" و"المترفون" وأصحاب الثروة والمال، والتجارة الواسعة، والممتلكات الشاسعة، وقطعان المعز والغنم، وقوافل الابل ... هؤلاء يتنعّمون بما يصف القرآن به أهل الجنّة من قصور مشيّدة، وغرف عالية، وسرر موضونة، وأرائك منعمّة، وفرش مبطّنة ومبثوثة، ونمارق مصفوفة، وحلي منمّقة، وزرابي مبثوثة، وألبسة حريرية، من سندس واستبرق(١٣) ..

ويصفهم أيضا بما كانوا يتنعّمون به من مآكل شهيّة ومشارب هنيّة، وما كانوا يستعملونه من الأواني في مأكلهم ومشربهم، من ذهب وفضّة ومرجان ولؤلؤ درّي وياقوت(١٤)... ويسمّي بعض أوانيهم من صحاف وأكواب وزجاج وأباريق ومصابيح ومشاكي وقوارير وزخارف متنوّعة الشكل واللون(١٥) ..

ويصفهم أيضا في أسفارهم ورحلاتهم التي يسّرت لهم الاتّصال بالعالم، واستمتعوا بما عرفوه من ترف ونعيم ومال ولذائذ ومتع مشتهاة(١٦) .. أدّت بهم الى تكذيب الرسول والكفر بدعوته . فقال فيهم : "وما أرسلنا في قرية من نذير الاّ قال مُتْرَفُوهَا انّا بما أُرسِلتُ به كافرون"(١٧) . وأدّت بهم أيضا الى

---

(١٣) أنظر: ٧/ ٧٤، ٢٢/ ٤٥، ٢٥/ ١٠، ٣٩/ ٢٠، ٥٦/ ١٥، ٥٢/ ٢٠، ٤٣/ ٣٤، ١٥/ ٤٧، ٣٧/ ٤٤، ٥٥/ ٥٤، ٥٦/ ٣٤، ١٠١/ ٤، ١٨/ ٣١، ٣٦/ ٥٦، ٧٦/ ١٣، ٨٨/ ١٥، ٧٦/ ٢١، ١٨/ ٣١، ٢٢/ ٢٣، ٣٥/ ٣٣ ...

(١٤) أنظر: ٢٢/ ٢٣، ٤٣/ ٥٣، ٥٢/ ٢٤، ٥٥/ ٢٢، ٥٨، ٥٦/ ٣ ...

(١٥) أنظر هذه الالفاظ في المعجم المفهرس للقرآن . وهي كثيرة جدّا .

(١٦) ١٨/ ٣١، ٢٢/ ٢٣، ٤٣/ ٧١، ٤٤/ ٥٣، ٥٢/ ١٧-٢٤، ٥٥/ ٤٦-٧٨، ٥٦/ ١٥-٢٩، ٦٩/ ٢١-٢٤، ٧٦/ ٥-٢٢، ٧٨/ ٣١، ٨٣/ ١٨ ...

(١٧) ٣٤/ ٣٤ .

الغش بالكيل والتلاعب بالموازين[١٨] ، وأكل الربا[١٩] ، وقهر اليتامى وأكل أموالهم ظلما[٢٠] ، واكراه المستدين على حمل امرأته أو ابنته على البغاء لايفاء ما عليه[٢١] ...

واذا جاءهم سائل انتهروه، واذا طلب منهم محروم عونا أبعدوه، واذا وزن بائعهم أنقصَ في الميزان، واذا كال قصّر في الكيل[٢٢] .. وغير ذلك من مفاسد حتى التهوا عن عبادة الله واتّباع الرسول والجهاد معه، بما لهم من مال وبنين يفتخرون بكثرتهم[٢٣] .

الاّ أنّ الربا كان المظهر الأهمّ لجشعهم، وكانوا " يعوّلون عليه كثيرا في تنمية ثرواتهم ". وكان يبلغ أحيانا أضعاف القرض. ويبدو أنّه كان في مكّة " أمرا شائعا وعامّا "[٢٤] .

وبالاجمال، يصوّر القرآن " أعزّة " مكّة جماعة ترف واسراف. يتمتّعون برغد من العيش بفضل نشاطهم التجارى وأرباحهم الطائلة التي " صيّرت مكّة مركزا خطيرا من مراكز الثروة والمال في جزيرة العرب في ذلك الحين "[٢٥] .

******

ولا بدّ لنا، لاكمال صورة القرآن، من الاعتماد على كتب السِيَر والأخبار، فنتعرّف على بعض أشخاص سيطروا على الثروة والأرباح واسواق التجارة آنذاك.

---

(٢٠) ٤/ ١٠، انظر آية ٢، ٢٩، ١٦١ ٢/ ٨٨-، ٦/ ١٥٢، ٩/ ٢٤ و ٣٤، ١٧/ ٣٤، ٨٩/ ٧، ٩٣/ ٩ و ٦/ ١٥٢، ...
(٢١) ٢٤/ ٣٣ .
(٢٢) ٥٥/ ٩، ٨٣/ ١ .
(٢٣) انظر : ١٩/ ٧٧، ٩٠/ ٨١، ٧١/ ٢١ .
(٢٤) الشريف، مكة والمدينة، ص ٢١٣ .
(٢٥) د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ٧/ ٢٨٥ .

عبدالله بن جدعان ابن عم والد الخليفة أبي بكر. كان ثريًا جدًا، ربما عدّ من أثرى رجال قريش. كان يأكل بصحاف من ذهب وكؤوس من فضة وبلور. فعرف بـ"حاسي الذهب". وامتلك قيانا يغنين له. وكان بيته دارا للضيافة... لكنّه كان كريما حتى الاسراف، محبا ومضيافا. كان يعتق الرقاب، ويعين على النوائب، ويساعد الناس، ويقضي الحاجات.. ولكثرة كرمه، كان يضع جفنة (قدرة) كبيرة ضخمة ويملأها طعاما ليأكل منها الناس. وكانت عظيمة جدا بحيث غرق فيها صبي، ويأكل منها القائم والراكب على بعيره. ويذكر ان الرسول استظل بظلها وقت الظهيرة. وكان محمد يرسل مناديا الى مكة ينادي: "ألا من أراد اللحم والشحم فليأت الى دار ابن جدعان". كان له دار واسعة، عقد بها حلف الفضول. وكان النبي ممن شهده وهو ابن عشرين سنة (٢٦).

عثمان بن الحويرث بن أسد، ابن عم خديجة، طمع في ملك مكّة، فخرج الى قيصر الروم، وسأله أن يملكه على قريش. وتنصر عثمان وحسنت منزلته عند الروم، وهدد قريشا ان لم تدِنْ له قطعَ القيصرُ تجارتَهم مع بلاد الشام. وكان عثمان من رؤساء حرب الفجار. كما كان أحد الهجائين اللاذعين (٢٧).

الأسود بن المطلب المعروف بأبي زمعة. يقال له "زاد الركب"، لانّه كان يزوّد المسافرين طعاما. أدرك الرسول وعارضه، واستهزأ به، فمات كافرا. عرف بغناه وثروته الواسعة وتجارته مع بلاد الشام. كان من أعز قريش في أيام الجاهلية، ولا يطوف بالبيت الا متقلدا بسيفين (٢٨).

زمعة بن الأسود تاجر مع بلاد الشام، عرف بدقته في عمله، وبوضع الخطط الرابحة. وابنه يزيد بن زمعة من سادات قريش. كانت اليه المشورة، فيعرضون عليه كل أمر. أسلم واستشهد في الطائف (٢٩).

حرب بن أميّة من وجهاء مكّة وأثريائها المعروفين (٣٠).

هشام بن المغيرة كان له ولبنيه ذكر عال في الثروة. كان سيّد قريش في أيامه. ولما مات أصبح يوم مماته من أيام مكة المشهورة. فأرخوا بموته. لقب أيضا كالأسود بن المطلب بـ"زاد الركب" لانه كان يُقري المسافرين (٣١).

---

(٢٦) المحبر ١٣٨، نسب قريش ٢٥٦، الكامل ١/ ٣٥٩، لسان ١٠/ ٤٥٧...
(٢٧) الاشتقاق ٥٩، نسب ٢١٠، المحبر ١٦٥، الروض الانف ١/ ١٤٦ ...
(٢٨) المحبر ١٣٧، ١٧٤، الاشتقاق ٥٨، نسب قريش ٢١٨، أنساب ١/ ١٤٩.
(٢٩) بلوغ الارب ١/ ٢٤٩، المحبر ١٥٨ ...
(٣٠) أيام العرب ٣٣١ و ٣٣٤.

ألحارث ابنه عرف بالكرم والجود . داره مفتوحة للضيوف. يدخل اليه الناس وهو جالس على سريره، ويحثهم على الاكل والشرب. وكانت جفانيه مملوءة خبزا ولحما . وكان نديما لحكيم بن حزام بن خويلد ابن عم خديجة(٣٢) .

أمّا الوليد أخو هشام بن المغيرة فكان من أشراف مكة . عرف بين قومه بـ"العدل"، لانه كان يعدل قريشا كلها لكثرة أمواله . فكانت قريش تكسو الكعبة جميعا ويكسوها الوليد وحده . كان له مال وزرع بالطائف . كافح الاسلام وهزئ بالرسول . فنزلت بحقه آيات كثيرة تعنّفه وتصفه بالكفر والاستكبار (٣٣) .

أبو جهل، من أبناء هشام بن المغيرة، هو أبو الحكم عمرو. لقّب بأبي الحكم فغيّر الرسول لقبه بـ"أبي جهل" . كان على رأس أشد الناس عداوة للنبي . وكان من "المقتسمين" . وهم سبعة عشر رجلا من قريش. اقتسموا عقاب الكعبة، فكانوا اذا حضروا الموسم يصدون الناس عن رسول الله . وفيهم نزلت آية "كما أنزلنا على المقتسمين" (٣٤) . وكان من مطعمي حرب بدر ومموليه . كان أحول "ومن الحولان الأشراف" . كان قاسيا على النساء، فعذّب عددًا منهنّ . وكان يفتن كل من أسلم في اسلامه . وكان فاحشا بذيئا (٣٥) .

عكرمة بن أبي جهل يدلّ على غناه قوله لأبي بكر الصديق يوم غزا الروم: "أنا غنيّ عنها (أى عن المغانم) . معي ألفا ديناره فاصرف معونتك الى غيرى". (٣٦) .

العاص بن وائل بن هاشم من أشراف قريش وأثريائهم . أسلم هو وخالد ابن الوليد وعثمان وطلحة(٣٧) .

ألحكم بن ابي العاص بن أميّة بن عبد شمس. من تجار مكة وأعزّتها . كان يخرج بتجارته الى الشام وسائر البلدان(٣٨) .

سعيد بن العاص المكنى بأبي أحيحة. والمعروف بذي العمامة، لانّه كان لا يعتمّ أحد بمكة بلون عمامته اعظاما له . وعُرف بـ"ذي التاج" للسبب نفسه . كان تاجرا وحبس مرّة بالشام وافتُدي بمال كثير. لم يدخل في الاسلام اذ كان

---

(٣١) الاشتقاق ٦٠ و ٦٣ و ٩٢، المحبر ٣٩، المعارف ٣٢ .
(٣٢) المحبر ١٧٦ و ١٧٩، نسب قريش ٣٠١ .
(٣٣) تفسير الطبرى ٥/ ٣٦، ابن هشام ١/ ٧٢، المحبر ١٦١، أنساب ١/ ١٣٤ .
(٣٤) سورة الحجر ١٥/ ٩٠ .
(٣٥) المحبر ١٣ و ١٣٩ و ١٦٠، ١٦١، ٣٠٣، الكامل ٢/ ٤٧، أنساب ١/ ١٢٥ .
(٣٦) نسب قريش ٣١١ .
(٣٧) نسب قريش ٤٠٨ و ٤٠٩ .
(٣٨) المحبر ١٦٥، الاشتقاق ٤٩، الطبرى ٢/ ٢٩٨ ...

يرى أنّ الشيء العظيم يجب أن يكون في العظماء، والاسلام حقير على يد حقير. مات كافرا، ودفن بالطائف. رأى أبو بكر قبره فسبّه، فنهى النبي عن سبّ الأموات (٣٩).

عمرو بن العاص أسلم وقاد الجيوش الإسلاميّة للفتح والغزو واكثار رأس ماله. وكان قبلا يتاجر مع مصر، ولذلك تعرف على منافذ الضعف فيها ممّا سهل له فيما بعد فتحها والانتصار عليها.

عبد الله ابنه. قيل عنه انه "كان يعرش على ألف ألف خشبة شراء كل خشبة درهم. وقد كان يحصل منه على أكوام كبيرة من الزبيب(٤٠).

العباس بن عبد المطلب، من أغنياء قريش، ومن المقرضين للمال. كانت له ثروة واسعة من نقود وذهب وفضة. استغلّ ماله بالتجارة وباقراضه بالربا. قيل عنه: "كان ذا مال كثير متفرق في قومه. فدى نفسه عندما وقع في الأسر ببدر (٤١).

عبد العزّى بن عبد المطلب، المكنّى بـ"أبي لهب"، عمّ الرسول. حاربه ونصب له العداء. جمع مالا طائلا من تجارته مع بلاد الشام. وكانت زوجته تحرضه على معاداة الرسول وايذائه. وفيهما نزلت سورة "تبت" أو "اللهب" رقم ١١١. كان بيته في جوار بيت رسول الله. وكان الرسول يقول: "كنت بين شر جارين: أبي لهب وعقبة بن أبي معيط ان كانا يأتيان بالفروث فيطرحونها في بابي "(٤٢).

أبو سفيان واسمه صخر بن حرب بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيّ. كان تاجرا ثريا، خبيرا بطرقات السفر والقوافل. وكان قائد قريش في الحرب. وكان صاحب لسان يَنظُمُ الشعر ويُجيد الهجاء. وكان صديقا للعباس. نزلت آيات كثيرة بحقه. وكان من المحرضين على معركة بدر. وكان شحيحا "حتى حمله شحه هذا على مخالفة دين قريش"(٤٣).

عتبة بن ربيعة بن عبد شمس اشتهر بماله وسخائه(٤٤).

---

(٣٩) المراجع السابقة مع انساب البلاذري ١/ ١٤١و١٤٢، البيان ٣/ ٩٧.
(٤٠) تاج العروس ٥/ ٢٤٣ مادة: وهط.
(٤١) تاريخ الطبري ٢/ ٤٦١، الاصابة ٢/ ٢٦٣ رقم ٤٥٠٧.
(٤٢) أنساب للبلاذري ١/ ١٣١، "فروث" وسخ الانسان.
(٤٣) تاريخ اليعقوبي ٢/ ٣٥، تاريخ الطبري ٢/ ١٥٧ و ٤٦٦، الطبرسي تفسير على سورة ٣/ ١٧٢، الاستيعاب ٤/ ٨٦، حاشية على الاصابة.
(٤٤) المحبر لابن حبيب ١٦٠، سيرة ابن هشام ٢/ ٢٦٢.

أبو بكر الصديق كان له عند بعثة النبي أربعون ألف درهم . ولمّا أسلم كان يعتق من ماله ويعول المسلمين . لما قدم المدينة مهاجرا كان له خمسة آلاف درهم فقط (٤٥) .

طلحة بن عبيد الله بن عثمان . غلّته اليومية ألف دينار . كان خازنا لأغنياء قريش (٤٦) .

الزبير كان له ألف مملوك يؤدّون اليه الخراج . له أرضون واسعة (٤٧) .

بلال المؤذّن كان خازنا لأموال ابي بكر . ثم صار خازنا للرسول (٤٨) .

عبد الرحمن بن عوف من المهاجرين الذين جمعوا مالا وصار من المثرين . تصدّق على الرسول بأربعين الف دينار . وحمل خمسمائة فرس وخمسمائة راحلة . اعتق ثلاثين الف نسمة . وأوصى لكل من شهد بدرا بأربعمائة دينار . خلّف ألف بعير وثلاثة آلاف شاه ومائة فرس (٤٩) .

مسافر بن عمرو بن أميّة تاجر مع العراق وهلك فيها عند النعمان بن المنذر . رثاه أبو طالب (٥٠) .

الأسود بن عامر بن السباق بن عبد الدار بن قصي كان غنيّا جدّا (٥١) .
ضرار بن الخطاب كان فارس قريش في الجاهلية وشاعرا . أدرك الاسلام (٥٢) .
عمر بن عبد ودّ . غني واسع الثروة . قتله علي بن ابي طالب (٥٣) .
سهل ابنه أسلم وبعثته قريش يحكم الهدنة بينها وبين الرسول يوم الحديبية (٥٤) .

قيس بن عدي ضرب به المثل في الثروة والعزّ (٥٥) .
ألحارث ابنه استهزأ بالرسول وأذاه فنزلت فيه آية : " أفرأيت من اتّخذ

---

(٤٥) الاصابة ٢/ ٣٣٧ رقم ٤٨١٧ .
(٤٦) الاستيعاب ٢/ ٢١٠ حاشية على الاصابة .
(٤٧) الاستيعاب ١/ ٥٦٣ حاشية على الاصابة .
(٤٨) ارشاد الساري ٤/ ٤٩ .
(٤٩) ارشاد الساري ٤/ ٥٤، الاصابة ٢/ ٤٠٨ رقم ٥١٨١ .
(٥٠) كتاب نسب قريش ١٣٥، الاشتقاق ١٠٣ .
(٥١) الاشتقاق ١٠٠ .
(٥٢) الاشتقاق ٦٤ .
(٥٣) الاشتقاق ٦٨ .
(٥٤) الاشتقاق ٦٩ .
(٥٥) المحبر ١٧٨، جمهرة أنساب العرب ١٥٦ .

إلهه هواه"(٥٦) .

عثمان بن عمرو بن كعب عرف بـ" شارب الذهب" لغناه . وحسب من أجواد قريش(٥٧) .

عبد الله بن عامر بن كريز ابن خال عثمان بن عفّان كان ماله أرضون واسعة . جمع ثروة طائلة من الزراعة (٥٨) .

عبد الله بن ابي ربيعة استقرض منه الرسول أربعين ألف درهم فأعطاه .
صفوان بن امية أقرض الرسول خمسين الف درهم .
حويطب بن عبد العزى أقرض الرسول أربعين ألف درهم (٥٩) .
المطلب بن ابي وداعة فدى أباه يوم بدر بأربعة آلاف درهم (٦٠) .
آل مخزوم عرفوا بالثراء وكثرة المال والارضون (٦١) .

******

هؤلاء جميعهم، وغيرهم الكثير، ممّن كانوا في أيّام النبيّ، وعند بدء الدعوة الاسلاميّة، وقد اشتهروا بكثرة المال ووفرة الثروة والأرباح . كان لهم أرضون شاسعة، وزراعة ناجحة، في مكة والطائف وبعض القرى المجاورة . كما كان لهم تجارة رابحة مع بلاد الشام واليمن ومصر وغيرها . ومعظمهم عاند الرسول وحاربه . وبعضهم أسلم وأفاد الاسلام من ثروتهم . وفي القرآن المكّي، بحق الذين عاندوا، آيات كثيرة تتوعّدهم بالعذاب والهلاك الأبديين .

لم نذكر من هؤلاء الأثرياء الآ الذين كانوا على صلة بالنبي . فما أدراك بالذين كانوا عبر عصور الجاهلية يكدّسون الاموال والأرضون! هؤلاء كانوا في

---

(٥٦) أنساب البلاذرى ١/ ١٣٢ . أنظر القرآن ٤٥/ ٢٣ .
(٥٧) المحبّر لابن حبيب ١٣٧ .
(٥٨) نسب قريش ١٤٨، الاستيعاب ٢/ ٢٥١ .
(٥٩) أمتاع الاسماع ١/ ٣٩٥ .
(٦٠) نسب قريش ٤٠٦ .
(٦١) نسب قريش ٣٠٨ .

مكّة مهاجرين قبل الهجرة في سبيل جمع الثروة. وصورتهم في القرآن جليّة ، وموقفهم من الدعوة الجديدة عدواني ، وموقف الرسول منهم ثوري. لم يحصل للنبيّ أذى الاّ بسببهم ، ولم ينزّل القرآن ، في بدايته ، الاّ بحقّهم.

وأخطرهم على الاسلام كان التجّار. وقد وصفوا بالفجر والكفر والبخل. فجاء على لسان الرسول قوله : "التجّار هم الفجّار".(٦٢) وقوله : "انّ التجّار يبعَثون يومَ القيامة فجّارا".(٦٣) وكانت دعوتُه على التجّار قوله "لأقطعَنّ متجرَك بالشام".(٦٤) ، أو "لا أربحَ اللهُ تجارَتك".(٦٥) ...

(٦٢) ابن حنبل ٣/ ٤٢٨ ، ابن هشام ٢٥٧ ، تاريخ اليعقوبي ٢/ ١٦ .
(٦٣) سنن الترمذي ، باب البيوع ٤ ، سنن ابن ماجه ، باب التجارات ٣ ، مسند ابن حنبل ٣/ ٤٢٨ ، ٤٤٤ .
(٦٤) صحيح البخاري ، باب المناقب ٢٥ ، ابن حنبل ١/ ٤٠٠ .
(٦٥) سنن الترمذي ، باب البيوع ٧٥ ، الدارمي ، باب الصلاة ١١٨ .

ثالثا : طبقة الأذلة الفقراء

تؤلف هذه الطبقة السواد الأعظم من سكان مكة . وهم ، في غالبيتهم ، من البدو والأحابيش والخلعاء المطرودين من بلدان منشأهم . وكثيرا ما تكلم القرآن عليهم ، وعلى وضعهم السيء . وعرفوا فيه ، وفي كتب الأخبار ، تحت أسماء عديدة ، مما يشير الى كثرتهم والى ضعة منزلتهم . فهم ، في القرآن : "أراذل" و "أذلة" و "أرذلون" (٦٦) . وفيهم "الفقير" و "المسكين" و "ابن السبيل" و "اليتيم" و "المحتاج" ... وهم ، في كتب السير والأخبار ، "صعاليك" و "خلعاء" و "طرداء" و "لصوص البادية" و "ذؤبان العرب" و "شياطين" و "فتاك" وغير ذلك (٦٧) .

و "لا يخفى أن تعدد هذه الأسماء يكفي للدلالة على عدد أولئك الشذاذ ، وعلى ما كان من ضعف في تنظيم السلطة العربية القديمة" (٦٨) . ولا يخفى أيضا ، نظرا لتنوع أسمائهم ، بأن هناك تنوعا في حالتهم السيئة . فهم امّا "خلعاء" طُرِدوا من قبائلهم وعشائرهم لأجل الخلاص من شرهم ، أو لأجل سبب سياسي ، أو أيضا لأجل ثأر يُطلب منهم . وامّا "جياع" تكاثر عددهم فأصبحوا يتقاتلون على لقمة العيش ، ولا تعود خيرات الطبيعة تكفيهم . وأمّا "لصوص" اعتادوا حياة النهب والسلب والتعدي على أموال الناس وأرزاقهم .

(٦٦) أنظر المراجع صفحة ٨٣ من هذا البحث .
(٦٧) أنظر : تاريخ الواقدي ، ٤٥٨ ، تاريخ الطبري ١/١٤٣٨ ، الاغاني للاصفهاني ٨/ ٦٥ ، النهاية لابن الاثير ٢/ ٥٢ ، ٦٣ ، أسد الغابة في أسماء الصحابة ٥/ ١٧٨ ...
(٦٨) هنري لامنس ، المشرق عدد ٣٤ ، سنة ١٩٣٦ ، ص ١ـ٢ .

وأوصاف هؤلاء جميعا، وفي جميع حالاتهم، تدلّ على سوء حياتهم وشدّة فقرهم. فالصعلوك مثلا هو "الفقير الذي لا مال له"(٦٩)، أو هو "الفقير المتجرّد للغارات"(٧٠). والصعاليك قوم خرجوا على طاعة مجتمعهم بعد أن حرمهم أهلهم من تقديم أيّة مساعدة، أو حماية لهم. والصعلوك هو المتمرّد على مجتمعه، الخارج عن نظام قبيلته، العابث بالأعراف والعادات، واللامبالي بالتقاليد، والحاقد على أهله وعشيرته، والمعدوم من كل شيء يفيد أو يقيت.

والجوع حليف الصعاليك، بل هو جزء من أجزاء حياة الصعلكة. والموت يتبعهم مثل ظلّهم. والخوف الدائم رفيقهم. ولا أمل لهم بعصبيّة تدفع عنهم الشرّ والموت ان هم لم يدافعوا عن أنفسهم بأنفسهم.

ومن مظاهر الفقر والعوز عندهم انّهم كانوا يأكلون ورقَ الأشجار ولحاءها، ويعمدون، كالسَرح، في رعي الأعشاب نيئة بدون معالجة، ويلجأون الى "العِلْهَز" وهو طعام من الوبر والدم(٧١)، أو الى "الوَدَك" وهو جُمْعُ العظام وكَسرُها ثم طبخُها(٧٢)، أو الى "الوزين" وهو الحنظل ممزوج باللبن(٧٣).. وكثير منهم من كان يؤثر "الاعتفاد"، وهو لجوء الرجل الى بيته يغلق بابه على نفسه ليموت جوعا لكرامته، مفضلا الجوع على الشبع بالتوسل والاستجداء(٧٤).

---

(٦٩) لسان العرب ١٠/ ٤٥٥ مادة: صعلك.
(٧٠) جمهرة أشعار العرب، ١١٥.
(٧١) لسان العرب ٥/ ٣٨١ مادة: علهز، تاج العروس ٨/ ٢٠٣..
(٧٢) تاج العروس ١/ ٣٢٧ مادّة ودك. ولسان العرب المادة نفسها.
(٧٣) تاج العروس، مادة: وزن. وايضا لسان العرب المادة نفسها.
(٧٤) تاج ٢/ ٤٢٦، عفد: انتحر ليتخلّص من ألم الجوع.

وكثير منهم من لم يكن له لباس يستر به عريه، أو كان يستر جسمه بالأسمال البالية، أو بورق الشجر، وأعساف النخل، والجلود . ولم يكن لديه ماء ليغتسل . وقد ذُكر أن الفقراء من الصحابة كانت " تنبعث منهم روائح كريهة من عدم الغسيل . ويلعبُ القمل في شَعرهم، ويتنقّل على أجسامهم حيث يشاء"(٧٥) .

وهناك أيضا من لم يكن له مسكن، فكان ينام في الصحراء، ويتوسّد التراب ، ويلتحف السماء . ويسمّون بـ" بني الغبراء" . والغبراء : التراب(٧٦) ، وبـ" المدقعين"، من الدقع وهي الأرض، والدوقعة الفقر والذل(٧٧) .

ولشدّة الجوع كان أحدهم اذا نال شربة من اللبن المذوق بالماء وخمس تمرات صغار ظنّ نفسه مَلِكاً . قال في ذلك شاعر منهم(٧٨) :

اذا ما أصبْنا كلَّ يوم مُذيقةً ... وخمسَ تُمَيراتٍ صغار كنائز
فنحنُ ملوكُ الأرضِ خُصْبًا ونِعمَةً ... ونحنُ أُسُودُ الغابِ عند الهزاهِزِ

وكمّ تمنّى أكثرهم الموتَ على الجوع والهزال . فقال عروة بن الورد شعرا :

أقيموا بني لبنى صدورَ ركابكم ... فانّ منايا القوم خيرٌ من الهزلِ

وأيضا : أذا المرءُ لم يبعثْ سَواما ولم يرح ... عليه، ولم تعطفْ عليه أقاربُه
فللموت خير للفتى من حياته ... فقيرًا ، ومن مولًى تدبُّ عقاربُه(٧٩) .

والفقر جعلَ الصعلوك يستهين بالموت في سبيل لقمة العيش . فهو لا يدري متى تأتي منيّته، ومن أين تأتيه . اذا نام خاف من غادر يغدر به، واذا

---

(٧٥) عن د. جواد علي ، المفصّل في تاريخ العرب قبل الاسلام ٥/ ٨٠ .
(٧٦) تاج العروس ٣/ ٤٣٧ : غبر . لسان العرب المادة نفسها .
(٧٧) تاج العروس ٥/ ٣٣١ : دقع . لسان العرب المادة نفسها .
(٧٨) ديوان عروة بن الورد ، ص ١٠٦ . وعروة أحد شعراء الصعاليك ورئيسهم .
(٧٩) المرجع نفسه، ص ١٥٠، أنظر الحماسة لابي تمام ١/ ١٦٦ .

سار ليلا لا يعرف من يكون مثله من الصعاليك يسري . واذا ارتاح على غنيمة ظفر بها لا يأمن على نفسه من باحث عن قوت يفتك به . واذا تعقّب دار غنيّ فلا يعلم اذا كان ثمّت صعلوكٌ آخر سبقه ، فيلتقيان ويتقاتلان ، وتبقى الدار في غناها لصاحبها السعيد الحظ .

من هنا جاء حَذَرُ الصعاليك الدائم . فهم لا ينامون الاّ وسلاحُهم الى جنبهم . لا يرقدون من الليل الاّ قليلا . ليلهم قصير . ونومهم قليل . وسهرهم طويل . وسلاحهم جاهز . والقلق دائم . وهم ، لقرب الموت منهم ، لا يبالون به متى يأتي . ولكن لامبالاتهم ناتجة عن يأس وقنوط ، لا عن رغبة أو عدم اكتراث . قال الشنفرى أحدُ شعرائهم :

اذا أتتني منيّتي لم أُبالِها ولم تذر خالاتي الدموعَ وعمّتي[٨٠] .

ومع هذا تبقى الحياة على الصعاليك عزيزة مهما اشتدّ جوعُهم ويأسُهم .

ويزاد أيضا على هذه الصعلكة البائسة ما تحمله لفظة "خليع" من تعاسة . فالخليع هو الذي خلعه أهله وطردوه من بينهم . فان جنى لم يطالَبوا بجنايته . فهم لا يؤخذون بجنايته ، ولا هو يؤخذ بجنايتهم[٨١] . واعلان "الخلع" أمر خطير بالنسبة الى سكّان البادية . فالخليع يخرج من حمى قبيلته ليجد نفسه في موقف صعب ووضع شاذّ . لقد سحبت منه "الجنسيّة القبلية" ، وأصبح فردا منفصلا عن قبيلته ..

وفرص الحياة في الصحراء محدودة . ومن المستحيل أن يعيش الفرد فيها الاّ مرتبطا بجماعة . ولا يرى الخليعُ في هذه الحال أمامه الاّ أحدَ طريقين : امّا أن يلجأ الى قبيلة أخرى يعيش في حماها مولى من مواليها ، وامّا أن يلجأ الى الصحراء ليتّخذ من الغزو والنهب وقطع الطرق وسيلة

---

(٨٠) الاغاني ٢١/ ١٣٩ . انظر الشعراء الصعاليك ، ص ٣٣ .
(٨١) لسان العرب ٨/ ٧٦ـ٧٧ ، تاج العروس ٥/ ٣٢٢ . مادّة : خلع .

للحياة وأسباب الرزق، معتمدا على قوّته الشخصية في فرض نفسه واثبات وجوده في مجتمع قطع كل صلة بينه وبينه"(٨٢) .

******

هؤلاء الصعاليك والخلعاء كانوا، على ما يبدو، كثيري العدد الى درجة أنّهم كانوا يُخيفون الأغنياء ويرمون الرعبَ في مجتمعاتهم . وخافتهم قريش وأخذت منهم الحذر . فقدّمت لهم العونَ والجوار درءا لخطرهم . وهي ان تركتهم وشأنهم قاموا بنهب الأموال وقتل الناس والسطو على القوافل والأملاك . لذلك سعى بعض أعزّة قريش الى انصافهم ومساعدتهم ... فراح الشعراء يمتدحون بني هاشم وقريشا لما أمدّوا به الفقراء والجياع من مساعدة . وكان أشهر من شعر بخطر الجياع والمحرومين هاشم بن عبد مناف الذي دعا الى انصافهم وتقديم العون لهم، فقيل فيه شعرا :

عَمْرو الذي هَشَمَ الثريدَ لقومهِ ورجالُ مكّةَ مُسنتون عجافُ

وقيل في بني قريش:

والخالطون فقيرَهم بغنيّهم حتى يصيرَ فقيرُهم كالكافي .

وورد أنّ حكيم بن حزام كان يقاسم ربحَه من تجارته الفقراءَ وأهلَ الحاجة والمحاويج (٨٣) . وذكر أن قريشا كانوا " يتفحّصون عن حال الفقراء ويسدّون خلّة المحاويج"(٨٤) .

والايلاف الذي تكلّم عليه القرآن (٨٥) هو من هذا القبيل . وهو يقوم

---

(٨٢) الشريف، مكّة والمدينة، ٣٤ . انظر : ابن الاثير ١/ ٣٥٩، ابن هشام ١/ ١٩٩ـ٢٠٢، الروض الانف ١/ ١٢٠ـ١٢١، نهاية الارب ٣/ ٢٧ـ٢٩ ...
(٨٣) الزبير بن بكار، نسب قريش ١/ ٣٦٧، رقم ٦٤٤ .
(٨٤) تفسير النيسابوري، حاشية على تفسير الطبري ٣٠/ ١٦٩ .
(٨٥) القرآن، سورة قريش ١٠٦/ ١ .

على انصاف الفقراء والمساكين . وهو من جملة مآثر هاشم بن عبد مناف الذى صار عمله سنّة لمن جاء بعده . و"أصحاب الايلاف من قريش الذى رفع الله بهم قريشا ونعش فقراءها". (٨٦) . ومن ايلاف قريش "الرفادة" وهي اقراء ضيوف مكّة واطعام المحتاجين من أهلها . ومنه أيضا "السقاية" وهي توفير الماء والنبيذ واللبن والعسل (٨٧) . ومنه أيضا ما جاء في حلف الفضول من دعوة الى "مؤاساة أهل الفاقة ممّن ورد مكّة بفضول أموالهم". (٨٨) .

وفي الشعر مديح واسع للذين أخذوا على عاتقهم الاهتمام بالفقراء :

يَبيتون في المشتى ملاءً بطونهم   وجاراتُهم غرثى يَبتْنَ خمائصا (٨٩) .

وفي قول الخرنق بنت هفّان اشارة الى ذلك وهي ترثي زوجَها وابنها :

والخالطِين نحيتَهم بنضارهم   وذوي الغنى منهم بذي الفقر (٩٠) .

ومثله قول عمرو بن الاطنابة :

والخالطين حليفَهم بصريحهم   والباذلين عطاءَهم للسائل (٩١) .

ومثله أيضا ما جاء في ديوان حسّان بن ثابت :

والخالطين غنيّهم بفقيرهم   والمنعمينَ على الفقيرِ المرسل (٩٢) .

بيد أنّ سخاء تجّار قريش لم يكن بدون مقابل . فالشذّاذ في مكّة كانوا من أكثر المستهلكين لمداخيلها ، اذ كان لهم مال كثير حصّلوه بدون جهد كبير، لذلك كانوا ينفقونه بدون حساب . وكذلك أيضا كانوا خير معاونين لتجّار قريش، فكان هؤلاء يستأجرونهم للمحافظة على قوافلهم ، ولخفارتها في

(٨٦) المحبر لابن حبيب، ص ١٦٢ .
(٨٧) المحبر لابن حبيب ١٧٦ و ١٧٧ .
(٨٨) سيرة ابن هشام ١٤١/١ .
(٨٩) الأمالي للقالي ١٥٨/٢ .
(٩٠) المرجع نفسه .
(٩١) ابن الشجري، الحماسة، ص ٥٦ .
(٩٢) ديوان حسّان بن ثابت ٣٠٨ .

رحلاتهم البعيدة[٩٣] ، لأنّهم كانوا على علم بمسالك الطرقات ، وبمخاطر اللصوص، ومعرفةٍ عمليّةٍ لتجنّبهم أو لمحاربتهم ..

هذه الطبقة من الفقراء والخلعاء كان لها "أثر كبير في سرعة استجابتها للدعوة الاسلاميّة ونجاحها في أطوارها الأولى"[٩٤] . ذاك لأنّ الاسلام جاء، أوّل ما جاء ، بمبادئ وتعاليم عملت على انتشال هؤلاء الأذلّة والمساكين من الوضع السيّء الذى كانوا فيه . و "انّ نظرة الى قائمة القتلى والأسرى في يوم بدر لتعطينا فكرة واضحة عن مقدار مشاركة هؤلاء الموالي (الارقاء الخلعاء) لقريش في الصراع . ونظرة أخرى الى المهاجرين مع النبي الى يثرب نستطيع أن ندرك أنّ هذه الطبقة كانت كبيرة العدد . فقد بلغ عدد المهاجرين الى يثرب بعد بَيعَةِ العَقَبة الكبرى ٨٦ كان منهم من قريش ٤١ ، والباقون من الموالي " والصعاليك والشذّاذ[٩٥] .

وقد كان الذين اتّبعوا النبيّ في هجرته وغزواته يعرفون أنفسَهم بهذه الحالة السيّئة، فقالوا : "يا رسول الله ! انّا أناس فقراء"[٩٦] . وعرفوا أيضا في التاريخ الاسلامي بـ"فقراء المهاجرين"[٩٧] . وذكّرهم النبيّ مرّة وهو يقول لهم : "ألم تكونوا فقراء وأغناكم الله"؟[٩٨] ، أو " وكنتم عالةً فأغناكم الله بي"[٩٩] ؟

(٩٣) الازرقي ، أخبار مكة ٢ ٤٦٢، الواقدى، المغازى ٣٠، الاغاني ١٢/ ٤٩، ١٩/ ٧٦، ٢١/ ٦٢ و ٦٨، ٨/ ٦٨ــ ٧٠ و ٧٢ . انظر لامنس، الاحابيش في مكّة، المشرق ٣٤ سنة ١٩٣٦، ص ٤ــ٥ ...
(٩٤) الشريف ، مكة والمدينة، ص ٣٩ .
(٩٥) المرجع نفسه، ص ٢٢٦و ٢٢٨ .
(٩٦) سنن أبو داود ، باب الديات ٢٥/ ١٠ .
(٩٧) مسند ابن حنبل ٢/ ١٧٧ .
(٩٨) مسند أحمد بن حنبل ٣/ ٥٧ .
(٩٩) صحيح البخارى، باب المغازى ٥٦، صحيح مسلم، باب الزكاة، ١٣٩ ، مسند ابن حنبل ٣/ ٧٦، ٤/ ٤٢و ٥٠ .

وفي رأي المسلمين أنفسهم أن هذه الطبقة التعيسة كانت كبيرة العدد بمكّة، نظرا لأعمال أهل مكّة التجارية الواسعة، وانشغالهم بها، واحتياجهم الى من يقوم على خدمتهم"(١٠٠) . ونظرا الى مجتمع مكّة المدمن على " الشراب والسمر والمنادمة. ومثل هذا المجتمع يحتاج الى أعداد من الغلمان والجواري السود والبيض على السواء للخدمة والتسلية وارضاء الشهوات. وقد بلغ عدد الرقيق في مكّة حدّا كبيرا .. ولعلّ ممّا يدلّ على كثرتهم المفرطة أنّ هندا بنت عبد المطلب أعتقت في يوم واحد أربعين عبدا من عبيدها، كما أعتق سعيد بن العاص مائة عبد اشتراهم فأعتقهم جميعا"(١٠١) .

وعند بعض الباحثين المستشرقين، كلامنس وكيتاني وبندلي جوزى، كان يبلغ عدد الفقراء العاملين في مكّة وفي تجارة قريش عشرات الألوف ... والأحابيش منهم كان لهم نظام اجتماعي وعسكرى خاصّ .. الى درجة أنّهم كانوا يتحكّمون، بالنظر الى الخدمات التي يقومون بها، بأوضاع مكّة .. واستطاع الرسول، في حربه ضدّ أثرياء مكّة، أن يستميلهم اليه، وأن يتعاطف معهم، ومع بلادهم ورئيسهم النجاشي، الذى، رغم هجوم عساكره على مكّة بقيادة أبرهة في عام الفيل سنة (٥٧٠م؟) استضاف المهاجرين الأوّلين من أتباع محمّد(١٠٢) .

---

(١٠٠) الشريف، مكة والمدينة، ص ٢٢٨ .
(١٠١) المحاسن والأضداد، ص ٧٧، المبرد، الكامل ٢/ ٩٦، شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ٥١، عن الشريف، مكة والمدينة، ص ٢٢٩ .
(١٠٢) أنظر لامنس، المشرق ٣٤، وكيتاني، الحوليات الاسلامية، وبندلي جوزى، الحركات الفكرية في الاسلام ..

رابعاً : ثورة المحرومين

هكذا كان مجتمع مكّة في أواخر القرن السادس للميلاد : أعزّة وأذلّة، فقر مدقع وغنى مفرط ، طبقة ثريّة وطبقة معدَمة، مترَفون ومستضعَفون .. لا حدّ وسط بين الفئتين . وهو أمر طبيعي في مجتمع يعتمد في رزقه على التجارة، وعلى التجارة وحدها ، مع ما فيها من مضاربة، وغش ودهاء، واحتيال ومراوغة، واحتكار وخداع ، ومكر وتلاعب بالمكاييل والموازين ..

وكثرة الغنى في طبقةٍ أدّت الى كثرة الفقر في أخرى . وكلّما كثر المال في جماعة، قلّ عدد الأغنياء، وزاد عدد الفقراء وأصحاب الفاقة، فاستأثرت قلّة من الناس بالمال والرزق والثروة، وأصبح الفقراء يأكل بعضهم بعضا ويعملون لمصلحة أسيادهم على حساب بعضهم البعض.. ولا بدّ أن تكون هذه القلّة من الأثرياء على ذكاء وفطنة، فاستطاعوا أن يتملّكوا الفقراء كعبيد وأرقاء وموال ، كما تملّكوا المال والرزق والثروة . واستطاعوا أيضا أن يفتحوا أبواب بيوتهم للجياع والمساكين، ويساعدوهم على نحو ما أشار اليه الشاعر الخزاعي في قوله :

هَبَلَتْكَ أمُّكَ! لو حللتَ بدارهم ضمنوكَ من جوعٍ ومن إقراف...
والخالطين غنيَّهم بفقيرهِم حتى يصيرَ فقيرُهم كالكافي (١٠٣) .

الاّ أنّ سدَّ رمقِ الجياع ، ومساعدةَ الفقراء والمساكين ، والنداءات المتكرّرة الى ذلك .. لم تقض على الفقر والجوع ، ولم تخفّف من وطأة البؤس والحرمان ، ولم تغمض أعين المعدمين عن استئثار المترفين ونهمهم . انّ أصوات الجياع

---

(١٠٣) أنظر تاريخ اليعقوبي ١/ ٢١٤، تفسير القرطبي ٢٠/ ٢٠٥، الطبرسي مجمع البيان ١٠/ ٥٤٦، انساب ١/ ٥٨ ...

كانت أقوى من المساعدات الضئيلة، وأعلى من نداء الاستغاثة، وأدوى من كل حسنة .. وكان الفقر تتّسع رقعته كلّما انحسرت الأرزاقُ بأيدى حفنة من الناس.. وهو أيضا أمر طبيعي في مجتمع بدائيّ تسوده الأثرة والأنانيّة والفرديّة والمصلحة الخاصّة ...

في هذا الجوّ البائس، راح التعساء يتململون، ويتجمّعون، ويتعصّبون. وراحوا ينتفضون لكرامتهم الانسانيّة المتبقّية عندهم، بعد اذلالهم المتواصل. وحتى الشفقة عليهم كانت تحزّ في نفوسهم، وتحطّم عنفوانهم القليل الباقي... وبات الكلّ، من أحابيش وأعراب وأعاجم وأجانب وطرداء وصعاليك وجياع ومحرومين ويتامى ومساكين .. يتحيّن تلك الفرصة التي تسمح لهم بالانتفاضة واعلان الثورة.

وعندما يحين الوقت لذلك، وينتفض الفقير لفقره، وينتقم الجائع لجوعه، ستكون نقمة عارمة، وثورة جارفة، وحرب ضروس. وسينقلب المجتمع بأمّه وأبيه رأسا على عقب، لا محالة.. وان لم تنجح الثورة، فلا يخسر الثائرون شيئا، وهم الخاسرون كيفما تصرّفوا .. ولكنّ نتيجةً ما ستكون لا محالة. والنجاح رهن بقائد متجرّد يتزعّم الثورة.

انّ المحرومين من خيرات هذا العالم، بسبب جشع الجشعين، هم أشدّ فتكا في الأرض من الوباء السارى. والدليل على ذلك اجتياح الحركات الاجتماعيّة معظم أنحاء العالم. وتسمّى، بلغة هذا العصر، حركات اشتراكيّة، أو شيوعيّة، أو بروليتاريّة، أو يساريّة، أو تقدّمية، أو عمّالية، أو حركة محرومين .. وقد يتّخذها معتنقوها بمنزلة دين سماويٍ منزَل، فيجاهدون في سبيلها جهادا مستميتا، ولو أدّى بهم جهادُهم الى سفك الدماء، والقضاء على معالم الحضارة، ونحر أنفسهم ...

أليوم كما بالأمس، حروب العالم هي حروب فقراء ومحرومين ضدّ أغنياء

مترفين . ولئن تعدّدت الأسباب فانّ السببَ الرئيسَ منها هو ضرب جشع الأثرياء المستبدّين . ولئن اختلفت المظاهر فانّ بواطن الحروب والثورات تكمن في بطون الجياع . ولئن كان لله في الحرب أصبع فانّه قد يكون له ذلك لدعم الفقير في حجّته وفي ثورته . وقد يستفيد رجال يتكلّمون باسم الله لاعلان تعاليم سماوية، ولكنّ هذه الاستفادة تكون نتيجةً لا سببا، وتأتي بعد شبع الجياع وضرب الميسورين . انّما البادئون هم البؤساء والفقراء . والذين يبادرون الى الثورة وساحات القتال هم هؤلاء .

هذه المبادرة كانت في الدعوة الاسلاميّة منذ نشأتها، وربّما لم يكن غيرُها . لقد كان بدء الدعوة الاسلاميّة بسبب حرمان طبقة هائلة من سكّان مكّة حيث اشتعلت . والنبيّ محمّد كان من هذه الطبقة : كان محروما من المال والرزق اللذين كان يتمتّع بهما أقرباؤه الأدنون . وكان عائلا، ويتيما، وضالّا، على ما أشار اليه القرآن في قوله عليه : "ألم يَجِدْكَ يتيمًا فآوى . ووَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى . وَوَجَدَكَ عائِلًا فأَغْنَى".(١٠٤)

ومنذ الصغر، كان محمّد يجهد ويجاهد في تحصيل قوته اليومي بعرق جبينه . فكان تارة يرعى الغنم، وهو دون السادسة من عمره، وطورا يسافر مع القوافل التجاريّة، كخفير وأجير، يتحمّل الحرّ والأعباء، وهو دون الثالثة عشرة . وكثيرا ما كان يبيتُ الليالي ضامرا يكاد يفنى جوعا وضنكا، وفي معظم حياته كان باحثا عن لقمة العيش في العسر والجهد .

والذين ناصروه وآزروه لم يكونوا أحسن حالا منه . فهم "أذلّة" مكّة، و"أراذلها"، اتّبعوه في جهاده لاجل الظفر بـ"مغانم كثيرة".(١٠٥) . وراحوا

---

(١٠٤) القرآن، ٩٣/ ٦ـ٨ .
(١٠٥) القرآن ٤٨/ ١٩، ٢٠: "وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها".

معه يقطعون طرق التجارة على قوافل قريش، ويشنّون الغارات على يهود يثرب، ويغزون القبائل يريدون العير والبضائع والمغانم. فقضوا بذلك على سبل عيش الأغنياء ومالهم.. لقد كان الصراع بين محمّد وأنصاره من جهة، وقريش وقبائل البدو من جهة ثانية، كبيرا وعميقا وقديما.. وكان على محمّد القائد أن يحسمه قبل استشرائه.

في هذا المناخ من الصراع الطبقي نشأت الدعوة المحمّدية واضطرمت. وكان محمّد، وهو الفقير اليتيم، يدعو الفقراء واليتامى الى انتفاضة جارفة حتى النصر المبين. فجمعهم حوله، ودرّبهم على حمل السلاح، وعلّمهم أنّ اللـــه انّما يريد المساواة والعدالة بين البشر، وانّه يسوّي بين السيّد والعبد، وانّ الرزق كلّه من الله والى الله، وانّ الظلم المتفشّي في طبقة "الملأ الأعــلى" يجب أن يزول، وأن يزول معه الظالمون.

ولا عجب في ذلك، فانّ الفقر يولّد الحرمان، والحرمان يولّد النقمـــة، والنقمة تنجبُ الثورة. وأسباب الثورة لم تكن تحصى في ذلك الحين. فسكّان مكّة يأكل غنيّهم فقيرَهم، وقويُّهم ضعيفَهم. ومحمّد ينظر، ويسمع، ويتحسّس، ويتألم لآلام الناس وجوعهم. ولم تكن أسباب النقمة عنده أقلّ ممّا هي عند سواه: فهو، رغم أنّه من قريش التجّار، كان فقيرا معوزا، لا يملك من حطام الدنيا شيئا. وأعمامه تجّار أثرياء، ولم يهتمّ به الاّ عمّه أبو طالب أكثرهم عيالا وأقلّهم مـالا. وقد دعاه عمّه هذا يوما قائلا: "يا ابنَ أخي! أنا رجلٌ لا مالَ لي. وليس ما يمدّنا وما يقوّمنا، ولا تجارة"(١٠٦). وحثّه، من ثمّ، على الالتحاق بقوافـــل خديجة.

(١٠٦) انظر: طبقات ابن سعد ١/ ١١٩ و ١٥٦ و ١٦٨، السيرة الحلبيّـة ١/ ١٤٧، السيرة المكّية ١/ ١١٨ وغيرها...

وكمّ مرّة جمع محمّد أصحابه التعساء "الأذلّة" يعلّمهم قائلا : "أغــزوا تستغنوا"(١٠٧) ، ويقول : "انّ الرجل يقاتل ليغنم ، ويقاتل يغنم"(١٠٨) . وكم طلب منهم أن يصلّوا الى الله معا : "ادعُ اللهَ أن يفتحَها علينا ويُغنِمنا ديارَهم"(١٠٩) . وكان يختصر مهمّته بقوله : لقد "غزونا فسلمنا وغنمنا"(١١٠) . والمحروم الجائع ربّما تكون ثورته لأجل المغانم عديلَ الجهاد في سبيل الله . وقد حدّثنا محمّد عن ذلك بقوله، وهو يمدح أحد صحابته انّه "كان كالمجاهِد في سبيل الله، رجعَ غانِما"(١١١) .. هذه "المغانم" التي شرّعها الرســول، هي نتيجة حتميّة للثورة . والثورة نتيجة حتميّة للجوع والحرمان .

ولا بدّ لها من أن تكون . لكنّها بانتظار القائد .

---

(١٠٧) مسند ابن حنبل ٢/ ٣٨٠ .
(١٠٨) مسند أحمد بن حنبل ١/ ٤١٦، سنن أبو داود، باب الجهــاد ، ٢٤، سنن النسائي، باب الجهاد، ٢١ .
(١٠٩) سنن النسائي، باب الجهاد ٤٢ .
(١١٠) مسند أحمد بن حنبل، ٤/ ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٥، ٢٥٨ . وشهادت أخرى كثيرة في كتب الاحاديث الستّة وفي الصحيحين . انظرها في مكانها .
(١١١) الموطأ، باب السفر، ٥٣ .

خاتمة الفصل الرابع

في أواخر القرن السادس للميلاد ، كان في مكّة أغنياء وفقراء . وكان بينهما صراع . كانت الحياة فيها تتجاذب بين الفقر والغنى . وكان المجتمع متصدّعا . لمّا جاء محمّد ، كان الغنى ينحصر في أيد قليلة، وكان الفقر تتّسع رقعته . وكان جوع المحرومين يضمر شرًّا . والصراع ينتظر اضطراما . والمجتمع يترقّب ثورة . والثورة رهن بوجود قائد . والقائد وجوده قليل . بل وجوده رهن بشدّة البؤس . وكلّما عظم البؤس، قوي الصراع، وكثرت المفاسد ، وذرّت الثورة قرنها .

واذا ما وُجِدَ القائد ، وكان شعورًا حسّاسًا ، متفاعلًا مع الاحداث ، وغيورًا على المصلحة العامة، ومتجرّدًا عن أنانيّته ، وواعيًا لخطورة دوره ، ومتبصّرًا لمجريات الأمور، ورائيًا لما سيكون، وعالِمًا بالمستقبلات ، وفطنًا في استمالة الناس اليه، وعارفًا بمواطن الضعف والقوّة، وحذِرًا من دهاء التجّار والملاعين ، ومميّزًا لأصحابه من الأعداء ، وجسورًا على اظهار الشرّ، ومقدامًا على فعل الخير، ومبشّرًا بتحسين أوضاع البائسين ... ستكون الثورة لا محالة . وستدقّ ساعة الحسم .

وهناك أيضا شرط جوهري لمعرفة مَن يكون القائد في مثل هذه الأحوال . وبه يكون هذا القائد خطيرا . وهو أن يكون ممّن انفصمتْ شخصيّته بصراع داخلي حادّ ، وحوى في نفسه صراعَ المجتمع ، وتجاذبه الفقرُ والغنى على السواء ، ويكون من نسب شريف ، ومن عائلة كريمة، ويقدر على جمع الثروة ان أراد ، ويزهد بها ساعة يشاء . وان حصل عليها يكون متجرّدا عنها ، ويكون سخيّ الكفّ في العطاء ، مهتمّا بمناصريه اهتمامَه بنفسه وأزود .

فكان محمّد ايّاه ذاك الرجل الذى حوى في نفسه صراع مجتمع مكّة · فهو ينتمي ، من جهة نسبه، الى أعزّة قريش وأغنيائها ، ومن جهة وضعه وسوء حاله، الى أذلّة مكّة وفقرائها · وهو يمثّل في شخصه تناقض مكّة بين الفقر والغنى : لقد قضى صباه فقيرا يتيما ، ثم أصبح ، بزواجه من خديجة، أحد الأثرياء الميسورين ·· فمع أية فئة يكون؟ والى أيّة جهة يميل؟ أيكون مع الفقراء وقد كان واحدا منهم! أم يكون مع الأغنياء وقد أصبح مثلهم!

يبدو أنّ صراع مجتمع مكّة انتقل بعنفه الى شخصية محمّد · فهو الفقير والغنيّ معا · وهو القائل : "أعوذ بك من شرّ فتنة الفقر"(١١٢) وأيضا : "أعوذ بك من شرّ فتنة الغنى"(١١٣) · وهو الذى عاش البؤس والحرمان، ثم تمتّع بما لزوجته من مال وثروة وأرزاق · وهو الذى عرف المساكين واليتامى ، ثم عرف كيف يكون النعيم في بيت خديجة · لكأنّ محمّد هو مكّة، ومكّة هي محمّد ، بما في الاثنين من تناقض وصراع وانفصام ·

هذا ولم يكن ، في مجتمع مكّة، في ذلك الحين ، مَن يكون في مثل وضع محمّد : فهو الفقير والغنيّ معا ، وهو ربيب عبد المطلب زعيم قريش ، وهو أيضا "عالة" على عمّه أبي طالب القليل المال والكثير العيال ، وهو يتيم الوالدين والمحروم من حنان الأخ والأخت، وهو أيضا زوج خديجة صاحبة المال والجمال والتجارة الواسعة ، وهو "الضالّ"(١١٤) بلا عضد أو سند ، وهو أيضا تلميذ القسّ ورقة بن نوفل رئيس نصارى مكّة وعالم بالكتاب وأهله(١١٥) ، وهو جار بيت الله الحرام ، وهو أيضا رفيق التائهين في دروب الصحراء ···

---

(١١٢) مسند أحمد بن حنبل ٦/٥٧، ٢٠٧ ·
(١١٣) صحيح البخارى، باب الدعوات ٣٩، ٤٤ ، صحيح مسلم ، باب الذكر ٤٩ ، أبو داوود باب الوتر ٣٢ ، الترمذى، باب الدعوات ٧٦ ·· الخ ·
(١١٤) اشارة الى كلام القرآن : "ووجدك ضالاّ فهدى"(٩٣/ ٦ـ٨) ·
(١١٥) أنظر كتاب "قس ونبي" فصل في هويّة القس ورقة ·

سيرةُ محمّد ستُظهرُ لنا شخصيَته ورسالتَه ومدى نجاحِه في مهمّته هذه . والخوف من الفشل الذريع سيكون كالخوف من النجاح الكبير. اذا فشل ــ لا سمح الله ــ سيشتدّ البؤس والجوع على الفقراء أكثر ممّا كان عليه . واذا نجح كثيرا في مجتمع بدائي سيجرّه نجاحه الى اعتبار نفسه مصلحا عالميا في مستوى الكون . ويخشى أن يسحبه نجاحه الى النطق باسم الله والتنبؤ بالمستقبلات . واذا ما دخل الغرورُ نفسَه سيعتبر نفسَه نبيّا مرسلا ، ورجلا معصوما .

في كلِ نجاحٍ يحقّقه انسانٌ يَربُضُ فَشَلٌ ، يأتيه من شرّ الكبرياء . والادّعاء شرُّ كل نجاح . وان لم يكن بينَ الأتباع والأصحاب رادِعًا يردعه ، فان محمّدا سيصل الى هذه الحالة لا محالة . ويبدو أن قوّةَ شخصيته دفعتْ عنه كل رادع . وحاجةُ المجتمع اليه رفعتْ من منزلتهِ كثيرًا . وضعفُ رفاقه ميّز مقامَه . فلننظر في كل ذلك .

الفصل الخامس

وضع محمد الاجتماعي

أولا : اليتيم الضال
ثانياً : تربية محمد الإبيونية
ثالثاً : نقمة في عمق النبي
رابعاً : القرار الخطير
خامساً: ثورة حتى النصر

خاتمة الفصل الخامس

أولا : اليَتيـم الضّـال

ولد محمّد في مكّة، ونشأ وتربّى وتدرّب على الحياة في مجتمعها. وكان يخالط الناس في جميع طبقاتهم، ويشاهد، ويسجّل، منذ صغره، ما كان يراه أمام عينيه من صراع. وكان ينفعل للظلم يلحق بفئة كبيرة من البشر. وكان هو منهم في كل حال. فهو ينتمي الى مكّة الفقيرة، والى طبيعتها القاحلة. كما ينتمب الى والدين فقيرين، على الرغم من أنّهما من "قريش التجّار".

مات والد محمّد والولدُ جنين. ثم ماتت أمّه وهو طفلٌ دون الثالثة. ولم يترك له الاثنان شيئا للحياة: لا أخ ولا أخت. لا ابل ولا مال. لا أرضون للزرع ولا ثروة للمتاجرة.. هذا الحرمان الأكبر رقّم حياة الولد في الصميم. واذا ما أعطي له أن ينمو ويكبر، فلا بدّ من أن ينمو الحرمان معه ويكبر. ولا بدّ أيضا من أن يسفر الحرمان عن شيء. والله أعلم عمّا سيسفر!

والمفروض ألاّ يسفر عن أمر وسط. فَمِثْلُه إمّا تحطّمُه الحياةُ فلا يعود لـه شأن يذكر، وامّا يَقلُب المجتمع فلا يعود المجتمعُ يُعرَفُ الاّ بالنسبة اليه. ألمهمّ في مثل هذه الحال أن يَحظى الولد بمربّين ومدرّبين قادرين، وأن تنفعل نفسيّته بما حرم منه، وأن تُعطى له فرصُ النجاح إنْ قَصَدَ أمراً. والظاهر أنّ الأجواء كانت مهيّأة للقيام بالمقصود.

الاّ أنّ أعظمَ الحرمان عنده كان في شعوره بـ"العزلة" و"فقدان" العضد والسند، وشعوره بالحاجة لعاطفة ما. فلا أب يعضده، ولا أم تحضنه، ولا أخ يسنده، ولا أخت تحنّ عليه. ثمّ لا شيء ممّا تقوم به حياته. فاسْتَلَمُهُ جَـدُّه، وكلّفه برعاية الغنم في شعاب مكّة، وهو دون السادسة. ولمّا توفّي جَدُّه، كَفَلَـه

عمّه أبو طالب ، أكثرُ الأعمام فقرًا وأكبرُهم عيالا .

وزاد في تعاسته أمراضٌ كثيرة أصابته في كل جسمه : من رَمَدٍ في عَينيه ، الى نوباتٍ عصبيّة، الى رعاشٍ يصيبه ولا يسكن عنه، الى أمراض، لا نعلم طبيعتها ، كان بعض الرهبان يعالجه منها ، والى أمراض أخرى، كان يرقى منها عند بعض السحرة والكهان ، ثمّ الى نوباتٍ وارهاصات وارتعاشات كان يشعر بشدّتها عليه، حتى بعد بدء دعوته ..

ويضاف الى ما أصاب جسْمه ما تعرّضت اليه حياتُه من متاعب ومصائب : فتارة كان يرعى الغنم ليحصل على لقمة العيش، وهو صغير السنّ طريّ العود ، وطورا يُنصَحَ بالسفر وراء القوافل التجارية العابرة الصحراء من مكّة الى الشام ، ومن الشام الى مكّة . وكان له من العمر، في رحلته الأولى ، تسع سنين لا غير.. واستمرّ الولد يتحمّل الأعباء حتى الخامسة والعشرين، ذاق فيها الأمرّين .

وحتى بعد أن تغيّرت أحواله، وأغنته خديجة من مالها وتجارتها ، استمرّ على الجُهد والجوع والفاقة التي اعتادها منذ صباه . عن ابن عبّاس قال : "انّ النبيّ كان يبيت الليالي المتتابعة طاويا ، وأهلُه (أولاده) لا يجدون عشاء . وكان عامّة خبزهم الشعير"(١) . وعن فاطمة ابنته، لمّا جاءت أباها بكِسْرةِ خبز قال لها : "ما هذه الكسرة يا فاطمة ؟ قالت : قرصُ خبزتُه فلم تطبْ نفسي حتى آتيتُكَ بهذه الكسرة . فقال : "أَمَا أنّه أوّلُ طعامٍ دخَلَ فمَ أبيكِ منذ ثلاثة أيّام"(٢) . وعن أبي هريرة : "ان رسول الله كان يشدّ صُلْبَه بالحجر من الغَرْث". وعن عائشة قالت : "انّ رسول الله كانت تأتي عليه أربعة أشهر ما يشبع من خبز برّ"(٣) . وكان النبيّ يصلّي : "اللهمّ انّي أعوذ بك من الجوع ، فانّه

---

(١) طبقات ابن سعد ، ١/ ٤٠٠ و ٤٠٢ .
(٢) المرجع نفسه ، ١/ ٤٠٠ .
(٣) المرجع نفسه ، ١/ ٤٠٩ .

بئس الضجيع"(٤) .

وفي رواية عن النبيّ أيّام شبابه تقول : ان الرسول لمّا أَمَرَ بأن يُستَطْلَعَ خبرُ القتلى من قريش يومَ بَدْر، وأن تُلْتَمَس جثّة أبي جهل في القتلى ، قال لهم : "أنظروا، ان خفي عليكم في القتلى ، الى أثر جرحٍ في ركبته، فانّي ازدحمتُ يومًا ، أنا وهو، على مائدةٍ لعبدالله بن جدعان، ونحن غلامان . وكنت أشفَّ منه بيسير، فدفعتُه، فوقعَ على ركبتيه، فخُدِشَتْ ساقُه وانهشمتْ ركبتُه . فأَثرُها باقٍ في ركبتِهِ . فوجدوه كذلك"(٥) .

وكم شهد محمّد ، فيما بعد ، على حياته التعيسة التي عاشها في طفولته . فقد قال يوما لرجل ارتعد أمامه : "هوّنْ عليك . فانّي لستُ بمَلِك . انّما أنا ابنُ امرأة من قريش كانت تأكلُ القديد"(٦) . وقال عن رعايته الغنم : "وأنا رعيتُها لأهل مكّة بالقراريط"، أي بأجزاء من الدراهم يُشترى بها الحوائج الحقيرة(٧) . وقال عن الاهتمام باليتامى ، وهو يتذكّر يتمه : "ارحموا اليتامى ، وأكرموا الغرباء . فانّي كنتُ في الصِغَر يتيمًا ، وفي الكِبَر غريبًا"(٨) .

والقرآن نفسه لم يتورّع عن ذكر اليتيم الضالّ ، قال : "ألم يجدْكَ يتيما فآوى . ووجدك ضالاّ فهدى . ووجدك عائلا فأغنى"(٩) . ولا يزال يذكّره بأيّام فقره وتعاسته، بعد أن شبّ وكثر مالُه، فيقول : "ألم نشرَحْ لك صدرك(١٠) ، ووضعْنا عنك وِزرَك، الذي أنْقَضَ ظَهْرَك، ورفعْنا لكَ ذكرَك . إنّ معَ العُسْرِ

---

(٤) طبقات ابن سعد ، ١/ ٤٠٩ .
(٥) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٢٨، البداية والنهاية لابن كثير ٢/ ٢١٧ .
(٦) طبقات ابن سعد ، ١/ ٢٣ .
(٧) السيرة الحلبية، ١/ ٢٠٥، طبقات ابن سعد ، ١/ ١٢٥ .
(٨) السيرة الحلبية، ١/ ٨٢ .
(٩) القرآن، ٩٣/ ٦ـ٨ .
(١٠) يفهم المسلمون بشرح الصدر معجزة أحدثها الملاك في شقّ صدر محمّد .

يسرا . انّ مع العسر يسرا"(١١) .

******

نختصر : ان انقسامَ مجتمع مكّة الى أعزّة وأذلّة، وانقسامَ قريش الى بطاح وظواهر، ويُتْمَ محمّد من الأب والأم، وحرمانَه من حنان الأخ والأخت، وافتقارَه من كل ما تقوم به الحياة من مال ورزق، وتبرّمَ أعمامه الأغنياء منه، واهتمامَ عمّه أبي طالب به وهو مثله في الفقر والعوز، ورعايتَه الغنم لأهل مكّة، وسفرَه المرهق في خفارة القوافل، وشعورَه الدائم بالجوع والحرمان، وأمراضَه العصبيّة التي انتابته منذ طفولته، وشكاوى التعساء أمثاله وهم كثيرو العدد، وانفعالَه العصبيّ لهذه الشكاوى المؤلمة .. ثلاثة عشر عاملا من عوامل النقمة والثورة . ويضاف اليها ما تعلّمه وتربّى عليه من عوامل "الرحمة" ومحبّة الفقراء .

(١١) القرآن ٩٤/ ١-٦ .

ثانيًا : تربية محمّد الإبيونيّة

لن نتناول في البحث جميع نواحي حياة محمّد · يهمّنا منها فقط تربيته، منذ صغره حتى زواجه من خديجة · وتقوم هذه التربيّة على ما تعلّمه وشاهده وانفعل له في بيت جدّه عبد المطلب ، وفي كفالة عمّه أبي طالب ، وفي البيئة التي عاش فيها ، وتأثّر بها ، وفي المناخ الديني الذى وجّه قناعاته، وتدرّب على تعاليمه وعقائده وعاداته ... طبعا انّنا لا نعرف مدرسةً للعلم دخلها محمّد ، ولا أسماءَ الاساتذة الذين أعطوه المعرفة · ولكنّنا نعرف "مدرسة الحياة" التي علّمته ودرّبته وربّته ووجّهته، وانفعلت شخصيته بها ·

من مدرسة والدَيه لم يتعلّم شيئا ، لانّه فقدهما طفلا · ولكن ما تركا له من يتم وفقر وحرمان فحدّث ولا حرج : حرمان من حنان الأم وعناية الأب وعطف الأخت وعضد الأخ · وحرمان من المال والرزق ·· ولكن، ما ان فتح الصبيّ عينيه حتى وقعتا على خادمة أمينة كانت تُساعدُ أمّه في تحصيلِ رزقها ، واسمها "بركة" الحبشية، وكنيتها "أم أيمن"، وسيكون لها في ذاكرته مكان · ثم خادمة حبشيّة ثانية اسمها "أم حبيبة" ، وكنيتها "أم يوسف" · وكان له أيضا ، بحسب عوائد قريش، مرضعة من بني سعد اسمها "حليمة السعدية"، هذه تكفّلت برضاعته فشفقت عليه رحمة بيتمه وتعاسته ·

أمّا من مدرسة جَدّه عبد المطّلب حيث قضى الصبيُّ ستّ سنين، من عمر السنتين حتى الثمانية، فقد اكتسب أمورا عديدة، وانطبعت في نفسه صور جليلة ستوجّه حياته في المستقبل وتكبر معه وتنمي كلّما كبر في السنّ ونمى · وكان الجَدُّ السندَ الوحيدَ للصبيّ ، فلا بدّ أن يطبعه بطابعه، ويعلّمه من

مدرسته . وكان الصبيّ يأخذ الجدّ مثالا له، يقلّده، ويجالس أصحابه وندماءه . هؤلاء كانوا ذا مكانة في الجزيرة آنذاك، وكثيرا ما كانوا يلجأون الى الكعبة والى دار جدّه المحاذية لها . وكثيرا ما كانوا يتكلّمون على المظالم الحاصلة في مجتمع مكة . ومحمّد كان هناك . يسمع ويشاهد ويسجّل .

وصفات عبد المطّلب لم تكن ليستحى منها في قريش. فهو ذو مناقب أهلته لأن يكون زعيم مكّة في ايّامه . وقد اشتهر أكثر ما اشتهر بالكرم والجود والعدالة وانصاف المحرومين . فلُقِّبَ بـ" شَيْبَةَ الحَمد "، لكثرة حمدِ الناس له ، لأنّه "كان مُفْزِعَ قريش في النوائب وملجأهم في الأمور" . وكان يقال له "الفيّاض" لجُودِه، و"مطعِمُ طير السماء" لانّه كان يَرفعُ من مائدتِهِ للطير والوحوش في رؤوس الجبال" . وكان يأمر أولادَه بترك الظلم والبغي" ويحثّهم على مكارم الأخلاق، وينهاهم عن دنيئات الأمور . وقد كان آمَنَ بأنّ وراءَ هذه الدار دارًا يُجزَى فيها المحسِن باحسانِه، ويعاقَب المسيءُ باساءته"(١٢) .

ومن مناقبه أيضا انّه "رفضَ عبادةَ الأصنام، ووحّد الله، ووفّى بالنذر ، وسنَّ سننًا نزلَ القرآن بأكثرها ، وجاءتِ السنّة من رسول الله بها . وهي : الوفاء بالنذر، ومائة من الابل في الدّية، وألاّ تنكح ذات محرم، ولا تؤتى البيوت من ظهورها ، وقطع يد السارق، والنهي عن قتل المؤودة، والمباهلة، وتحريم الخمر، وتحريم الزنا ، والحدّ عليه، والقرعة، وألاّ يطوف أحد بالبيت عريانا، واضافة الضيف ، وألاّ ينفقوا اذا حجّوا الاّ من طيّب أموالهم ، وتعظيم الأشهر الحرم، ونفي ذوات الرايات.. حتى كانت قريش تقول : عبد المطّلب ابراهيم الثاني"(١٣) .

(١٢) أنظر : الحلبية ١/ ٤، المكية ١/ ٧٥، ابن هشام ١/ ٤٣، الازرقي ١/ ١٤٤، طبقات ١/ ٨٣، ابن كثير البداية ٢/ ٢٥٢، بلوغ الارب ١/ ٣٢٤ ، ابن حزم، حوامع السير ٢/ ٢، ثمار القلوب ٩٧، الطبرى ٢/ ٢٤٧ وغيرها ...
(١٣) تاريخ اليعقوبي ٢/ ١٠ــ١١ .

وعرف عن عبد المطّلب أيضا أنّه "أوّل مـن تحنّث في حراء. كـان اذا دخل شهر رمضان صعد حراء، وأطعم المساكين. ثمّ تبعه على ذلك من كان يتعبّد، كورقة بن نوفل وأبي أميّة بن المغيرة"(١٤) . وكثيرا ما كان له ندماء أصحاب من الرهبان والأحبار وأسياد القوم، وكانوا يأمّونه الى بيته، ويأتونه زائرين، ويجالسونه، ويتبادلون معه الأحاديث ، ويتشاورون في كيفيّة رفـع المظالم عن الفقراء، ويعملون على اعالة المساكين، والاهتمام بالمحرومين الذين يؤلّفون عددا كبيرا من سكّان مكّة ويهدّدون، اذا ما جاعوا، تجارة قريش.

في هذا المناخ الرفيع في بيت عبد المطّلب تربّى محمّد، وتدرّب. ومنه أخذ مواضيع تأمّلاته عندما سيختلي يوما بربّه في غار حراء. وربّما تكون سـيرة عبد المطّلب، لكثرة اعتنائه بالفقراء والمساكين، كسيرة أولئك "الإبيونيـين" النصارى الذين عرف عنهم، طبقا لاسمهم العبراني، عنايتهم بـ "الفقراء". وربّما انتمى عبد المطّلب اليهم. ويُرجِّحُ انتماءَه هذا مناقبُه التي رأينا، ومنادمتُـه للقس ورقة بن نوفل الذي كان ينقل انجيلهم العبراني الى العربيّة(١٥) . ولا يستبعَد أن يكونَ الصبيّ الناشئ تأثّر بهذه الحركة "الإبيونيّة"، وأخذ تعاليمه عنها، وتبنّاها في قرآنه، وعمل جهدَه في تطبيقها .

******

بعد موت عبد المطّلب انتقل الولد الى كفالة عمّه أبي طالب. ولم يكن أبو طالب، على فقره(١٦) ، أقلّ محبّة للفقراء والمساكين من أبيه عبد المطّلب. وقد نقلت عنه كتبُ السِير والأخبار أنّه كان "كأبيه عبد المطّلب"(١٧) . وقد جاء

(١٤) السيرة المكّية ١/ ١٧٨، ابن الاثير ٢/ ١٥ .
(١٥) انظر كتاب قس ونبي في ابيونية القس ورقة .
(١٦) جاء في الطبقات : "وكـان ابو طالب لا مال له" (١/ ١١٩) .
(١٧) السيرة المكّيـة ١/ ٩١، السيرة الحلبية ١/ ١٢٥ .

في وصيّته الأخيرة قوله لبنيه، وهو على فراش الموت : "أجيبوا الداعي ، وأعطوا السائل . فانّ فيهما شرفَ الحياة والممات"(١٨) . وربّما تعرّف اليه الناس من صفته الابيونيّة هذه، فـ"أخبرنا خالد بن خدّاش قال : توجّه الى الشام فنزل منزله، فأتاه فيه راهب فقال : انّ فيكم رجلا صالحا . فقال : انّ فينا مَن يُقري الضيف ، ويفكّ الأسير، ويفعل المعروف"(١٩) . وكان أبو طالب ينشد :

ونُطعمُ حتى يأكلَ الطيرُ فضلَنا اذا جُعلتْ أيدي المفيضين تُرْعَدُ(٢٠).

وكان محمّد في بيت أبي طالب يتمتّع بعطف وعناية تامّين . وقد أفاده فقر عمّه بأن راح يتّكل على نفسه بنفسه، ويعمل، منذ صغره، على تحصيل عيشه . فسافر الى الشام، في خفارة القوافل، وكان كأحد الأحابيش أو الأرقاء الذين يعملون بأجرتهم الزهيدة . كما كان يسمع شكاوى المأجورين أمثاله، ويتململ من سوء حالته، ويسجّل ما يسمعه ويشاهده .. هذه الأسفار وما رافقها من أمور واختبار أفادت محمّدا ، ودرّبته على الحياة، وشدّدت عضله، وعركته بصعوباتها ، ونفثت فيه روحا حماسيا ثوريّا لأن يأخذ منها موقفا ما .

******

ويضاف الى ما تعلّمه محمّد في بيت جدّه وعمّه من تعاليم "ابيونيّة" ما رآه واختبره وتعلّمه في مجتمعه . ولا بدّ من أن يكون تعرّف على أصدقاء جدّه وعمّه وندمائهما . وقد ذكرت عنهم كتب الاخبار الكثير الكثير عن مآثرهم الرحيمة . فعبدالله بن جدعان التيمي ، صاحب الأموال الوفيرة، "كان يُقري الضيف ويطعم الطعام ويفعل المعروف"(٢١) . وكان له جفنة "يأكل منها القاعد

(١٨) السيرة المكية ١/ ٩٩ .
(١٩) طبقات ابن سعد ١/ ١٢٠ .
(٢٠) تاريخ اليعقوبي ١/ ٢٥٠ .
(٢١) السيرة المكية ١/ ١١٦ .

والراكب"(٢٢) . والرهبان النصارى، الذين تعرّف عليهم في رحلاته، يَعتبرون محبّةَ الفقراء عديل محبّة الله، فكانوا يهتمّون باطعام المسافرين من أهل مكّة، كما جاء عن راهب بحيرا : "وكانت قريش كثيرا ما تمرّ على بحيرا فيصنع لهم طعاما كثيرا"(٢٣) . وكم مرّة سنحت الفرصة لهؤلاء الرهبان ليعلّموا ضيوفهم أصول النصرانية، ويدرّبوهم على محبة الفقراء والرحمةِ بالمساكين .

وكان محمّد يسمع ويسجّل ويتأهّب لتلك الساعة الآتية . ولم ترحل صورة القس ابن ساعدة الايادي من ذاكرته طوال حياته، وقد ذكرها بعد أربعين سنة لوفد من أياد، ممّا يدلّ على أثرها العميق في ذهنه وضميره . وقد كان القس يعظ الناس في سوق عكاظ، ويكلّمهم على المفاسد المتفاقمة في المجتمع، وأهمّها ظلم المساكين، وجمع المال، وأكل أموال اليتامى (٢٤) . وقد انطبعت صورة الواعظ في مخيّلة محمّد وفعلت فيه فعلها، وراح هو يغذّيها بما يراه في مجتمعه موافقا لتربيته وشعوره الباطني وتعاليمه الابيونيّة .

وليس أدلّ على تربية محمّد على الرحمة والعدل من ملازمته القسّ ورقة ابن نوفل نسيب زوجته العتيدة . وقد عاش معه نيّفا وأربعين سنة . وقد اشتهر القسّ ورقة في حياته النصرانيّة باعتكافه في غار حراء، وصيامِه طوال شهر رمضان، وانقطاعِه عن الناس، وَخلوتِه بربّه في العبادة والصلاة، واهتمامِه البالغ بالفقراء والمساكين (٢٥) . وقد اقتدى محمّد به خير اقتداء، واهتدى بهديه، وهو القائل عنه وعن جماعته النصرانيّة : "أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتدِه"(٢٦) . ثم لازمه في بيت عبد المطلب ، ثماني سنين، وفي غار حراء، قبل البعثة ،

---

(٢٢) السيرة الحلبية ١/ ١٢١ .
(٢٣) الحلبية ١/ ١٣٠ـ١٣٥، ابن الاثير ٢/ ٣٧، تاريخ الطبرى ٢/ ٣٢ .
(٢٤) طبقات ابن سعد ١/ ٢ و ٥٥، السيرة المكية ١/ ١٣٩ .
(٢٥) السيرة الحلبية ١/ ٢٥٩، السيرة المكية ١/ ١٧٨ .
(٢٦) سورة الانعام ٦/ ٩٠ .

خمس عشرة سنة، وبعد البعثة، ثلاث أو أربع سنين، وكان يتعلّم منه بعض مبادئ الابيونيّة، ويتدرّب على يده، ويتوجّه بارشاداته، ويتمثّل بسيرته، ويسمع مواعظه وتأمّلاته، ويستوعب تفاسيره للتوراة والانجيل، ويحضر نقله "الانجيل العبراني" .. حتى قيل عن محمّد ما قيل عن القسّ ورقة : "كان رسول الله يجاور في حراء من كل سنة شهرا .. يطعم من جاءه من المساكين"(٢٧) .

وفي النهاية، وقع النبيّ في يد القسّ، وتزوّج من ابنت عمّه خديجة . وكان القس هو "الشاهد" على الاكليل، فقال : "اشهدوا عليّ يا معشر قريش، انّي قد زوّجت خديجة بنت خويلد من محمّد بن عبدالله"(٢٨) . وبعد هذه الوقعة الالهيّة، راح القس يعلن المرّة بعد المرّة عن نبوءة (؟) محمّد، وعن دوره العتيد، وعن الدعوة التي يريد تحقيقها(٢٩) . ولمّا توفّي القسّ، حزن محمّد عليه حزنا شديدا، وانقطع الوحي عنه . فقيل : " ولم يَنْشَبْ وَرَقَةُ أن تُوفّيَ وَفَتَرَ الوحي"(٣٠) .

******

واذا رجعنا قليلا الى الوراء، نجد فضيلة الكرم والعناية بالمساكين متأصّلة في أجداد النبيّ . فعبد مناف بن قصيّ كان يسمّى "الفيّاض لكثرة جوده"(٣١) . وهاشم بن عبد مناف لقّب بـ"هاشم لأنّه أوّل من هَشَمَ الثريد..

(٢٧) سيرة ابن هشام ١/ ١٧٦، ٢١٩، ابن سعد ١/ ١٥٣، الطبرى ٢/ ٣٠٠ .
(٢٨) السيرة الحلبية ١/ ١٥٥، السيرة المكية ١/ ١٢٣ .
(٢٩) انظر قس ونبي، فصل "القس يعلن خليفته، ص ٥٢ـ٦١ .
(٣٠) صحيح البخارى بشرح الكرماني ، ١/ ٣٨ .
(٣١) السيرة الحلبية ١/ ٢١ .

وأطعمه للمساكين . وقد قيل فيه شعرا :

عمرو العلى هشم الثريد لقومه ورجال مكّة مسنتون عجاف[٣٢] .

وكان هاشم "يعمل الطعام للحجاج ، يأكل منه من لم يكن له سعة ولا زاد"[٣٣] . وقال فيه بعضهم : "لم تزل مائدته منصوبة، لا ترفع في السرّاء والضرّاء"[٣٤] . و "كان يخرج مالا كثيرا .. يسقي ويطعم"[٣٥] المسافرين والجائعين وزوّار بيت الله الحرام .

وقد عرف آل عبد مناف جميعهم بالكرم والجود ، لكأنّهم من جملة "الابيونيين" النصارى . وامتدحهم الشعراء ، وشدّدوا على سخائهم ، فقالوا :

قلْ للذي طلبَ السماحةَ والنَدى هلاّ مررتَ بآلِ عبدِ منافِ

الرائِشون وليسَ بوجدُ رائشٌ والقائلون هَلُمَّ للأضيافِ[٣٦] .

وقالوا أيضا :

يا أيّها الرجل المحوّلُ رحلَهُ ألا نزلتَ بآل عبدِ منافِ

هبلتْك أمُّك لو نزلتَ برحلِهم منعوك من عدمٍ ومن اقرافِ

الخالطينَ غنيَّهُم بفقيرِهم حتى يعودَ فقيرُهم كالكافي[٣٧] .

أمّا أهل قريش فقد عقدوا "الأحلاف" نصرة للمظلومين المحرومين . فكان "حلف الفضول الرابع" في بيت أبي جدعان ، وقد حضره النبي . جاء فيه "ردّ الفضول الى أهلها" ، أى اعطاء ما يفضل للمحتاجين اليه . فهم أهله . وقيل

---

(٣٢) طبقات ابن سعد ١ / ٧٦، تاريخ اليعقوبي ١ / ٢٤٤ . عمرو هو اسم هاشم . هشم الثريد : كسر الخبز وفتّه وبلّه بالمرق . مسنتون عجاف : أصابهم الجدب .

(٣٣) الحلبية ١ / ٩ .

(٣٤) الحلبية ١ / ٩ .

(٣٥) تاريخ اليعقوبي ١ / ٢٤٢ــ٢٤٣ .

(٣٦) الحلبية ١ / ٨ : الرائش أى الذى يطعم ويكسي .

(٣٧) ألحلبية ١ / ٨ــ٩ : منعوك من عدم ومن أقراف أى من الفاقة والتعب .

فيه أنّ قريشا جعلوا الصدقة واطعام المحتاج من أمور الدين · وبذلك سمّي أهل قريش "المجيرين، لكرمهم وفخرهم وسيادتهم على سائر العرب"(٣٨) . واشتهر منهم نعيم بن عبدالله بن جدعان الذى كان "ينفق على أرامل بني عدي وأيتامهم"(٣٩) ، وحكيم بن حزام، ابن عمّ خديجة، ينفق على المحتاجين(٤٠) ، وآخرون كثر، حتى أصبح انفاق قريش على المساكين يعدّ عندهم دينا متّبعا وعرفا مقدّسا ·

******

في هذا المناخ نشأ محمّد ، وتربّى ، وتدرّب· وهو كما يظهر مناخ "ابيوني" نصرانيّ · والابيونيّ هو الباحث عن الفقير ليداويه بالرحمة والعطاء· · وبين قريش المسمّون "الحُمْس" أى المتشدّدين في دينهم ، و"الابيونيين" النصارى الآخذين اسمهم من قول المسيح "طوبى للفقراء"، أى "للابيونيين" ، بحسب لغتهم العبرية والاراميّة، أشياء كثيرة مشتركة·

فهل يعقلُ ألاّ تكونَ قريشٌ على ما كان عليه القس ورقة في مذهبه "الابيوني"؟ وهل يعقلُ ألاّ يكونَ محمّدٌ على مذهب معلّمِه ومدرّبه ومكلّلِه ومرشدِه؟ وهل يعقلُ ألاّ يكونَ محمّد اذن أحدَ "الإبيونيين" "الحُمْس" الذين يتشدّدون في اعالة المساكين؟ لا غرابة في الأمر اطلاقا · لكنّ الجواب السديد من القرآن، من تعاليم محمّد ، كما سيظهر لنا ذلك ساطعا في الفصل الأخير·

---

(٣٨) السيرة الحلبية ١/ ٥٧ ·
(٣٩) الاصابة ٣/ ٥٢٧، رقم ٨٧٧٨ ·
(٤٠) نسب قريش ١/ ٣٦٧ رقم ٦٤٤ ·

ثالثاً : نقمة في عمق النبيّ

في مكّة تناقض في كل شيء : تناقض بين طبقتي المجتمع ، وتناقض بين جدب الطبيعة وثروة الموقع التجاري ، وتناقض في قسمي قريش : أغنياء البطاح وفقراء الظواهر ، وتناقض في بيت عبد المطّلب : بين أولاده ، وتناقض بين الجشع والجوع ، وتناقض بين الكرم والبخل ، وتناقض بين المصرف وجهه عن اليتامى والأيامى ، والمهتمّ بكل عائل مسكين .. وتناقض في حياة محمّد : بين طفولة تعيسة محرومة ورجولة أثْرَتْ بالرزق والمال ، وتناقض بين مبغض له حتى الموت ومحبّ له حتى التضحية بالنفس...

هذه التناقضات جميعها لن تمرّ دون أن تؤثّر في نفسيّة محمّد ، وتفعل فيها في العمق . وما أدرانا تكون " ردّات الفعل " عنده ، عندما يصبح واعيا ، مدركا ، مدرّبا ، ومعدًّا لكل الاحتمالات الفعليّة والانفعاليّة ! ويجب ألاّ تكون " ردّة الفعل " المحمّدية تعبيرا مستهجنا لدينا : فكل شيء في حياة النبيّ كان ردّة فعل بسبب هذا التناقض العميق في مجتمعه وفي حياته . وكل شيء كان في تعاليمه " نقمة " ، و" تحدّيا " ، و" ثورة " .

فـ" التناقض " و" ردّة الفعل " و" النقمة " و" التحدّي " و" الثورة " هي من مقوّمات شخصيّة محمّد ، ومن العناصر الجوهريّة لتعاليمه العتيدة ، ومن الدوافع الصاخبة لجهاده المستميت في سبيل حركته الاصلاحيّة .

******

لقد حزّ في نفس محمّد أن يُحرَم وحدَه من وُلدِ هاشم ، فيما أقرباؤه يتنعّمون بكثرة الأموال والأرزاق . وعزّ عليه ، وهو من قبيلة قريش التجّار ، أن

يكون خفيرا مستخدَما كأحد العبيد والاحباش. لقد تألّم جدّا من بخل عمّيه الثريين العباس وعبد العزّى، بقدر ما كان يتألّم من يتمه وبؤسه وحرمانه . وتألّم أيضا، وهو من آل عبد المطّلب سدنة الكعبة وأشراف مكّة، أن يكون أجيرا تائها وراء الغنم والجمال، لا ملجأ له ولا سكينة. وتألّم من التفتيش عن لقمة العيش، فرحل بسببها الى الشام، فيما أعمامه وعيالهم يأكلون حتى التخمة، ويشربون في كؤوس من فضة وذهب..

وأكثر ما كان ألمهُ من اهتمام أبي طالب به، وهو أكثر أعمامه فقرا وعوزا، وأكثرهم عيالا، وأقلّهم مالا . وكم قيل في أبي طالب بانّه كان "مقلّا من المال . فكان عياله، اذا أكلوا جميعا أو فرادى، لم يشبعوا"[٤١] . وكمّ مرّة حثّ أبو طالب ابن أخيه ليذهب الى الشام في المتاجرة، ويخفف عنه أعباء الحياة، حتى قال له يوما: "يا ابنَ أخي! أنا رجلٌ لا مال لي . وان كنتُ أكرهُ أن تأتي الشام، ولكن لا نجدُ من ذلك بدّا"[٤٢] . ولمّا تزوّج محمّد من خديجة "فرح أبو طالب فرحا شديدا . وقال: ألحمد لله الذي أذهب عنّا الكرب، ودفع عنّا الهموم"[٤٣] .

وممّا زاد في ألم النبيّ ونقمتِهِ شعورُه بالوَحدة والعزلة. وحده يواجه نوائبَ الدهر ومتاعبَ الحياة . لا أب له ولا أم . لا أخ ولا أخت. لقد حرم من عناية الأب، وحنان الأم، وعضد الأخ، وعطف الأخت. وحرم من المال والرزق . وأصابته الأمراض، وهزّته النوبات العصبيّة.. ومن كانت هذه حاله فكيف تكون حياته؟! وعندما يكبر ستكبر معه المصائب بدون شكّ . ولا بدّ من أن يجد

---

(٤١) طبقات ١/ ١١٩، الحلبية ١/ ١٨٩، المكّية ١/ ٩١، سيرة ابن هشام ١/ ١٧١ و ٢٢٩، الكامل لابن الاثير ٢/ ٣٧، تاريخ الطبرى ٢/ ٢١٣، الروض الانف ١/ ١٢١، تاريخ اليعقوبي ٢/ ٩، أنساب ١/ ٩٦ ...
(٤٢) طبقات ١/ ١٢٩، الحلبية ١/ ٢١٦، المكّية ١/ ١١٨ ...
(٤٣) طبقات ١/ ١٥٦، الحلبية ١/ ٢١٦، المكّية ١/ ١٢٣ ...

نفسه أمام أمرين : امّا الانتحار وامّا الانتقام . لكنّه لم يُقدِم على الانتحار بل على ما يشبهه، أي على "الاعتكاف في غار حراء"، وعلى "الاستجارة بربّه"، والهرب في شعاب مكّة، وراء قطعان الغنم ، والرحيل الى الشام مع القوافل، و"الخلوة" الطويلة التي حبّبه الله ايّاها ، على ما شهدت لنا عائشة(٤٤) .

وبعد الاعتكاف والخلوة، سيعود الى الانتقام: الانتقام من الفقر والجوع بالغنى وكثرة الارزاق . وكان له ذلك . والانتقام من حاجته العاطفية الى الأب والأم بنساء عديدات. وكان له ذلك . والانتقام من يتمه وحرمانه بالاهتمام البالغ باليتامى والمساكين . وكان له ذلك . ومظاهر نقمته سهلة التحصيل من مجريات حياته وسيرته، لا بدّ من تفصيلها :

فزواجه من خديجة، وهي امرأة لرجلين قبله، وتكبره نيّفا وخمس عشرة سنة، هو من هذا القبيل . لقد كانت له مكان أمّه، فوفّرت له المال والجاه والحنان والكفاية . ولم يكن فقدانُه لأمّه بهيّنٍ عليه، اذ راح يرى في كل امرأة تكبره قليلا، أو يشعر منها بعاطفة، كأنّها أمّه . فها هو ينادي "أمّ أيمن" مثلا : "يا أمّاه . وكان اذا نظر اليها قال : هذه بقيّة أهل بيتي"(٤٥) . ويقول عنها : "مَن سرّه أن يتزوّج امرأة من أهل الجنّة، فليتزوّج أمّ أيمن"(٤٦) .

وعن فاطمة امرأة عمّه أبي طالب قال عند موتها : "أليوم ماتت أمّي . وكفّنها بقميصه، ونزل على قبرها ، واضطجع في لحدها . فقيل له : يا رسول الله! لقد اشتدّ جزعك على فاطمة؟ قال : انّها كانت أمّي . ان كانت لَتُجيعُ صبيانَها وتُشبعُني ، وتُشعّثُهم وتدهنُني . وكانت أمّي"(٤٧) .

---

(٤٤) صحيح مسلم ١/ ٧٨، صحيح البخاري ١/ ٣٩، طبقات ١/ ١٩٤، ابن هشام ١/ ٢١٦، الحلبية ١/ ٢٥٨، نهاية الارب ١٦/ ١٧٠ ...
(٤٥) طبقات ٨/ ٢٢٣ . وفي الحلبية ١/ ١٧٢ قال لها : "أنت أمّي بعد أمّي".
(٤٦) طبقات ابن سعد ٨/ ٢٢٤ .
(٤٧) تاريخ اليعقوبي ٢/ ١٤ .

وربّما كانت كلّ امرأة تهتمّ به، وتعطف عليه، عرفها سابقا أم لم يعرفها، كأنّها أمّــه. ففي رواية "استأذنت امرأةٌ على النبيّ قد كانت ترضعه. فلمّــا دخلت عليه قال: أمّــي أمّــي. وعمد الى ردائه فبسطه لها فقعدت عليه"(٤٨). وفي رواية أخرى كان يقول ذلك لأخته في الحضانة أسمها "الشيماء"، اذ كانت ترقصه وتغنّي له بقولها:

هــذا أخٌ لـم تلـدْه أمّــي وليس من نسـلِ أبي وعمّي
فأنمِهِ اللهمّ فيمــا تَنمي(٤٩).

وكان كلّ مرّة يمرّ بـ"الأبواء" حيث قبرُ أمّه، يبكي. ويبكي المســـلمون لبكائه(٥٠). وفي أواخر حياته، فيما هو ذاهب الى فتح مكّة، مرّ بالأبــواء، وجلس قبالة قبر أمّــه، وجلس الناس حوله، ثم قام وهو يبكي. فاستقبلــه عمر فقال: "بأبي أنت وأمّي يا رسول الله! ما الذى أبكاك؟ فقال: هذا قبر أمّــي.. ذكرتُها فرقَقْتُ فبكيتُ. فلم يُــرَ يوما كان أكثرَ باكيا من يومئذ"(٥١).

ولم تقلّ حاجةُ محمّد الى أخ يعضده عن حاجته الى حنان الأم وعطفها. يُروى أنّه جاء يوما بيتَ عليّ بن أبي طالب وامرأتِه فاطمة "فاستفتح فخرجتْ اليــه أمُّ أيمَن فقال: أشــمّ أخــي؟ قالت: وكيف يكونُ أخوك وقد أنكحتَه ابنتَك؟! فقال: فانّه كذلك"(٥٢). وفي حديث آخر قال: "أثمّ أخي! فقالت أمّ أيمن: بأبي أنت وأمّي يا رسولَ الله! مَــن أخــوك؟ قال: علي بن أبي طالب. قالت: وكيف يكون أخَــاك وقد زوّجتَه ابنتَك؟ قال: هو ذاك يا أمّ أيمن"(٥٣).

---

(٤٩) السيرة الحلبية ١/١٦٧.
(٥٠) طبقات ابن سعد ١/١١٦.
(٥١) طبقات ابن سعد ١/١١٧.
(٥٢) طبقات ابن سعد ٨/٢٣.
(٥٣) طبقات ابن سعد ٨/٢٤.

وربّما كانت حاجة محمّد الى الأمّ والأخت أكثر من حاجته الى الزوجة وكثرة النساء! فزواجه من خديجة بعمر الأربعين، ومن عائشة بعمر التسع سنين، كان من هذا القبيل : تلك عوّضت عليه بالأمّ. وهذه بالأخت. وكان يهمّه جدّا أن يكون له من بناته بنون، لكي يكون له معهم في حياته بعض اللين. فلذلك زوّج بناتِه بعمر مبكّر : فزوّج ابنتَه الكبرى زينب بعمر الثالثة عشرة، لكنّها توفّيت بعد ثماني سنين[٥٤]؛ وزوّج ابنته رقيقة بعمر الثماني سنين، ولم تلد ولدا، وتوفّيت في السنة الأولى للهجرة[٥٥]؛ وزوّج فاطمة بعمر ثماني عشرة سنة، وماتت بعمر تسعة وعشرين عن أربعة أولاد[٥٦]؛ وزوّج ابنته أمّ كلثوم بعمر ثماني سنين، ثمّ توفّيت في التاسعة بعد الهجرة[٥٧]... ومات له ولدان ذكران أو ثلاثة، في عمر الطفولة..

******

ماذا يعني كلّ ذلك ؟ ماذا يعني موت أبيه وهو جنين؟ وماذا يعني موت أمّه وهو دون الثالثة؟ وماذا يعني موت أولاده الذكور عن سنّ مبكّر ؟ وموت بناته في ريعان العمر ؟ وماذا يعني عدم انجابه البنين رغم تعدّد النساء عنده ؟ وماذا يعني تزويجه بناته في سنّ الطفولة ؟ وماذا يعني بكاؤه المستمرّ على أمّه، وقد بلغ من العمر باكيا ستين سنة ؟ وماذا يعني زواجه من امرأة أرملة لرجلين تكبره خمس عشرة سنة؟ وزواجه من ابنة تصغره خمسا وأربعين سنة؟ وماذا يعني زواجه من أرامل، ومن أرامل فقط ؟ ما عدا عائشة؟

---

(٥٤) طبقات ابن سعد ٨/ ٣١ .
(٥٥) طبقات ابن سعد ٨/ ٣٤ .
(٥٦) طبقات ابن سعد ٨/ ٣٦ .
(٥٧) طبقات ابن سعد ٨/ ٢٨ .

ما هي أسباب ذلك ؟ وما تكون النتائج بحسب علوم الجنس والحياة العاطفية ؟ هل بُنْية النبيّ لم تكن سليمة حتى لم ينجب ، وان أنجب كان انجابه للموت ؟ هل أثّرت فيه تلك الأمراض التي أصابته في طفولته فظهرت في حياة بنيه ؟ هل تكون العلّة في والدَيهِ اللذين ماتا بمرض خبيث أو بداء سار ؟ وهل كل ذلك كان بسبب اضطراب جنسي ؟ أم هو من صفات النبوّة ومستلزماتها ؟ ألله أعلم .

ولكنّنا نعلم أمرا أكيدا وهو أن يزدادَ النبيّ ، بسبب ذلك، نقمةً فوق نقمة، وأن يتفاقم عنده التبرّمُ في الحياة، وربّما زاده ذلك خللاً في الأعصاب ونوبات في النخاع وصرعات في الدماغ . وقد استفاضت كتبُ السير في اظهارها . فعمّا تسفر أوضاع كهذه ؟ والحقيقة ان لم تكن النقمةُ في نفسه كافيةً لأن تتحوّل الى ثورة، فانّ ما في المجتمع المكّي من مفاسد سيعجّل بها ، ويقرّب ساعة الحسم :

فمترفو مكّة يكدّسون الأرزاق ، ويوسّعون تجارتهم ، ويستغلّون مواسم الحج ، ويستفيدون من قدسية الكعبة، ويحرّمون أشهرا لمصلحتهم .. وهم ، مع ذلك ، لا يكتفون . بل راحوا يظلمون الناس ، ويتلاعبون بالموازين والمكاييل ، ويأكلون أموال اليتامى ظلما ، ويتعاطون الربا والربح الفاحش، ويسخّرون كل شيء في سبيل مصلحتهم ... أمّا الفقراء فقد رآهم محمّد يتضوّرون جوعا ، لا يملكون من خيور الدنيا شيئا، ولا يصحّ لهم حتى الهواء . ولئن ابتغوا بعض الهناء فيعمدون الى قتل بناتهم خشية الجوع ، والى اكراه نسائهم على البغاء خوفا من الفاقة، والى وأد البنات رهبة الحاجة، والى قتل الأولاد أو بيعهم عبيدا ورقيقا أبيض رغبة في لقمة العيش .

لقد رأى محمّد كل هذه التناقضات ، وشاهدها بأمّ عينه، وشعر بها في حياته الشخصية، وانفعل لها في صميمه، وانفرط لها قلبه، وآلمته أحاسيسه

الرهيفة.. فماذا ستكون النتيجة اذن ؟ نقمة على نقمة، وانتقام لا حدود له ، وثورة قد لا تبقي على شيء قائم . مظالم الأرض والمجتمع ، كلّها نفذت به الى أن يعدّ العدّة لثورة عتيدة، ان خسر فيها ، لا يخسر شيئا ، وان ربح ، دانت له الجزيرة . وان دعمها بتعاليم سماويّة، خضعت له الدنيا .

وقد يكون التفت محمّد الى أمثاله، والى مَن يُشبهُه ببعض حاله ، فرأى أن كثيرين مثلَه يتألّمون ، وكثيرين يتأفّفون ، منهم مَن يستجدي لقمة العيش، ومنهم من يموت جوعا وعوزا . وفي كثيرين ابتدأت النقمة ذاتها تفعل فعلها في نفوسهم ، وتعدّهم للسيطرة على ممتلكات المترفين ، والسطو على أموالهم وأرزاقهم بالقوّة والعنف..

وبالفعل ، جاء مصلحون قبل محمّد ، وقليلا ما توفّقوا . وجاء متنبّئون عديدون ينذرون بالويل والثبور، حاولوا اصلاح الفساد فلم يفلحوا ... أيكون هو منهم فيفشل؟ أم يستعدّ لحملته، وثورته استعدادا أكمل ؟ الاّ أنّ واحدا من هؤلاء لم يكن بمثل حاله . فهو في قمّة البؤس والحرمان . وهو يعرف الأوضاع بمجملها وتمامها : شعر بها ، وعاشها ، وعملت فيه عملها . ثمّ أنّه ابن قريش البطاح ، وحفيد زعيم مكّة، وربيب القسّ ورقة، وزوج الثريّة خديجة، وصديق أبي بكر الخبير بالأنساب وأحوال مكّة . وهو بالتالي في " مِنعَةٍ مِن قومه " ... فلا بدّ له اذن من النجاح .

وزاد في امكانيّة نجاحِه تعرُّفه العميقُ على المأجورين ، وشعورُه في الصميم بأحوال اليتامى وأبناء السبيل والمساكين . فخالطهم في رحلاته ، واطّلع على أحوالهم البائسة عن كثب ، وسمع شكواهم المريرة، وسجّل في ذاكرته أحاديثهم ، وفكّر في عقله الثاقب بأسباب شقائهم ، وعرف لدقة ملاحظاته ما كان يجول في خاطرهم .. فازداد نقمة على نقمة . وقرّر النجدة .. ولكن لا بدّ أيضا من اعداد العدّة لهذا القرار الخطير.

رابعاً : القرار الخطير

لقد قرّر محمّد الاصلاح . وكل شيء عنده معدّ له . وهو في وضع يجعله يستطيع القرار، ويكفل لقراره النجاح . والاصلاح يكون على صعيدين لا محالة: صعيد العلم وصعيد العمل . ولم ينقصه من العلم شيء، فالقسّ ورقة بقربه، ينقل "الانجيل العبراني"، وهو انجيل "الابيونيين" أصحاب عقيدة أعمال البرّ والاحسان والصدقات مع كل صاحب حاجة . ولم ينقصه من القدرة على العمل شيء، فهو حفيد عبد المطلب وزوج خديجة التي يعدل غناها نصف غنى قريش، وهي امرأة نافذة في قومها، قديرة على ما تريد، تتحكّم بالرجال كما تتحكّم بالمال .

بيد أنّ هذا القرار الخطير لم يكن بدون صراع في نفس محمّد . وربما تردّد كثيرا . ولم يتّخذه بسهولة ورضا . والحقيقة كانت كذلك : فمحمّد، ولئن كان فقيرا ويتيما وضالاّ، الاّ أنّه أصبح، في ظلّ خديجة، ميسورا وصاحب ثروة . فهل يقرّر اذن، بعد الذى أصبح عليه من غنى، ضربَ الأغنياء ونصرةَ المساكين؟ أم يقرّر نصرةَ الأغنياء وارضاءَ المساكين كيفما كان؟ هل يريد الثورة لأجل الثروة؟ وها هي الثروة تأتيه بدون ثورة! هل كان يريد أن يصبح تاجرا وربّ عمل، بعد أن كان مأجورا ومستخدما؟ فها هو، بأموال خديجة، يعدل نصف تجارة قريش! فما العمل اذن : أينصر الأغنياءَ على الفقراء، وقد أصبح مثلهم! أم ينصر الفقراءَ على الأغنياء، وقد كان منهم؟ انّه في الواقع صراع حقيقي في نفس النبيّ .

ولكن، كما يبدو، لم يتأخر محمّد في اتّخاذ قراره النهائي . فجمع حوله "أذلّة" مكّة، ووعدهم برفع مستوى الحياة عندهم . فاستجاب معظمهم . ودعم

استجابتهم بتعاليم "ابيونيّة" كفل بها دعوته وصوابيّتها . فاستهوى أتباعَـــه صدقُ سيرته، وعظمُ تعاليمه، ومحبّتُه لهم، ونجدتُه ايّاهم، وأمانتُه في العمل، وحسنُ تدبيره . فتحمّسوا له، وتجمّعوا حوله، وجاهدوا معه، وتبعوه . وبدأت بذلك طريقُهم الى الثورة . فكانت خطوات محمّد الأولى موفّقة وصائبة صوّبت معها سائر خطوات الدعوة .

******

وكان وراء هذا القرار الخطير أشخاصٌ خطيرون ثلاثة : ألقسّ ورقة بن نوفل، وخديجة بنت خويلد، وأبو طالب بن عبد المطّلب . ألأوّل منظِّر الحركة، والثاني مموّلُها، والثالث داعمٌ ومساند . وَرَقة هيّأ التعاليم، وخديجة أعدّت المال، وأبو طالب دعم بنفوذه ومقامه . ولم تبخل علينا كتبُ السيرة عمّا كان عليه الثلاثة، الى درجة أنّهم عندما توفّوا حزن محمّد، وانقطع عنه العون و"الوحي"، ودعيت سنة وفاتهم، بالنسبة الى النبي، بـ"عـام الحزن" :

بموت القس ورقـة "فـتر الوحي"(٥٨) .

وبموت خديجة "تتابعت على رسول الله المصائب، اذ كانت له وزيرَ صدق على الاسلام، يشكو اليها"(٥٩) . هي التي "آمنت به، وصدّقت بما جاءه من الله، ووازرته على أمره، وكانت أوّلَ مَـن آمن بالله وبرسوله، وصدّق بما جاء منه . فخفّف الله بذلك عن نبيّه، لا يسمع شيئا ممّا يكرهه من ردّ عليـه وتكذيب له، فيحزنه ذلك، الاّ فرّج الله عنه بها اذا رجع اليها . تثبّته وتخفّف عليه وتُصدِّقه، وتهوّن عليه أمر الناس"(٦٠) .

---

(٥٨) صحيح البخاري بشرح الكرماني ١/ ٣٨ .
(٥٩) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٥ .
(٦٠) المرجع نفسـه، ١/ ٢٢٤ .

وبموت أبي طالب "نالت قريش من رسول الله من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب.. اذ كان أبو طالب لابن أخيه عضدًا وحرزا في أمره ومنعة ونصرا على قومه"(٦١) .

******

ثمّ أنّه كان لمحمّد الذكاء الكافي لاستمالة الناس اليه : فهو يعرف مع من يجب أن يبتدىء، ومع أيّة فئة يستطيع أن يعمل ليكفل لثورته وتعاليمه النصر والنجاح . وكان يعرف أيضا بأي أسلوب يتكلّم ليؤثّر فيهم ، وبأيّة لغة يتحدّث عن قضايا هامّة، وبأى تعبير يواجه معضلة اجتماعية جليلة.. فأسلوبه كان في بدايته، وباتّفاق الجميع اسلوبا مفصّلا ، صارما ، يتحدّث عن أمور الجنّة والنار في سبيل الدعوة الى الأخلاق والاصلاح والعناية الفائقة باليتامى والمساكين ، أى في معرض المطالبة باصلاح اجتماعي شامل .

وهذا هو معنى ما جاء على لسان عائشة . قالت : "في أوّل القرآن يَذكرُ الجنّة والنار . ولمّا دخلَ الناسُ في الاسلام جاء ذكرُ الحلال والحرام" . وبهذا المعنى تحدّث السيوطي في قوله : "لم يكن بمكّة حَدٌّ ، أى تشريع ، ولا نحوه" . ونقل عن الجعبرى قوله : "كل سورة فيها فريضة أو حدّ فهي مدنيّة"(٦٢) . وفي ذلك أيضا قال سيّد قطب ، أحد مفسّري القرآن المعاصرين : "وانّنا لننظر فلا نجد فيها (السور المكية) الاّ القليلَ من تلك الأغراض التي يراها بعضُ الباحثين أكبر مزايا القرآن .. لا نجد علوما كونية في هذه السور على وجه الاجمال . وكذلك لا نجد التشريع ، ولا نجد النبوءات"(٦٣) . وهذا

(٦١) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٥-٤٦ .
(٦٢) السيوطي ، الاتقان في علوم القرآن، ١/ ١٨ .
(٦٣) سيّد قطب ، التصوير الفنّي في القرآن، ص ٢١ .

ما حمل جولدتسيهر الى القول : "محمّد لم يبشّر بجديد من الأفكار، كما لم يمدّنا أيضا بجديد في ما يتّصل بعلاقة الانسان بما هو فوق حسّه وشعوره وباللانهاية"(٦٤) .

فتعاليم محمّد الأولى كانت في اصلاح مجتمع فاسد، في محاربة الغنى والأغنياء، في محبّة الفقراء والمساكين، في ابطال الظلم اللاحق باليتامى والأرامل، في وعده للمحسنين بالجنّة، وفي محاربة المادّية في التجارة والافتخار بكثرة المال والأولاد .. كلّ ذلك كان يحدّ من ذكر الله واقامة الصلاة والتأمّل بالحساب والعقاب.. ولم يكن محمّد، في بدايته، يعي بأنّه نبيّ ، أو رسولٌ من لدن الله . بل كان يعي تماما بأنّه جاء ليصلح مجتمعا فاسدا في كل شيء . وبصلاح المجتمع تصلح العبادة والصلاة ويرسخ الايمان ، ويقوم الصراط المستقيم .. ولكن، كانت له الجرأة بفرضه تعاليم اجتماعيّة وكأنّها دين منزل، وتكلّم بحماس كأنّ كلماته وحي نبوّي .

ولذلك كان معظم الذين اتّبعوه في البداية من الفقراء والأذلّة . أمّا الأغنياء الأعزّة فاحتقروا كلامه، وأعرضوا عن تعاليمه، وعيّروه بأصحابه الذين استجابوا له، بأنّهم "أذلّة" و"أراذل". فقالوا له، كما قيل لنوح من قبل : "أنؤمن لك واتّبعك الأرذلون"(٦٥) ؟ أو قولهم : "وما نراك اتّبعك الاّ الذين هم أراذلنا"(٦٦) ... واعترف محمّد يوما بأنّ الذين اتّبعوه هم بالفعل كذلك، فقالها مرّة لأصحابه بعدَ معركة بَدْر : "لقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلّة"(٦٧) . ولذلك سخر الأعزّة منه ومن تابعيه، وقد أشار هو نفسه الى ذلك بقوله : "زُيِّنَ للذين كفروا الحياةَ الدنيا، ويَسخَرون من الذين

---

(٦٤) جولدتسيهر، العقيدة والشريعة في الاسلام، ص ١١ .
(٦٥) القرآن ٢٦/ ١١١ .
(٦٦) القرآن ١١/ ٢٧ .
(٦٧) القرآن ٣/ ١٢٣ .

آمنوا"(٦٨) . وأيضا كذّبوه واستهزأوا به، فقال أيضا : "وما يأتيهم من رسول الاّ كانوا به يستهزئون"(٦٩) . وغير ذلك اشارات قرآنية عديدة(٧٠) .

وسرعان ما شعر هؤلاء الأعزّة بقوّة دعوة محمّد ، وبالخطر يحدق بهم ، وبمقاصد الثوّار في قطع طرق التجارة والرزق عليهم . وأحسّوا أنّ محمّدا سوف يخرجهم من مكّة، ويؤلّب "المساكين" عليهم . فقاوموه، وهمّوا بقتله، أو باخراجه من مدينتهم . وأشار القرآن الى تهديدهم هذا بقوله : "واذ يمكُر بك الذين كفروا لِيُثْبتوك (يوثقوك ويحبسوك) أو يقتلوك ، أو يُخرجوك، ويمكرون . ويمكر الله، والله خير الماكرين"(٧١) .. الاّ أنّ محمّدا علم بنيّاتهم، فأشار الى صحبه أن يتركوا مكّة . فتركوها أوّلا ، وثانيا الى الحبشة، وثالثا الى الطائف ، وأخيرا الى يثرب .. وفي يثرب ، حيث له أقرباء ومناصرون، رأى أنّ الثورة تستطيع أن تبتدئ من هناك . فذهب اليها . واشتعلت الثورة . وانقلب كلّ شيء في تاريخ الجزيرة والشرق(٧٢) .

وقبل أن نتوقّف على تعاليم محمّد الاصلاحيّة، وهو موضوع الفصل التالي ، نكمّل سيرته مع أعزّة مكّة . وندخل في عنف ثورته عليهم . ونتوقّف على نتائجها بعد أن تأكّد نجاحُها .

---

(٦٨) القرآن ٢/ ٢١٢ .
(٦٩) القرآن ١٥/ ١١ .
(٧٠) انظر في القرآن : ٢/ ١٤، ٤/ ١٤٠، ٦/ ١٠، ١٣/ ٣٢، ٢١/ ٤١ ، ٤٣/ ٧، ٣٦/ ٣٠، ٢٦/ ٦ ...
(٧١) القرآن ٨/ ٣٠ .
(٧٢) يبدأ المسلمون تاريخهم بالهجرة من مكّة الى المدينة، وذلك لاهمّية هذه الفترة عند النبي الذى عرف اختيار المكان المناسب لاشتعال النار.

خامساً: ثورة حتى النصر

في بداية القرن السابع للميلاد ، أصبحت الثروة في مكّة بأيدى قلّة من الناس، وفشى الفقر في الكثيرين . وأصبح العداء بين طبقتي المجتمع مستحكما . " وبقاء أيّ منهما يعتمد على فناء الآخر .. وعلى كل طرف أن يصفّي الطـرف الآخر .. وعلى الرسول أن يقوم بثـورة شـاملة مستخدما سـلاح العنـف الثوري لمواجهة العنف الرجعي .. وكانت أخطر المهمّات أمام الرسـول هـي مهمّة الاعداد للثـورة، والتخطيط لها ، وتنظيمها ، ورسم اسـتراتيجيّتها ، وتحديد اطارات حركتها "(٧٣) ، واختيار قاعدتها ، وتعيين مركزها الرئيس ، اذ " وجد الرسول أن لا مفرّ من خوض غمار نضال مسلّح "(٧٤) .

لقد حاول محمّد ايجاد هذه القاعدة في مكّة . ولكنّ القوى المعاديـة كانت أعظم من أن يكون له ذلك . فاضطهدته مكّة، فهاجر أصحابه الى الحبشة . ولكنّه لم ييأس . ثم أكمل نضاله . وأكملت مكّة أيضا اضطهادها له . فهاجر ثانية الى الحبشة . ولم ييأس .. ثم عاد وضاعف نشاطه، ورأى أن يترك مكّة الى الطائف لأنّ في الطائف محرومين كثيرين ، قد يمدّون له يد المساعدة . ولكنّ الطائف خذلته . وباء سعيه فيها بالفشل . و " اكتشف انّها لا يمكن أن تصلح قاعدة ثوريّة، نظرا للعلاقات الوثيقة التي تربط بين تجّارها وتجّار مكّة . كما أنّها من الناحية الجغرافية لا تبعد عن مكّة ــ مركز القوى المعادية ــ الاّ بحوالي ٤٠ ميلا الى الشرق . وهذه المسافة القصيرة تجعلها غير مأمونة، اذ يمكن لقريش

---

(٧٣) حسنين كرّوم ، نظرية الثورة والتنظيم في كتاب محمّد . نظرة عصريـة جديدة، ص ١٧١ و ١٧٢ .

(٧٤) حسنين كرّوم ، المرجع نفسه ، ص ١٧٥ .

مهاجمتها باستمرار، وتجريد الحملات عليها بكثرة، نظرا لقربها.(٧٥)

ورجع الرسول الى مكّة، واعتكف في بيته، يبحث عن مركز آخر. فكانت يثرب. وكان ذلك لأسباب عدّة: منها أن يثرب بلدة غنيّة، وتتيح امكانيّات كبيرة من الناحية المادّية. كما أنّها تبعد عن مكّة بحوالي ٢٥٠ ميلا، أي أنّها ستكون في مأمن من الهجمات المتتالية والمفاجئة من مكّة.. ثمّ انّ يثرب تسيطر على طرق تجارة مكّة مع الشام من جهة الشمال، وهذا يعطي فرصة لتسديد ضربة قاتلة الى مكّة التي تعتمد على التجارة وقوافلها. وفي نفس الوقت فانّ موقع يثرب يتيح فرصا واسعة لشنّ الغارات في اتّجاهات متعدّدة، ويتيح فرصا واسعة بالتالي للسيطرة على القبائل المجاورة لها(٧٦).

ولمحمّد، في يثرب، معارف وأقرباء، أنصار وأصدقاء. فأمّه "آمنة" من بني النجّار من يثرب. وأخواله لا يزالون هناك. وقد زارهم مرارا، وتعرّف عليهم وعلى مدينتهم. وأمّه توفّيت بـ"الأبواء" بالقرب منها. وكان، كل مرّة يمرّ بيثرب للمتاجرة، يزور قبرها ويبكي. فوُجد عنده ما يشدّه اليها... وفي مكان آخر يسمّى "العقبة"، اجتمع محمّد مع أنصاره مرّة ومرّتين، وكانوا كثيرين، وبايعوه، سرّا، وهم من مختلف بطون المدينة(٧٧). وكذلك أيضا، وممّا ساعد محمّدا لاختيار يثرب، وَهَنُ مجتمعها، واختلافاتٌ عميقة فيما بين الأوس والخزرج، واحتكارُ اليهود لخيرات القبائل، وبغضُهم لهم. واليهود خيرهم كثير وجبنهم أكثر. وقد يقدر محمّد عليهم، ويبدأ ثورته بهم.

استقرّ الرأى اذن على يثرب. فبعث محمّد أصحابه اليها. ووعدهم بالنصر، لأنّهم أصحاب حقّ. والمستضعَفون أمثالهم لا بدّ من أن يرثوا

---

(٧٥) المرجع نفسه، ص ١٧٧.

(٧٦) المرجع نفسه، ص ١٧٨.

(٧٧) ابن سعد، الطبقات الكبرى ١/ ٢١٩ ـ ٢٢٣.

الأرض وما عليها . ألم يقل في قرآنه : "ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض، ونجعلهم أئمّة، ونجعلهم الوارثين"(٧٨) . وأيضا : "وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها"(٧٩). ولدغدغهم وحماسهم، وَعَدَهم بمغانم كثيرة قد يحصلون عليها . قال : "ووعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها"(٨٠) . وقال أيضا : "عند الله مغانم كثيرة"(٨١) ، و "مغانم كثيرة يأخذونها"(٨٢) . ثم وعدهم بأمل القضاء النهائي على أصحاب المال الذين يأكلون من أمامهم كل شيء، وذلك "كي لا يكون دولة بين الأغنياء"(٨٣) .

******

ومن يتفحّص كتب السير والأخبار يجد أن حرب محمّد ضدّ قريش لم تكن لأجل هدايتهم الى الايمان، بقدر ما كانت ضدّ ثرائهم غير المشروع. لقد كانت ثورته من أجل الحياة، من أجل رفع مستوى العيش عند "أذلّة" مكّة ومحروميها . فغزواته كلّها كانت، في الواقع، لأجل منافع ماديّة، ولأجل ضرب المترفين . ولم يكن اعتراضه لقوافل قريش التجاريّة جهادا في سبيل الله، بقدر ما كان لأجل "العِير" والسطو على أموالها وبضائعها . ولم تكن حربه ضدّ يهود يثرب الاّ لأجل سلبهم أموالهم الباطلة. وقريش نفسها، بما عرف عن تسامحها الديني، كما نرى بعد حين، لم تحارب النبيّ لأجل دعوته الى اله لم يعرفوه، أو دين جديد . والدليل على ما نقول نأخذه من المؤرّخين المسلمين أنفسهم . فها نحن ننقل عنهم ما جاء عندهم :

---

(٧٨) القرآن ٢٨/ ٥ .
(٧٩) القرآن ٥٩/ ٧ .
(٨٠) القرآن ٤٨/ ٢٠ .
(٨١) القرآن ٤/ ٩٤ .
(٨٢) القرآن ٤٨/ ١٩ .
(٨٣) القرآن ٥٩/ ٧ .

خرج رسول الله غازيا حتى بلغ وَدَّان "يعترض عِيرًا لقريش"(٨٤) . ثمّ خرج في غزوة بُواط "يريد عِيرًا لقريش فيها أميّة بن خلف وألفان وخمسمائة بعير"(٨٥) . وبعدها غزا العُشيرة "يريد عِيرًا لقريش متوجّهة الى الشام . يقال أن قريشا جمعت جميع أموالها في تلك العير . ويقال أنّ في تلك العير خمسين ألف دينار وألف بعير .. ولم يبق بمكّة لا قرشيّ ولا قرشيّة له مثقال نصاعدا الاّ بعث به في تلك العير"(٨٦) .

ومرّة أمر الرسول سعد بن أبي وقّاص يقول له : "أخرج يا سعد حتى تبلغ الخرّار، فانّ عِيرًا لقريش ستمرّ به"(٨٧) . وغزا الرسول بنفسه "حتى بلغ الأبواء، يعترض لعِير قريش"(٨٨) . وفي سريّة نخلة دعا الرسول عبدالله ابن جحش يقول له : "سر حتى تأتي بطنَ نخلة .. فترصّد بها عِيرَ قريش"(٨٩) .

ثم خرج النبيّ وصحبه في غزوة بدر الكبرى طالبا عير قريش "ووجدها سبقته بأيّام . ولم يزل مترقّبا تقفولها . فلمّا سمع بقفولها من الشام ندب المسلمين (أى دعاهم) وقال : "هذه عير قريش، فيها أموالهم . فاخرجوا اليها . لعلّ الله أن ينفلكموها (أى يدفعها اليكم) . فانتدب الناس (أى استجابوا) . ثم جمع الرسول أصحابه ودعا لهم قائلا : أللهم! انّهم حفاة فاحملهم، وعراة فاكسهم، وجياع فاشبعهم . وما منهم رجل الاّ رجع بجمل أو جملين . واكتسوا، وشبعوا بما أصابوه"(٩٠) .

---

(٨٤) طبقات ٢/ ٦، ابن هشام ٢/ ١٧٠، الواقدى ١/ ٢و٩، الحلبيّة ٢/ ٣٤٧ .
(٨٥) ابن هشام ٢/ ١٧٦، الواقدى ١/ ٢و١٢، الطبرى ٢/ ٤٠٧، حلبية ٣٤٨
(٨٦) ابن هشام ٢/ ١٧٦، واقدى ١/ ٢، طبقات ٢/ ١٠، طبرى ٢/ ٤٠٨ ...
(٨٧) الواقدى ١/ ١١، طبقات ٢/ ٧ .
(٨٨) الواقدى ١/ ١٢ .
(٨٩) طبقات ٢/ ١٠ـ ١١، الواقدى ١/ ١٣ـ ١٤ .
(٩٠) طبقات ٢/ ١١، واقدى ١/ ١٩، ابن الاثير ٢/ ١١٦، ابن هشام ٢/ ١٨٢ ...

وفي غزوة بني قينقاع ـ وهم أكثر اليهود مالا ـ سار محمّد اليهم وحاصرهم وأخذ أموالهم وسلاحهم وجلاهم عن المدينة"(٩١) . وفي قراقره سار محمّد الى بني غطفان، ووجد عندهم خمسمائة بعير، فحازها وخصّ كلّا من أصحابه ببعيرين(٩٢) . وفي غزوة بني النضير، أمر رسول الله بقطع النخيل، وبحرقها، قصد انزال الفقر والفاقة في اليهود . فناداه أصحابه : يا محمّد ! قد كنت تنهي عن الفساد، فما بالُ قَطْع النخل وتحريقها؟!!! فأنزل الله آية تبرّر فعله : "ما قطعتم من لِينَةٍ (نخلة) أو تركتموها قائمةً على أصولها فبإذنِ الله"(٩٣) . وخرج اليهود من مدينتهم وسكن الخراب بيوتهم(٩٤) .

وفي غزوة دومة الجندل "هجم الرسول على ماشيتهم وعلى رعاتهم . فأصاب من أصاب . وهرب من هرب . وأخذ منهم رجلا وسأله عنهم، فقال: هربوا حيث سمعوا أنّك أخذتَ نِعَمَهُم"(٩٥) . وفي غزوة المصطلق "استاق الرسول إبلَهم وشياهَهم . فكانت الابل ألفي بعير والشاء خمسة آلاف شاة وغير ذلك . وقسم المغانم على أصحابه"(٩٦) . وكذلك في خَيبَر فقد قطع النبيّ نخيلها، فوقع المسلمون في قطعها حتى قطعوا أربعمائة نخلة، وقطعوا عنها الماء والشرب، ونبشوا الخِرَب في سبيل الكنوز المدفونة، وظفروا بمغانم باهظة(٩٧) . وقبل الزحف على مؤتة صلّى الرسول لأصحابه قائلا : "دفع الله عنكم وردّكم غانمين"(٩٨) .

---

(٩١) الكامل لابن الاثير ٢/ ١٣٨، الحلبية ٢/ ٢١٧ـ ٢٢٠ .
(٩٢) طبقات ابن سعد ٢/ ٣١، الحلبية ٢/ ٤٨٠ .
(٩٣) القرآن ٥٩/ ٥ .
(٩٤) السيرة الحلبية ٢/ ٢٧٧ـ ٢٨٣ .
(٩٥) الحلبية ٣/ ١٢١ـ ١٣١، النعم أى الابل .
(٩٦) طبرى ١/ ١٢٦٥، طبقات ٢/ ٦١، ابن الاثير ١/ ٢٣١، عيني ٢/ ٥١٩ .
(٩٧) تاريخ اليعقوبي ٧٠ـ ٧١ .
(٩٨) المرجع نفسه .

وفي حُنين أتاه رجل يقول له : " فاذا أنا بهوازن عن بكرة أبيهم بظعنهم ونَعمِهم وشَبَابِهم اجتمعوا الى حُنين". فتبسّم محمّد وقال : " تلك غنيمة المسلمين غداً ان شاء الله". فأجمع أمرَ السيرِ الى هوازن، وخرج أهلُ مكّة ركبانا ومشاة حتى النساء يمشِينَ على غير وَهَن يَرجون المغانم . وأمر رسول الله بالسبي والغنائم أن تُجمع. فكان السبيُ ستةَ آلاف رأس والابل أربعة وعشرين ألفا والغنم أكثر من أربعين ألفا وأربعة آلاف أوقيّة فضة"(٩٩) .

وبعد انهزام هوازن في حنين توجّه رسول الله اليهم الى الطائف، وأمر وهو في طريقه اليهم أن يهدم كل حصن ، ويحرق كل بستان، وينبش كل قبر. وأمر بقطع الأعناب والنخيل وتحريقها . فقطع المسلمون قطعا ذريعا(١٠٠) . ومن تبّوك " ظفر المسلمون بالغنائم والسبايا"(١٠١) .

******

هذه السيرة الغانمة تدعمها أحاديث نبويّة صريحة. قال الرسول : " أغزوا تستغنوا"(١٠٢) . لقد "أحلّ (الله) لنا الغنائم"(١٠٣) ، و"أحلّت لأمّتي الغنائم"(١٠٤) ، وأيضا : "وأحلّت لكم الغنائم"(١٠٥) ، و"أحلّت لي الغنائم"(١٠٦) . وقد شهد المسلمون أنفسهم على ما غنموه، فأعلمونا بذلك

---

(٩٩) الحلبية ٣/ ١٣١ـ١٤٧ .
(١٠٠) المرجع نفسه .
(١٠١) المرجع نفسه .
(١٠٢) حنبل ٢/ ٣٨٠ .
(١٠٣) حنبل ٥/ ٢٤٨، ١/ ٣٠و٣٣، داود، جهاد، ١٢١ .
(١٠٤) حنبل ٥/ ٢٥٦، بخارى، خمس٨، ترمذى، سير ٥ .
(١٠٥) صحيح البخارى، باب الخمس ٨ .
(١٠٦) بخارى، يتم ١، دارمي ، صلاة ١١١، سير ٢٩، حنبل ١/ ٣٠١، ٢/ ٢١٢، ٣/ ٣٠٤، ٤/ ٤١٦، ٥/ ١٤٥، ١٤٨ ..

قائلين : "غنمنا المتاع والطعام والثياب"(١٠٧) ، و"غنمنا البقر والابل"(١٠٨)، و"غنمنا غنائم كثيرة"(١٠٩) . ويختصرون لنا جهادهم : "فغزونا فسلمنا وغنمنا"(١١٠) . وكل مرّة كانوا يحدّدون لنا موقف الرسول بقولهم : "فقفل رسول الله (ص) وأصحابه منصورين غانمين"(١١١) . ويعطوننا مفهوما جديدا للشهادة والموت في سبيل الله فينقلون لنا عن لسان النبي قوله : "فان الرجل يقاتل ليغنم . ويقاتل ليغنم"(١١٢) ... وغير ذلك من تعاليم وغنائم كان قد قرّرها القرآن وأثبتناها في محلّها .

******

هذه هي سيرة الرسول بأمّها وأبيها : جهاد وثورة في سبيل الثروة . لكأنّها ثروة حتى النصر . فجميع غزواته وسراياه، وقد بلغت التسعين، أى بمعدّل عشر غزوات في السنة، كانت ، على ما نقرأ في كتب النبوّة، مغانم بمغانم، وأسرى ، وسبايا ، وأموال . ثم تدمير لقرى أعدائه، وتقطيع شجرهم، وتحريق ممتلكاتهم، ونهب عيرهم، وتفجير بيوتهم، وتهجيرهم ... وكلّها حلال في سبيل الجائعين .

---

(١٠٧) صحيح مسلم، باب الايمان ١٨٣ .
(١٠٨) صحيح البخاري، باب المغازي ٣٨ .
(١٠٩) صحيح مسلم ، باب المساقاة ٨٠ .
(١١٠) ابن حنبل ٥/ ٢٤٨-٢٤٩، ٢٥٥، ٢٥٨ .
(١١١) صحيح البخاري، باب الأدب ، ١١٥ .
(١١٢) ابن حنبل ١/ ٤١٦، داود، جهاد ٢٤، نسائي ، جهاد ٢١ .

خاتمة الفصل الخامس

بعد الذى رأينا يبقى لدينا سؤال واحد هامّ : لماذا اضطهدت قريش محمّدا ؟ أبسبب دعوته الى دين توحيديّ جديد ؟ أم بسبب دعوة الى اصلاح اجتماعيّ شامل؟ يُجمع المسلمون على القول بالسبب الديني ، دون أن يتحمّسوا كثيرا للسبب الاجتماعي . وصفة قريش عندهم هي الكفر بالدعوة الدينية حتى لقّبوهم بـ " قريش الكفّار " . واتّخذوا بكلمة أبي جهل على محمّد : " لقد جاء محمّد ليسفّه آلهتنا " . واعتبروا أنّ هجرتَي النبيّ الى الحبشة، وهجرتَه الى يثرب ، انّما حصلت بسبب كفر قريش. وظنّوا أنّ دعوة محمّد الى التوحيد ، ونبذ الأصنام، وتبشيره بالاسلام الحنيف.. كانت سببا لعذابه وعذاب صحبته .

والحقيقة تقال : لا النبيّ دعا الى دين جديد ، ولا قريش كانوا كافرين ، ولا هجراته كانت بسبب الاسلام والقرآن والنبوّة، ولا عذاباته كانت بسبب تعاليمه التوحيدية ... ولا النبيّ كان يلاحقهم بسبب دعوة دينية جديدة .. والدليل على ذلك لا يحتمل شكّا :

لقد عُرف أهلُ قريش بالتساهل الديني ، وببعدهم عن التعصّب في ما يخصّ الشؤون الدينية : لقد تحالفوا مع بني غسّان المسيحيين (١١٣) ، وأنزلوهم في جوار الكعبة، أى في أقدس بقعة من مكّة (١١٤) . وسمحوا لكل غريب عنهم بأن يحجّ الى بيت الله، ويتمتّع بحقوقهم ، وسمحوا له بالجلوس الى جنب شيوخ مكّة (١١٥) ، واستقبلوا كل طارئ عليهم ، كما حدث لهم

(١١٣) أسد الغابة ٥/ ٥١٥، الازرقي ٤٦٦ .
(١١٤) الازرقي ٤٥٨، ٤٦٠ .
(١١٥) الازرقي ٤٦٥، رسائل الجاحظ ٦ حيث لبعض الأجانب حقوق قريش.

مع الموحّدين الهاربين من يثرب، في وقعة أُحُد، عندما هرب أبو عامر الراهب ورفاقه من النصارى (١١٦) .. هذا مع ميلهم الى السلم والهدوء، ومجانبة الحرب والتعصّب .. ومع قبولهم بكل من يحجّ الى الكعبة مهما كانت عقيدته الدينية (١١٧).

أضف الى ذلك أنّ الكعبة لم تكن، حتى عهد النبي، تنتمي الى اله معيّن معروف. وليس ما يكشف لنا عن شخصية ذاك الاله الذى طالما دعاه القرشيّون بـ "ربّ البيت"، و "ربّ الكعبة" .. ثمّ أنّ الجميع كانوا يحجّون الى الكعبة، وذلك بسبب انفتاح الكعبة، واتّساع تجارة مكّة، وانتفاع أهلها من تبادل السلع على أنواعها ومن مختلف مصادرها .. "ولم تُعَمَّد الكعبة بعصبيتها الاسلاميّة، الاّ في العصور العبّاسيّة اللاحقة" (١١٨).

والنصارى أنفسهم لم يكونوا يُحرمون من اقامة عباداتهم في قلب الكعبة، وبذلك كانوا "في حلّ من الاشراك" .. وهذا موقف مؤرّخي السِيَر المسلمين أنفسِهم في اهتمامهم بشأن "الحنيفيين"، وتخليصهم ايّاهم من الشرك، مع تعلّقهم بديانة الكعبة، وتعصّبهم للاسلام. ولماذا لا يكون موقف النصارى مشابها اذن لموقف "الحنيفيين" بالنظر الى هيكل مكّة ؟! "انّ كثيرا من النصارى كانوا في تساهلهم العجيب، يوفّقون بين عقائدهم التوحيدية واكرام الكعبة وغيرها من أماكن العبادة" (١١٩).

لهذا "لا يمكن أن يُدَلّ دلالةً واضحة على التعصّب الجنسي والديني بين العرب، الاّ بعد انتشار مذاهب التفسير القرآني، وعمل أئمّة التحليل

---

(١١٦) سيرة ابن هشام ٥٦١ــ٥٦٢ .
(١١٧) ابن الأثير، النهاية ٤/ ١٩٤ .
(١١٨) الذهبي، ميزان الاعتدال ٢/ ١١٢ .
(١١٩) ابن الأثير، النهاية ٤/ ١٩٤ .

والتحريم المثقفين على طريقة أرباب التلمود"(١٢٠) .." هذا ولم يكن من احراج في شأن الدين، فانّ النظام القرشي، والساهرين على تنفيذه من أعضاء "الملأ"، كان من أبغض الأمور لديهم التدخّلُ في معتقدات الناس أو الضغطُ على آراء الغير. ذلك انّ العربي، اذا ما تُرِك لطبيعته، كان أقرب ما يكون الى التساهل، متّخذا شعاره، قبل زمن القرآن، أن "لا اكراه في الدين"(١٢١)، متوصّلا الى قمّة التساهل بفضل نزعته الخاصّة، وما فطر عليه من عدم مبالاة وقلّة تقوى"(١٢٢). ولم يكن لقريش كبيرُ فضلٍ في تساهلهم الديني هذا، فالرسول نفسُه أخذ عنهم هذا التساهل، وعبّر عنه بقوله لمخالفيه: "لكم دينكم ولي ديني"(١٢٣).

فاذا لم تكن مقاومةُ قريش لمحمّد مقاومةً دينة، فماذا تكون اذن؟ ألحقّ يقال: انّ "الداعية الجديد لم يختصّ بدعوة دينية محضة. بل كان يرمي، كما يقول مناوئوه، الى أهداف اجتماعيّة كان من شأنها قلقلةُ النظام السائد اذ ذاك، و"تفريقُ الجماعة"، على قولهم"(١٢٤). ولم تكن تهمة كهذه ألصقت بأحد قبل ذاك العهد(١٢٥).

والنتيجة الحتميّة اذن هي أنّ تكفيرَ قريش لمحمّد لم يكن بسبب دعوته الى دين جديد، بقدر ما كان بسبب دعوته الى اصلاح مجتمع مكّة الرديء. وان أردنا أن نكون أكثر دقّة في الكلام، نقول: انّ الجوع والحرمان والفقر والذلّ وحالات اليتم والعوز.. كانت سببا كافيا وجوهريا لانتفاضة محمّد، ومن كان معه ووراءه. وتعاليمه في القرآن خير دليل.

---

(١٢٠) لامنس، النصارى في مكة قبل الهجرة، المشرق ٣٥ ص ٢٧٨-٢٧٩.
(١٢١) سورة البقرة ٢/ ٢٥٧.
(١٢٢) لامنس، المرجع السابق، ص ٢٨٢.
(١٢٣) سورة الكافرين ١٠٩/ ٦.
(١٢٤) ابن هشام ٢٢٥، لامنس، هل كان محمّد صادقا؟ (بالفرنسية)، ص ١٢٨.
(١٢٥) ابن الاثير ٤/ ١٩٤، لامنس، النصارى في مكة.. ص ٢٧٨.

الفصل السادس

تعاليم محمد الاجتماعية

مقدّمة

لقد عظم على محمّد أن يكون منتصرا في غزواته دون أن يكون له تعاليم تدعم انتصارَه العظيم . لهذا قرّر أن تكون له آياتٌ بيّناتٌ في اصلاح المجتمع ، وأن تكون له انتصارات في مجالِ تفصيلِ الأحكام ، وسنّ الشرائع ، ووضعِ دستورٍ يمنع فيه ما يمنع ، ويحلّل ما يريد تحليله . ولن تذهب تربيتُه التي تلقّاها في بيت جدّه ، وفي كفالة عمّه ، سُدًى . ولن يفوّت الفرصةَ عليه ، وهو في رعاية القسّ ورقة "الإبيوني" من أن يستفيدَ من نقلهِ "الانجيل العبراني" وما فيه من تعاليم في الصدقة والاحسان والعدالة والمساواة . فكان له ما أراد .

في الواقع اننا لا نجد ، في القرآن المكّي ، أيّةَ عقيدة جديدة لم يعرفها أهلُ قريش . ولا نجد أيّةَ شريعةٍ جديدة ، أو دينٍ جديد ، بتعاليمه أو بطريقته . و"كذلك لا نجد التشريع ، ولا نجد النبوآت"[١] ، كما "لم يبشّر بجديد من الأفكار"[٢] . وهذا يعني أنّ العهد المكّي الأوّل ، أي عهد ما بين الدعوة والهجرة الأولى الى الحبشة ، من سنة ٦١٠ حتى ٦١٥ م "كان دعوةً ليوم الدين في معرضِ المطالبة بالاصلاح الاجتماعي"[٣] . فلم يكن هناك اذن سُوَرٌ "عقائدية وتشريعية"[٤] ، كما "لم تكن دعوةٌ صريحة الى التوحيد"[٥]

وفي اجماع الذين بحثوا في "أسباب النزول" ، أي أسباب نزول الآيات

(١) سيّد قطب ، التصوير الفني في القرآن ، ص ٢١ .
(٢) جولدتسيهر ، العقيدة والشريعة في الاسلام ، ص ١١ .
(٣) الاستاذ الحداد ، القرآن والكتاب ، ٢/ ٣٧٥ .
(٤) المرجع نفسه ، ٢/ ٣١٧ .
(٥) المرجع نفسه ، ٢/ ٣٧٥ .

القرآنية وتحديدِ مكانها وزمانها ومناسباتها ، من مسلمين ومستشرقين ، قدماء ومعاصرين ، انّ السور المكّية الأولى هي بمعظمها تعاليم اجتماعية اصلاحيّة . وهي كلّها تدعو الى العناية الفائقة بالمساكين ، والفقراء ، والمعوزين ، وأبناء السبيل ، والمستضعفين ، واليتامى ، والأرامل ، والجياع ، وأصحاب الفاقة والحاجة . وكلّها نزلت في حقّ المتموّلين والأغنياء . وكلّها تدعو الى محاربتهم ، وتوزيع ثروتهم ، ومصادرة أرزاقهم ، وتحريم الربا والأرباح الفاحشة ، والعدل في الموازين ، والاعتدال بالربح والمتاجرة . وكلّها تدعو الى صنع الحسنات والصدقات وأعمال البرّ .. وذلك بأسلوب عنيف شديد مقتضب .

ولم تكن تعاليم القرآن المكّي الأولى في الوعد والوعيد ، أو الجنّة والنار ، أو الحساب والعقاب ، أو الايمان بالله .. الاّ عَرَضًا ، وفي معرضِ كلامه على الصدقات وواجب الاحسان . والأمر واضح جدّا ، في القرآن كما في الانجيل : مَن يحبسْ أحشاء، عن اغاثة المسكين لن يدخل الجنّة . مَن لا يتصدّق بماله ويعمل الحسنات لن يكونَ في عدادِ الأبرار . مَن لا يصنع الخيرَ لا يدخل ملكوت السماوات . فالأغنياء ، في الانجيل كما في القرآن ، لا يدخلون الجنّة . قال الانجيل : "ان دخول الجمل في سمّ الابرة أيسر من دخول الغني ملكوت السماوات" (متى ١٩/ ٢٤) . وقال القرآن : "لا يدخلون الجنّة حتى يلجَ الجملُ في سمّ الخياط" (٧/ ٤٠) .

هذه هي تعاليم انجيلِ الإبيونيين وقرآنِ المكّيين . تعاليمُ واضحةٌ صريحةٌ في الزكاة والصدقة ، ومواقفُ محدّدةٌ من الفقر والغنى ، ونظرةٌ رحيمةٌ الى اليتامى والمساكين ، ووعدٌ بالجنّة لصانعي الحسنات ، ووعيدٌ مخيفٌ لداخلي النار بسبب بخلهم وحبسِ أحشائهم عن اليتامى والمساكين والجياع .

أولاً : ألصدقة والزكاة

ألزكاة ركن من أركان الاسلام الخمسة. بل "انّ الزكاة هي الشريعة بكمالها"(٦) . وانّ تعبير "تزكّى يعني أسلم"(٧) . وهي قيمة دينية واجتماعيّة سواء. وهي كالصلاة أو عديلها. كما الصلاة تطهّر النيّات والقلوب، كذلك الزكاة تطهّر الأيدي والأموال. وقد أشير اليها مع الصلاة، منذ السور المكّية الأولى، حتى "يصحّ أن يقال : انّ تشريع الزكاة، في العهد المكّي، هو الوحيد بين التشريعات غير التعبّدية، اذ انّ جلّ هذه التشريعات انّما كانت في العهد المدني .. فاقتضت حكمةُ التنزيل فرضَ الزكاة فرضًا على أغنياء المسلمين ليؤدّوها بدافعٍ من ايمانهم كالصلاة، ولا تكون بصفة التبرّع التطوعي الذى يكون المرء فيه مختارا"(٨) .

وكثيرا ما حثّ القرآنُ على اقامة الزكاة والصلاة معًا، وأوردهما معا، لأنّ لكليهما فعلاً واحدا في التطهير والتزكية. قال : "أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة"(٩) . ومن فعلهما "كان عند ربّه مرضيا"(١٠) ، و"لهم أجرهم عند ربّهم"(١١) ، و أجرهم في الآخرة عظيم(١٢) ، اذ يكفّر الله عنهم سيّآتهم(١٣) ، ويمكّنهم في الأرض هنا(١٤) ، و"بالآخرة يوقنون"(١٥) . و"الذين لا يؤتون الزكاة هم كافرون"(١٦) . وبالنتيجة، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة هم على

(٦) رسائل الحكمة الدرزية ٦/ ٤٩.
(٧) د يمونبين، محمد (فرنسي) ٥١٢.
(٨) د روزة، تاريخ الجنس العربي ١٠٣/٦ .
(٩) ٢/ ٤٣، ٨٣، ١١٠، ٢٢/ ٧٨، ٢٤/ ٥٦، ٣٣ / ٢٠، وغيرها مئات المرّات في القرآن ..
(١٠) ١٩/ ٥٥ .
(١١) ٢/ ٢٧٧ .
(١٢) ٤/ ١٦٢ .
(١٣) ٥/ ١٢ .
(١٤) ٢٢/ ٤١ .
(١٥) ٢٧/ ٣، ٣١/ ٤ .
(١٦) ٤١/ ٧ .

دين القيّمة[١٧]. فبالزكاة والصلاة، اذن، يكون الايمان والاسلام والآخرة الصالحة. وبغيرهما لا يكون اسلام ولا ايمان ولا جنّة.

وفي الأحاديث النبويّة صورة واضحة أيضا عن علاقة الزكاة بالصلاة. قال الرسول: "الصلاة نور والزكاة برهان"[١٨]. وقال: "لا أفرّق بين الصلاة والزكاة"[١٩]. وزاد "لأقاتلنّ من فرّق بين الصلاة والزكاة"[٢٠]. بل انّ دعوته الى الزكاة هي كدعوته الى الصلاة، ودعوته الى الصلاة كدعوته الى الزكاة. ومن آمن بالرسول وطلب من الله الصلاة عليه، كأنّه تزكّى وتطهّر. قال: "صلّوا عليّ فانّها زكاة لكم"[٢١].

******

ثمّ اذا كانت رسالة المسيح ابتدأت بـ"التوبة" كمدخل لملكوت الله، فان رسالة محمّد ابتدأت بأفعال الرحمة والصدقة والزكاة. وهي كلمات تحتل قلب القرآن، وتملأ صفحاته، من أوّله الى آخره. وكما "التوبة" المسيحية تطهّر من الخطايا وتؤهّل للملكوت، كذلك "الصدقة" في الاسلام تطهّر، أو بحسب قول القرآن "تزكّي". والزكاة كالآيات، كلاهما يطهّر. أى انّ الزكاة تطهّر كسماع آيات الله البيّنات. بل في سماعها تطهير وتزكية. وهذه المعادلة بين الزكاة والآيات تفوق المعادلة بين الزكاة والصلاة. ومع هذا فهي بمستوى الاثنتين معا. جاء في القرآن: "كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا

---

(١٧) القرآن ٩٨/ ٥.
(١٨) سنن النسائي، باب الزكاة ١، ابن ماجة، باب الطهارة ٥.
(١٩) مسند ابن حنبل ١/ ١١ و ١٩ و ٣٦ و ٤٨.
(٢٠) صحيح البخاري، باب الاعتصام ٢ و ٢٨، باب الزكاة ١، باب المرتدين ٣، مسلم، باب الايمان ٣٢، ابو داود، باب الزكاة ١، الترمذي، الايمان ١، النسائي، باب الزكاة ٣، باب التحريم ١، باب الجهاد ١.
(٢١) مسند ابن حنبل ٢/ ٣٦٥.

ويزكّيكم"[٢٢] . أو أيضا : "يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة"[٢٣] .

ويعادل الصلاة والآيات التصدّق بالمال . والثلاثة معا يؤدّون فعل الزكاة . والصدقة بالمال هي أيضا تزكّي وتطهّر وتفتح أبواب الجنّة . جاء في القرآن : "خذ من أموالهم صدقة تطهّرهم وتزكّيهم بها"[٢٤] . وجاء أيضا : "الذى يؤتي ماله يتزكّى"[٢٥] ... وهكذا تتمّ المعادلات كلّها . وتتعيّن الأولويّات في الاسلام .

وهناك أيضا معادلات ثانوية، ولكن لا تقل أهمّية عن تلك . ولا بدّ من ذكرها لاعطاء صورة كاملة عن مقام الصدقة والزكاة في الاسلام . جاء في القرآن انّ الله لا يقبل توبة من لا يتصدّقون بأموالهم . قال : "ألم يعلموا أنّ الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات"[٢٦] . ألصدقة والتوبة معادلة رابعة . وخامسة تقوم على معادلة بين النجوى والصدقة . قال الرسول: "اذا ناجيتم الرسول فقدّموا بين يدي نجواكم صدقة"[٢٧] ، وأيضا : "لا خير في كثير من نجواهم الاّ من أمر بصدقة أو معروف"[٢٨] .

ولكنّ شرطا على المتصدّقين بمالهم، وهو أن لا يمنّ المتصدّق بما يتصدّق به، وأن لا يسيء الى المتصدَّق عليه بالتكدير والتعيير، لأنّ المنّة تهدم الصدقة . قال : "يا أيّها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ

(٢٢) سورة البقرة ٢/ ١٥١ .
(٢٣) ٣/ ١٦٤، انظر: ٦٢/ ٢، ٢/ ١٢٩ .
(٢٤) سورة التوبة ٩/ ١٠٣ .
(٢٥) سورة الليل ٩٢/ ١٨ .
(٢٦) سورة التوبة ٩/ ١٠٤ .
(٢٧) سورة الحديد ٥٨/ ١٢ .
(٢٨) سورة النساء ٤/ ١١٤ .

والأذى"[٢٩] . والمتصدِّق على الفقير كأنّه يقرض الله . والله يضاعف ما يقرض. قال : "انّ المصدّقين والمصدّقات وأقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم"[٣٠] . هؤلاء أجرهم عند ربّهم ، لانّ "الله يجزي المتصدّقين"[٣١] جزاء كبيرا .

وفي الحديث النبوي معادلة أخرى ، وهي بين الصدقة والصيام ، الى جانب الصلاة ، وقد اعتبرها النبيّ "سهاما" روحيا قاطعا ، اذا ما مورست بروح الاسلام والايمان . قال : "وسهام الاسلام الصوم والصلاة والصدقة"[٣٢] . هذا بالاضافة الى كونها تنجّي من الهلاك والنار . قال : "من استطاع منكم أن يتّقي النار فليتصدّق"[٣٣] . والحسنة عند الله تساوي ألوفا ، اذا ما أعطيت للفقير واليتيم بروح الايمان . قال : "والله يضاعف الحسنة ألفي حسنة"[٣٤] . و"كل حسنة تضاعف عشرا الى سبعمائة ضعف"[٣٥] . وكيفما كانت الحسنة ، وبأيّة قيمة كانت ، فهي عظيمة . وهو الفعل الوحيد في الدين لا يحسب بحسب كمّيته . وقد جاء على لسان النبي : "أفضل الصدقة الصدقة"[٣٦] . أى هي مقياس ذاتها ، أو هي عطاء وأخذ ، يعني "نعمة" . وآخر دعوة الرسول يقول فيها لأمّته : "صلّوا وتصدّقوا يا أمّة محمّد"[٣٧] .

---

(٢٩) سورة البقرة ٢/ ٢٦٤ .
(٣٠) سورة المجادلة ٥٨/ ١٨ .
(٣١) سورة يوسف ١٢/ ٨٨ .
(٣٢) ابن حنبل ٦/ ١٦٠ .
(٣٣) ابن حنبل ٤/ ٢٥٦ .
(٣٤) ابن حنبل ٢/ ٢٩٦ .
(٣٥) ابن حنبل ٢/ ٢٦٦، ٤٤٣، ٤٤٧، ٤/ ٣٤٦، ٢/ ٢٩٦ .
(٣٦) البخاري، النفقات ٢، مسلم، الزكاة ١٥، أبو داود، الزكاة ٣٩ ، النسائي ، الزكاة ٦ و ٥٣، ابن ماجة، مقدمة ٢٠، باب الادب ٣، ابن حنبل ٢/ ٢٤٥، ٢٥٢، ٢٧٨، ٣/ ٣٧٠، ٤٠٦، ٤٣٤، ٥/ ٤١٦ .
(٣٧) مسند ابن حنبل ٦/ ١٦٤ .

ثانياً : اليتامى اليتامى ...

القرآن يذكّر محمّدا : "ألم يجدْكَ يتيمًا فآوى".[٣٨] ؟ ومحمّد يتذكّر ويدعو صحبه ويذكّرهم : "أرحموا اليتامى .. فانّي كنت في الصغر يتيما".[٣٩]. والله يدعو محمّدا بقوله : "أمّا اليتيم فلا تقهر".[٤٠] . والدين القيّم هو الذى يدعوالى انصاف اليتيم : "أرأيت الذي يكذّب بالدين؟ فذلك الذى يَدُعُّ اليتيم".[٤١] . والبيت الصالح التقي هو ذاك الذي يضمّ يتامى يُحْسَنَ اليهم : "خيرُ بيتٍ بيتٌ فيه يتيمٌ يُحسَنُ اليه . وشرُّ بيتٍ بيتٌ فيه يتيمٌ يُساء اليه".[٤٢] . والذين يستحقون الجنّة هم أولئك الذين يعنون باليتامى : "فمن ضمّ يتيما من بين أبوين مسلمين الى طعامه وشرابه حتى يغنيه الله، وجبت له الجنّة".[٤٣] .

يخشى أن تكون "هذه الأمّة أكثر الأمم مملوكين ويتامى".[٤٤] على ما جاء في كتب الأحاديث . ولكنّها بالفعل هي كذلك . فالحروب قضت على الرجال واستبقتِ النساءَ أراملَ والأولادَ يتامى . والغزوات المستمرة الدائبة والظلم الحاصل في المجتمع ، والأوبئة السارية، والجهد المميت في تحصيل لقمة العيش، قضت بأن يكون في أمّة الاسلام يتامى لا حصر لهم ...

---

(٣٨) سورة الضحى ٩٣/ ٦ .
(٣٩) السيرة الحلبية ١/ ٨٢ .
(٤٠) سورة الضحى ٩٣/ ٩ .
(٤١) سورة الماعون ١٠٧/ ١ـ٢ .
(٤٢) سنن ابن ماجه، باب الأدب ٦، ٣٥
(٤٣) مسند ابن حنبل ٤/ ٣٤٤ .
(٤٤) أبن ماجه، باب الأدب ١٠، مسند ابن حنبل ١/ ١٢ .

ومن الطبيعي، في عمليّة الاصلاح الاجتماعي، أن يكون لهؤلاء اليتامى اهتمامٌ خاصٌ من قِبَل المصلح الذي يريد البدء بأي مشروع اصلاحي. هـم هؤلاء المحرومين يستحثُ مشاعرَ كل مصلح. والاهتمامُ بهم يقوّمُ خطوات الدعوة. فليس كالأطفال الأبرياء العزّل، الذين ظلمهم المجتمع، ما يحرّك نخوةَ الناس واندفاعَهم. وليس كهؤلاء ما يستحثُ المصلحَ للاقدام بدون تردّد. ألطفولة البريئة المحرومة جُنّـةُ الله على الأرض. "كأس ماء بارد" لطفلٍ يُفتحُ أبوابَ السماء. لمثل الأطفال ملكوتُ الله. ولأجلِ براءتهم يُنعَمُ على أهل الأرض. ألطفلُ اليتيم ذخيرةٌ لمدينته. والحاني عليه يمتلك كنزا ثمينا.

هذه الطفولة التي شاحَ نظر القرآن عنها، ليس لها فيه ذكر[٤٥]، ولا الأحاديث النبويّة الكثيرة تفرد لها كلمة حق[٤٦]. ومسلمو اليوم، كدروز هذا العصر، قرآنيّون، يوصون بـ "قتل أطفال المشركين"[٤٧]، ويعلنون على الملأ: "علّموا أولادكم الحقد"[٤٨]... غير ذلك كان "مصلح قريش"، بل عكس ذلك بالتمام. كل شيء، عند محمّد، كان من أجل طفل يتيم محروم بائس. فهو كان كذلك. بل أكثر من ذلك. كان يتيم الأب والأم، يفتقد لحنان الأخ والأخت. عاش طفولةً معذّبة. وكثيرا ما عرف بـ "يتيم عبد المطلب".

والذى نستخرجه من آداب القرآن المحمّدي ــ وهو غير قرآن عثمان بن عفّان الذى ظلم الطفولة ــ هو العناية الفائقة باليتامى حيث الاهتمام بهم يفوق كل حدّ. والآيات "المحمّدية" كثيرة، وتعاليمها صريحة، وأسلوبها واضح، ووقعها عنيف، لا تحتاج الى تفسير أو تأويل. وهي تتوزّع على

---

(٤٥) يتكلّم القرآن عن أطفال يرون عورات النساء أو لا يرون (٢٤/ ٣١، ٥٩)، أو عن طفولة هي كمرحلة من مراحل النشوء الانساني (٢٢/ ٥، ٤٠/ ٦٧).
(٤٦) جلّ ما تتكلّم الأحاديث عن الصلاة على الأطفال الذين يموتون باكرا.
(٤٧) أنظر مسند ابن حنبل ١/ ٢٩٤.
(٤٨) في خطاب للوزير الدرزى وليد جنبلاط في كفرمتّى بتاريخ ٩/ ٩/ ١٩٨٤.

مختلف عهود التنزيل، وتَذكرُ "اليتيم" واليتامى في كل مناسبة، في معـرض الكلام على الفقراء والمساكين والمستضعفين، كما في معرض الكلام على الجنّة ومستحقّيها؛ في كلامه على الأرث والزواج والجهاد، كما في كلامه على كل قيمة روحيّة ... كم وكم حضّ القرآن على القسط مع اليتامى، ومعاملتهم بالحسنى، والانفاق عليهم، واطعامهم، والحفاظ على أموالهم .. وبلاغة الآيات خير دليل:

جاء في سورتَي الإسراء والأنعام قولُه: "ولا تقربوا مالَ اليتيم الاّ بالتي هي أحسن".(٤٩) هاتان السورتان تتكلّمان على اليتيم ضمن الوصايا القرآنيّة العشر. وبذلك يولي القرآن العنايةَ باليتامى طابَعًا الهيًّا وناموسًا قُدسيًّا (٥٠). وفي سورة الفجر المكّية يعرض القرآن حالَ الكافرين الذين "لا يُكرمون اليتيم. ولا يَحضّون على طعامِ المسكين"(٥١) ويتوعّدهم بنار لا تطفأ. وفي سورة البلد المكّية يُعطي صورةً عن الانسان المؤمنِ الذى يريدُ بلوغَ الجنّة والسعادة. هذا الانسان عليه، لكي يستحق الجنّة، أن يعملَ على "فكِّ رقبة (أى تحرير أسير)، أو إِطعامٍ في يوم ذي مَسْغَبَة (أى جوع)، يتيمًا ذا مقربة (أي قرابة)، أو مسكيناً ذا متربة (لاصق لفقره بالتراب)"(٥٢).

وكذلك القرآن المدني، فهو يكمّل صورةَ الاهتمام باليتامى. ويذكُرُهم، تارة مع الوالِدين وذوي القربى (٥٣)، وطورا مع المساكين والمستضعَفين الذين

(٤٩) ١٧/٣٤، ٦/١٥٢.
(٥٠) انظر هذه الآيات التي تذكّر بوصايا موسى ..
(٥١) سورة ٨٩/١٧ـ١٨.
(٥٢) سورة البلد ٩٠/١٣ـ١٦.
(٥٣) أنظر: ٢/٨٣ و١٧٧ و٢١٥، ٨/٤١، ٣٦، ٨/٤١، ٥٩/٧ ..

يحتاجون الى العطف والحنان والكفاية(٥٤) . ويشدّد على حفظ أمــوالهــم ، لأنّ "الذين يأكلون أموالَ اليتــامى ظلما انّما يأكلون في بطونهم نارا"(٥٥) . وينصح بقوله : "وآتوا اليتــامى أموالهم . ولا تتبدّلوا الخبيث بالطيّب"(٥٦) . ويطلب العدلَ معهم والاقامةَ بالقسط(٥٧) وقسمةَ أرزاقهم بدقة وعناية(٥٨) ، واشراكَهم بالمغانم(٥٩) . ولهم ، في كل حال ، مع الله والرسول والوالديــين ، شــركة في الخمْس .

******

وجدير بنا التوقّف عند سورة النساء التي تعير اليتامى اهتماما بالغــا ، والتي فيهـا الأمر بزواج نساء أربع . وهو أمرٌ فهِمَهُ المسلمون على أنّه سماحٌ الهي "لأجل الشهـوة" ، فيما الحقيقة هو "زواج لأجل الرحمة" . و "العدلُ بـين النساء" ، الذي يتكلّم عليه القرآن ، هو ، في الواقع "عدلٌ في اليتامى" . وأولى بهـذه السورة أن تكون عدّة سور ، لتنوّع مواضيعهـا ، واختلاف أسلوبهـا . وأولَى بالقسم الأوّل منهـا (آية ٢ــ٣٨) أن يُسمّى "سورة اليتامى" ، لا سورة النساء ، كما هو عليه التقليد ، على أنّ أقساما أخرى تعود الى القسم الأوّل(٦٠) .

بعـد مقدّمة مستقلّة (آية ١) تبتدئ السورة بالتوجّه الى الناس فــي

---

(٥٤) المراجع السابقة بالاضافة ٤/ ١٢٧ .
(٥٥) ٤/ ١٠ .
(٥٦) ٤/ ٢ .
(٥٧) ٤/ ٣ و ١٢٧ .
(٥٨) ٤/ ٨ .
(٥٩) ٨/ ٤١ ؛ ٥٩/ ٧ .
(٦٠) سورة النساء ٤/ ١ : مقدمة . وهي آية مستقلّة من العهد المكّي . ٢ــ٣٨ : زواج لأجل اليتامى ، وكلام على الارث وكيفية هذا الزواج . ٣٩ــ١٢٦ : قضايا عامة متنوعة المواضيع ، ١٢٧ــ١٢٨ : عودة الى الزواج لأجل اليتامى ، ١٢٩ــ١٧٥ : عودة الى قضايا عامّة ، ١٧٦ : عودة الى أحكام الارث..

معاملتهم اليتـامى .. وفي معرض الكلام على القسط في اليتامى والعـدل فيما بينهم ، تدخل الاشـارة الى نكاح النساء مثنى وثلاث ورباع (آية ٣) ، ثمّ قوله: "وان خفتم ألاّ تعـدلوا فواحدة" (آية ٣) . ويفهم المسلمون : ان خفتم ألاّ تعـدلوا بين النساء الأربع ، لأجل غيرة أو حسد بينهنّ ، فزواج من واحدة لا غير ، هو الأفضل . أمّا المعنى الحقيقي ، من خلال الاطار العام للنصّ ، فهو : ان خفتم ألاّ تعـدلوا مع يتامى نساءٍ أربع فخذوا واحدةً قد تستطيعون الاهتمامَ بيتاماها والعـدلَ معهم ، وتعطونهم من أموالكم بدلَ أن تُعطوا السـفهـاء ، وتُعنَونَ بهم هكذا الى أن يبلغوا سنَّ النكاح ، فتساعدونَهم بما لهم عنـدكم من أموال هي لهم شرعا ، بسبب زواج الرجل من أمّهم .

قد لا يبطل هذا المفهوم نظريّة تعدّد الزوجات ، ولكن لا يكون تعدّدٌ الاّ اذا كانت الزوجات "نساء" ، كما في الآية ، أي نساء لهنّ أولادٌ يتـامى يجب اعالتُهم . فهو اذن زواج لاجلِ الرحمة ، لا زواج لأجل الشهوة ... واذا أعدنا النظر في آياتِ تعدّد الزوجات في الاسلام ، على ضوء هذا المفهوم ، نستطيع أن نفهم لماذا لم يتزوّج الرسول الاّ من نساء ثيّبات . وزواجه من عائشة ، وحدها كانت بكراً ، فيه ألف ألف تعليل وتحليل (٦١) .

وسوى عائشة ، لا نجد مبرّرا لزواج النبيّ من نساء أرامل : لا الشـهـوة

---

(٦١) عائشة بنت أبي بكر الصديق ، تزوّجها النبي بعمر الطفولة (؟) ، وهو يكبرها بخمسة وأربعين سنة (؟) ، تزوجها بعد العجوز خديجة (؟) ، أمّها نصرانية ، وسيرتها مع محمّد ومع سائر نسائه مشبوهة ، قتلت له ولدا وحيدا أنجبه من ماريّة القبطية ، وقع بينها وبين نساء النبي بغضٌ وحسدٌ وضغينة ، نقل عثمان مصحفه عن مصحفها ، اتّهمت في شرفها ، فبرّأها النبي ، بسببها قال علي : "المرأة شر كلّها" ، ووقع بينه وبينها معارك كادت تقضي على الاسلام ... هل زواج النبي منها بعمر البراءة صحيح ؟ هل هو انتقام من عاطفة مكبوتة بسبب زواجه من خديجة التي تحكّمت به ؟ أم انه زواج سياسي ؟ لاجل مصلحة سياسية ، أو لاجل الانتفاع بمال أبي بكر الصديق أبيها ؟ زواج محمد من عائشة سرّ من أسرار النبوّة ، وقد أتعبته في حياتها العاطفية ، وباحتكارها جميع لياليه على حساب أخريات ...

كانت وظلّت جامحةً وقد بلغَ الثلاثَ والخمسين سنة، ولا يمكن بعدما كان يكتفي بخديجة ثماني وعشرين سنة أنْ يتحوّل بعد موتها الى رجلٍ شهوة. وبعض المسلمين اكتشفوا ذلك، رغم قلّتهم، فقال مجيد الصيمري: "ليس من المعقول بعد اجتيازِ النبي (ص) مرحلةَ الشبابِ وفترةَ القوّةِ والفتوّة.. أن ينقلبَ الى رجلٍ شهوةٍ، تغريه النساءُ، ويفتنُه الجَمال، وتلحّ عليه الشهوةُ فيستجيبُ لاشباعها.. لم يكن الزواجُ في نظر الرسول (ص) صلةَ ذكورةٍ وأنوثة.. فيكون زواجُه ممّن تزوّجهنّ استجابةً لغريزةٍ مكبوتةٍ، ورغبةً جنسيةً عارمة"(٦٢).

واقتصار محمّد على خديجة وحدَها، وزواجُه الفلتان بعد موتها، قد يكون لسببٍ من الأسباب: امّا تلفيقٌ من كتبة السيرة، وتزويرٌ في التاريخ، وامّا لفرطِ سيطرةِ خديجة عليه، وهي التي طلبت يدَه، وأقنعته بالزواج منها، ثمّ لعبت دورا هامّا في رفع شأنه، وفي غناه، وفي اعلان نبوّته، مع ابن عمّها القسّ ورقة، وامّا لاجحافٍ عاطفيٍ لحقه منها، وهي تكبره خمسَ عشرة سنة، فعوّض عن اجحافه العاطفي المكبوت بزواجٍ كثير، بل بزواجٍ ابنة ستّ سنين، وامّا لاجلِ غايةٍ سياسيّة يرتبطُ بنسائه العديدات بمختلف العشائر والقبائل، ويتقرّب منها جميعها بالمصاهرة ليستطيعَ أن يكونَ له منعةٌ في كل قبيلة...، وامّا بسبب اهتمامهِ البالغ باليتامى والمساكين، فَعَدَّدَ زوجاتِهِ ليُعدِّدَ معه الغزاة والفاتحين..، وامّا أخيرا، تعددُ زوجاتِ النبيّ اختراعُ المسلمين الفاتحين الذين عَرفوا فتياتِ الرومِ الجميلاتِ ونساءَهم المتحرّرات، فأوجدوا في القرآن والسيرة مبرّرا لهم، فلصقوا بالنبيّ ما سمحوا به لأنفسهم!!!

أمّا المسلمون فيقفون عند واحد من سببين: الأوّل يكمن في قوّة النبيّ على الشهوة والنكاح، فأوجدوا له حديثا يقول فيه: "حُبّب اليّ من دنياكم

(٦٢) مجيد الصيمرى، الزواج في الاسلام، وانحراف المسلمين عنه، الدار الاسلامية، بيروت، سنة ١٩٧٩، ص ٤٥.

ثلاث : الطِيبُ والنساءُ وقرّةُ عيني في الصلاة".[٦٣] ولكنّ هذا الحديث ينقضه ما جاء في القرآن : "زيّن للناسِ حبُّ الشهوات من النساء والبنين .. ذلـك متاع الحياة الدنيا".[٦٤]

والسبب الثاني هو اتّصال النبي ، بواسطة المصاهرة، بمعظم قبـائـل العرب ، لكي يكونوا له عونا ونصرة في دعوته . ولكنّ نساءَ النبيّ لم تكنّ غريبات عنه، فهنّ من قبيلته ومن قرابته . ولئن شذّت ماريّة القبطية فلأ نّ سببا مـا وراء ذلك . الأ أنّ الباقيات من أقربائه : سَودة بنت زمعة هي امرأة أحـد أبناء أعمامه الذين تحمّلوا الأذى لأجله، وعائشة هي بنت صديقه ورفيقـه منذ الصغر، وحفصة بنت عمر بن الخطّاب خليفة أبي بكر ، وزينب بنت خزيمـة زوجة عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب أحد ابناء أعمامه الذي استشهد ببدر، وأم سلمة زوجة أحد المجاهدين في بدر أيضا ، وقد رفضت أوّلا الزواج بسبب أطفالها ، ولكنّ النبيّ تكفّلهم فرضيت ، وام حبيبة امرأة ابن عمّه عبدالله بـن جحش الذى تنصّر في الحبشة ... الخ . فهل يعقل أن يكون اذن سبب سياسي ؟

بقي أن يكون السبب "اليتـامى". زواج النبي الكثير، ان صحّ ذلك ، هو لاجل اليتامى ، وان لم تكن الشهوة الجنسية غائبة، الاّ أنّه يعتبرها ضعفا طبيعيا في الانسان، ولا يجب أن ينساق اليها .

******

ولنعد بعد هذه الجولة بين نساء النبي الى تعاليمه في اليتامى ، فهي كثيرة في الأحاديث النبويّة، وشديدة اللهجة، وموجبة في صيغتها . وكثـيرا ما تشمل هذه الأحاديث اليتامى مع المساكين، لأنّ كليهما في وضع سـيّء .

---

(٦٣) كنز العرفان للسيّودى ١/ ٢٢٢ .
(٦٤) سورة آل عمران ٣/ ١٤ .

والمجاهد في سبيلهم كالمجاهد في سبيل الله. قال : "الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله"(٦٥) . وقال أيضا : "ما من إمام أو والٍ يغلقُ بابَه دون ذوي الحاجة والخلّة والمسكنة الاّ أغلقَ اللهُ أبوابَ السماء دون خلّته وحاجته ومسكنته"(٦٦) . وفي عقيدة الرسول ان حبّ المساكين أمر الهيّ فقال : "أمرني بحب المساكين والدنوّ منهم"(٦٧) ، ولذلك "كان رسول الله (ص) يعود المساكين ويسأل عنهم"(٦٨) .

هؤلاء المساكين، في رأي النبيّ ، يتقدّمون جميعَ الناس في دخولهم الجنّة. قال : "يدخلُ فقراءُ المسلمين الجنّةَ قبل الأنبياء - وفي رواية - قبل الأغنياء"(٦٩) . وقال أيضا : "أوّل مَن يدخلُ الجنّة مِن خَلقِ اللهِ الفقراءُ والمهاجرون"(٧٠) . وأيضا : "فاذا عامّة مَن يدخلُها الفقراء"(٧١) . وله مثل ذلك أحاديث كثيرة.. ولم يكن على الجنّة الاّ أن تعترض على نوعيّة الذين يدخلونها وهم كلّهم فقراء. "قالت الجنّة : يا ربّ! ما لي لا يدخلني الاّ فقراء الناس؟!"(٧٢) .

لكنّ هذا الاعتراض لم يمنع النبيّ من أن يؤكّد مرارا وتكرارا على أنّ أحسن درجات الجنّة هي للمساكين. قال : "أبشروا صعاليك المهاجرين بالفوز يوم القيامة على الأغنياء بخمسمائة سنة"(٧٣) . وفي رأيه "انّ فقراء

---

(٦٥) بخارى، نفقات ١، أدب ٢٥ و ٧٦، مسلم، زهد ٤١، ترمذى، برّ ٤٤، النسائي ، زكاة ٧٨، ابن ماجة، تجارات ١، ابن حنبل ٢/ ٣٦١ .
(٦٦) الترمذى، أحكام ٦ ابن حنبل ٤/ ٢٣١ .
(٦٧) ابن حنبل ٥/ ١٥٩ .
(٦٨) النسائي ، جنائز ٤٣، الموطّأ، جنازة ١٥ .
(٦٩) ابن حنبل ٣/ ٢٢٤ .
(٧٠) ابن حنبل ٤/ ١٦٨، دارمي ، رقاق ١١٨ .
(٧١) ابن حنبل ٥/ ٢٠٩ .
(٧٢) بخارى تفسير سورة ٥٠/ ١، ترمذى، جنّة ٢٢، مسلم، جنّة ٣٤ ...
(٧٣) ترمذى، زهد ٣٧، داود، علم ١٣، حنبل ٣/ ٩٦، ٢/ ٣٤٣، ٤٥١ ...

المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة"(٧٤) . بل انّ "أهل الجنّة هم الضعفاء المظلومون"(٧٥) . وتقول الجنّة : "لا يدخلني الاّ ضعفاء الناس" (٧٦) . أمّا النار فملؤها الأغنياء والنساء . قال : "واطّلعتُ في النار فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء"(٧٧) ...

هذه الأحاديث الوافرة، صحّت نسبتها الى النبيّ ، أو لم تصحّ ، تفسّر ما جاء في القرآن عن اليتامى ، والفقراء ، والأذلّة، واليتامى ، والأسرى ... وهي في كل صفحة من صفحاته، وفي صميم كل تعاليمه الالهية أو الاجتماعيّة، التعبّدية أو الاشتراعيّة ... وهذا ما يدلّ ، مرّة أخرى، على أنّ نظرة محمّد "الابيونيّة" كانت في انطلاقة دعوته، وفي مسار جهاده . وسوف يكون لنا أيضا أدلّة أخرى، فيحسن لدينا البرهان الأكيد .

(٧٤) صحيح مسلم ، باب الزهد ٣٧، ابن حنبل ٢ / ١٦٩ .
(٧٥) ابن حنبل ٢ / ٢١٤، ٣٦٩، ٥٠٨، ٤ / ١٧٥ .
(٧٦) أنظر : صحيح البخارى، تفسير سورة ٥٠ / ١، الترمذى، باب الجنّة ٢٢، أحمد بن حنبل ٢ / ٤٥٠، ٥٠٧، ٣ / ١٣، صحيح مسلم ، باب الجنة ٣٤، وابن حنبل ايضا ٣ / ٧٨، ٧٩ ...
(٧٧) مسند أحمد بن حنبل ٢ / ١٧٣ .

ثالثاً : الجنّة جزاء المحسنين

جاءت الجنّة في مواضيع الدعوة المحمّدية الأولى · وقبل أن يدخل النبيّ في تفصيلها ووصفها تكلّم على مستحقّيها والداخلين اليها ، فاذا هم المحسنون ، والذين يعملون الصدقات · فـ "مَن يعملْ من الصالحات، وهو مؤمن ، فلا يخاف ظلما ولا هضما"(٧٨) ، و "الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك خير البريّة"(٧٩) ، والذين "يسارعون في الخيرات أولئك من الصالحين"(٨٠).

لا ايمان اذن بدون العمل الصالح · كلا الايمان والعمل الصالح شرط أساسي للفوز بالجنّة · ولا عمل صالح ان لم يكن أوّلا وآخرا من أجل المساكين والمحرومين واليتامى · والمحسنون في الدنيا هم في الآخرة فائزون : "وآتيناه في الدنيا حسنة، وانّه في الآخرة لمن الصالحين"(٨١) · والمتصدّقون بمالهم هم الصالحون ، فيما المنافقون في الآخرة يلتمسون من ربّهم أن يؤخّر أجلهم ليتصدّقوا فيكونوا من الصالحين : "لولا أخرّتني الى أجل قريب فأصدّق وأكن من الصالحين"(٨٢) .

فالعمل الصالح يرفع صاحبه · والذي يعمل السيّئات له في الدنيا والآخرة عذابٌ شديد(٨٣) · و "الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم"(٨٤) ، ويملّكهم الله في الأرض(٨٥) ، ويكثّر لهم ذرّيتهم(٨٦) ، ويكفّر عنهم سيّئاتهم(٨٧) ، ولهم من عند الله مغفرة(٨٨) ، وأجر كبير(٨٩) ، أو

---

(٧٨) ٢٠/١١٢ · (٨٢) ٦٣/١٠ · (٨٦) ٤٦/١٥ ·
(٧٩) ٩٨/٧ · (٨٣) ٣٥/١٠ · (٨٧) ٢٩/٧ ·
(٨٠) ٣/١١٤ · (٨٤) ٢٢/٥٠ · (٨٨) ٣٥/٧ ، ١١/١١ ، ٥/٩ ·
(٨١) ١٦/١٢٢ · (٨٥) ٢٤/٥٥ · (٨٩) ٣٥/٧ ، ١٧/٩ ، ٥/٩ ·

أجر غير ممنون(٩٠) . والله لا يضيع له أجرا(٩١) ، بل يجزيه عدلا(٩٢) ، ويوفيه أجره(٩٣) ... هؤلاء "الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم ، وحسن مآب"(٩٤) .

أمّا كيف تكون الجنّة لاستقبال المحسنين فحدّث عن المشتهيات والملذّات على أنواعها ، من حُور عِيْن ، عُرُب تُرُب كواعِب(٩٥) ، الى مآكل دائمة لا تنتهي(٩٦) ، وظلال وارفة(٩٧) ، وأنهار عذبة(٩٨) ، وغرف ومنازل(٩٩) ، وأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا(١٠٠) ، وقصور عالية(١٠١) ، ونمارق مصفوفة ، وزرابيّ مبثوثة(١٠٢) ، وفرش مرفوعة(١٠٣) ، وأسرّة مصفوفة وموضونة(١٠٤) ... والذين يستحقّون كل هذه الجنّة هم الذين عملوا في دنياهم أحسانا وبرا . فلننقل بعض ما جاء في القرآن :

قال : "الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنّة"(١٠٥) ، وقال : "ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنّة"(١٠٦) . وقال : "انّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا الى ربّهم أولئك أصحاب الجنّة"(١٠٧) . وقال : "والذين آمنوا وعملوا الصحالحات لنبوّئنّهم من الجنّة غرفا"(١٠٨) ... ويضاف الى ملذات الجنّة أنهار تجري دفّاقة ، يذكرها القرآن ، ويذكّر بها في كل مناسبة . يقول : "وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات انّ لهم جنّات تجرى من تحتها الأنهار.."(١٠٩)

---

(٩٠) ٤١/ ٨، ٨٤/ ٢٥، ٩٥/ ٦.
(٩١) ١٨/ ٢، ٣٠، ٢/ ٢٧٧.
(٩٢) ١٠/ ٤ .
(٩٣) ٤/ ١٧٣، ٣/ ٥٧.
(٩٤) ١٣/ ٢٩ .
(٩٥) أي: جميلات. متعفّفات. فتيات بعمر ٣٣. مكعّبة الصدور.
(٩٦) ١٣/ ٣٥
(٩٧) ١٣/ ٣٥.
(٩٨) حاشية ١٠٩
(٩٩) ٢٩/ ٥٨ .
(١٠٠) ٧٦/ ١٣.
(١٠١) ٢٥/ ١٠.
(١٠٢) ٨٨/ ١٦.
(١٠٣) ٥٦/ ٣٤.
(١٠٤) ٥٢/ ٢٠.
(١٠٥) ٢/ ٨٢.
(١٠٦) ٤/ ١٢٤، ٤٠/ ٤٠.
(١٠٧) ١١/ ٢٣.
(١٠٨) ٢٩/ ٥٨.
(١٠٩) ٢/ ٢٥، ٤/ ٥٧، ١٤/ ٢٣، ١٨/ ١٠٧... ٦٩ مرة..

وربّما يكون من حظّ الصالحين، الذين يعملون الصدقات والحسنات، خروجهم من النار، اذا ما كان نصيبهم العذاب لهفوة صنعوها في حياتهم الدنيا . فأعمال البرّ والاحسان التي عملوها في دنياهم قد تشفع بهم عند الله وتغيّر حكم الله فيهم . تقول الآية : " يخرج (الله) الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات الى النور "(١١٠)، لأنّ الله لا يضيّع أجر انسان محسن(١١١) . والقاعدة في الاسلام هي : " من كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملا صالحا "(١١٢) .

واذا كان عدل الله أن يجازي كلَ انسان بحسب أعماله، فانّ الله، في ما يخصّ الحسنة، يجزي المحسنين أضعافا مضاعفة . ومرارا يذكّر القرآن بهذا التصرّف الالهي الرحيم . قال : " ان تك حسنة يضاعفها "(١١٣)، بل " من جاء بالحسنة فله عشر مثلها "(١١٤) . وقال : " للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة، ولدار الآخرة خير "(١١٥) . و" من جاء بالحسنة فله خير منها "(١١٦) . و" من يقترف حسنة نزد له فيها حسنا "(١١٧) ...لأنّ الله " مع المحسنين "(١١٨) . وما يفعل الانسان من خير يعلمه الله(١١٩) .

ويحدّد القرآن أنواع أعمال البرّ، فاذا هي : اطعام المساكين، وتحرير الأسرى(١٢٠)، والاحسان الى ذوي القربى واليتامى(١٢١)، وأبناء السبيل، والسائلين .. " ويسألونك ماذا ينفقون؟ قل : ما أنفقتم من خير فللوالدين، والأقربين، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل "(١٢٢)، " والجار الجُنب (أي البعيد)، والصاحب بالجَنب (رفيق الطريق)، وما ملكت أيمانكم (من الرقيق "(١٢٣). هذه الآية كانت، في تاريخ المسلمين، القاعدة في توزيع المغانم .

(١١٠) ٦٥/١١ .
(١١١) ٧/١٧٠ .
(١١٢) ١٨/١١٠ .
(١١٣) ٤/٤٠ ...
(١١٤) ٦/١٦٠ .
(١١٥) ١٦/٣٠ .
(١١٦) ٢٧/٨٩، ٢٨/٨٤ .
(١١٧) ٤٢/٢٣ .
(١١٨) ٣٣ مرّة في القرآن .
(١١٩) ٢/١٩٧ و٢١٥ ...
(١٢٠) ٢/١٧٧ .
(١٢١) ٢/٨٣ .
(١٢٢) ٢/٢١٥ .
(١٢٣) ٤/٣٦ .

رابعاً : السور المكيّة الأولى

لسنا نعلم اذا كان محمّد يعي دوره النبويّ بالقدر الذى كان يعي دوره الاجتماعي الخطير. ولكننا نعلم، علم اليقين، بأنّ محمّدا لم يكن، قبل الأربعين من عمره، نبيّا، مع أنّ أهل السير علموا ذلك، وجعلوه نبيّا منذ بدء الخليقة. ونعلم أيضا، بالتأكيد، أن القرآن المكّي لم يطلق على محمّد ولو لمرّة واحدة، لقب أو اسم نبيّ. ونعلم أخيرا أنّ الله، اذا ما أراد أمرا، يستطيعه، انطلاقا من ظروف المجتمع، ودون تكليف نفسه بارسال الرسل والأنبياء.. فمعطيات التاريخ أولى من معطيات الغيب لنفهم أعمال الله..

أربعون سنة، قبل الدعوة، عاشها محمّد، ينظر ويشاهد، يسمع ويتسمّع، يشعر ويتحسّس، ينفعل ويتفاعل. عاشها محروما من كل شيء. ولم يكن أحد يشبهه بشدّة حرمانه. هذا أمر أسهبنا في الكلام عليه. ويبقى علينا، الآن، أن نتعرّف على أولى تعاليم محمّد، لنرى اذا كانت وحيا من السماء، أو هي من وحي مجتمع فاسد عاش النبيّ فيه وتأثّر به وانفعل بمفاسده.. واذا تتبّعنا السور القرآنية بحسب نزولها الزمني، لا بدّ من أن تنكشف لنا بعض أسرار المهمّة المحمّدية.

ونرجو ألاّ تقلّ قيمة التدخّل الالهي عند الذين يؤمنون به، اذا ما قلنا أنّ للوحي السماوي مصدرا بشريّا، ودوافع اجتماعيّة، وعوامل تاريخية، وظروفا انسانيّة، وأوضاعا شخصيّة... دفعت بمحمّد الى مباشرة دعوته الاصلاحية. وربما يكون الوحي لاحقا لهذه الدوافع، لا سابقا عليها. وقد شاء محمّد ليعطي رسالته بعدا سماويّا، ودعوة الهية، لينفذ بها الى قلوب سامعيه، ويوسّع دائرتها حتى ما وراء حدود الجزيرة العربيّة.

على هذا نستعرض السور القرآنية بحسب نزولها التاريخي ، معتمدين على ما اتّفق عليه المسلمون والمستشرقون في أبحاثهم عن "أسباب النزول" وعن "تاريخ القرآن"٠٠ فنرى ما هي أولى مواضيع الدعوة المحمّدية، وبالتالي نرى مدى وعي محمّد لدوره النبويّ ٠

فسورة العلق (رقم ٩٦ في مصحف عثمان) وهي السورة الأولى في تاريخ النزول ٠ نزلت في أبي جهل ، صاحب المال الكثير، بشهادة ابن المنذر عن أبي هريرة وابن جرير والترمذى عن ابن عبّاس٠ موضوعها : ان الرسول أوعد أبا جهل ، وندّد به، ووصف حاله، بأن "طغى" (آية ٦) عليه ماله، وكثر "غناه" (آية ٧) ، ونسي ، لكثرة ماله وأرزاقه، أنّ الى الله "الرجعى" (آية ٨) وحسن "المآب"٠ فراح أبو جهل "ينهي" النبيّ عن صلاته ودعوته (٩ـ١٠) ، ويهزأ به ٠٠٠ في هذه السورة يطعن محمّد بالغنى والأغنياء من خلال طعنه بأبي جهل ، ويندّد بالذى يتكل على ماله وثروته ٠ هذا قد ضلّ السبيل، ومنع الهدى عن الناس، ولا يهتمّ بيوم الدين حيث الحساب العسير والنار الموقدة التي "سيجرّ اليها بناصيته"(آية ١٥) ٠

وسورة المدّثر (رقم ٧٤) وهي الثانية في التاريخ ، نزلت في الوليد بن المغيرة صاحب "المال الممدود"(آية ١٢) ، والطامع منه بالمزيد (آية ١٥)٠ وقد عاند الرسول في رسالته (٢٣) ، واتّهمه بالسحر، وبأنّه يسعى لأغراض شخصية، فتوعّده النبيّ بالعذاب والارهاق صعودا ونزولا (١٧) ٠ وقد يتساءل المعذّبون في النار، أمثال الوليد ، عن الذى أوصلهم الى الجحيم ٠ فيجيبون أنفسهم بأنفسهم : "لـم نَكُ من المصلّين ٠ ولم نَكُ نُطعمُ المسكين ٠ وكنّا نخوضُ مع الخائضين (في الباطل وجمع الثروة) ٠ وكنّا نكذّبُ بيوم الدين" (٣٩ـ٤٠) ٠ هؤلاء لا تنفعهم شفاعة الأنبياء (٤٨) ، ولا يؤمنون بالكتب المنزلة(٥٢) ، لأنّ القرآن الذى يقرأه محمّد عليهم ليس هو الاّ "تذكرة"(٥٤ـ

٥٦) للانجيل الذى يورد منه هذه المعاني · وهو "الانجيل العبراني" الذى يحذو حذو انجيل متى ٢٥/ ٣٥ـ٤٦ ·

وسورة اللهب (رقم ١١١) ألثالثة في النزول، نزلت في عمّ النبيّ ، عبد العزّى ، الملقّب بأبي لهب· هذا كان لمحمد عدوّا لدودا ، لغناه وكثرة ماله وأرزاقه · لقد أهلكه مالُه في نارٍ ذاتِ لهب ، بسبب بخله وعدم اهتمامه باليتامى والمساكين ، أمثال ابن أخيه ، وأهلك معه امرأتَه ، أم جميل ، أخت أبي سفيان ، وستبقى معه في النار ، مشدودة في عنقها بحَبْلٍ من مَسَد ، أي من ليف متين · كلاهما يتعذّب بماله ، وبحبسِه الطعامَ عن الجائعين (١ـ٥) · في قصّة أبي لهب اشارةٌ الى قصّة غنيّ الانجيل (لوقا ١/ ١٩ـ٣١) الذى منع عن الفقير طعامه ·

سورة قريش (رقم ١٠٦) الرابعة في الزمن · نزلت في قبيلة قريش ، قبيلة النبيّ ، الغنيّة بالمال والثروة والتجارة الواسعة ، صيفا وشتاء ، فيما بين اليمن وبلاد الشام · وقد جمعت الاموال الطائلة والأرباح الباهظة · يذكّر النبيّ أهل قبيلته بأنّهم سدنة الكعبة ، وعليهم أن يعبدوا ربّها · فهو الذى "أطعمهم من جوع" ، وأغناهم بعد فقر ، وأمّنهم من خوف (آية ١ـ٤) ، ورزقهم من "واد غير ذى زرع" · لقد وفّر الله لهم الأموال بسبب قدسيّة البيت ، وسقايتهم حجّاجه ، وأمان الاشهر الحرم ، فيما غيرهم يُتَخَطَّفُ من أرضه · ومع هذا ، فهم ، على كثرة رزقهم ، لا يهتمّون بمسكين أو خليع جائع · وبدل أن تكون الكعبة بيت عبادة وصلاة ، أصبحت معهم بيت تجارة ومال (أنظر متى ٢١/ ١٣) ·

سورة الكوثر (رقم ١٠٨) السادسة في التاريخ ، نزلت في أميّة بن خلف الذى جمع مالا كثيرا (آية ٢) ، وحسب أنّ ماله سيخلده (آية ٣) · لقد ضلّ السبيل ، وسيطرحه الله في النار (آية ٤) ، وينبذه نبذا أبديا (٥ـ٩) · كان أميّة يهزأ بالنبيّ وَيَهْمَزُه وَيَلْمَزُه (آية ١) ، أى يعيبه ويعيّره لفقره وكثرة عياله ،

واتّباع الفقراء له دون الأغنياء ... تتوقّف هذه السورة على من يتّكل على ماله وكثرة بنيه، ويهزأ بالفقراء والمساكين . هذا نصيبه النار والهلاك الأبديين . وفيها أيضا دعوة الى الزهد في معرض ذمّ المال (أنظر مقابلتها في انجيل لوقا : ويل لكم أيّها الأغنياء، وفي انجيل متّى ، فصل ٢٧ بكامله) .

سورة الماعون (رقم ١٠٧) السابعة في تاريخ الوحي . نزلت في العاص ابن وائل الذى كان يدفع اليتيمَ بعنف (آية ٢) ، ويمنع الطعام عن المسكين (آية ٣) ، ويبطل عنهم الماعون، "أى ما يعوزهم من ابرة وفأس وقدر وقصعة" (تفسير الجلالين على آية ٧) . هذا وأمثاله لهم نار جهنم . وفي السورة أيضا ذكر على أنّ اطعام المساكين يعادل الصلاة الى الله . فمن لا يطعم المسكين كأنّه لا يصلّي ، أو كأنّه يصلّي وهو ساهٍ عن صلاته، أو كأنّه يخادع الناس (آية ٤ـ٦) . انّها سورة "الكذب العملي في الدين"[(١٢٤)] ، أو سورة الذين يمنعون الحاجةَ عن أهلها ، ويوقفون المساعدة عن المحتاجين اليها .

سورة التكاثر (رقم ١٠٢) الثامنة : "عن أبي حاتم عن ابن بريدة قال: نزلت في قبيلتين ... تفاخروا بكثرة الأموال والأولاد والرجال حتى الذين ماتوا منهم ودفنوا . وعدّوا الموتى تكاثرا ، وأحصوهم لزيادة أعدادهم والتفاخر بهم" . والسورة بمجملها "حملة على تفاخرهم بنعيم الدنيا دون الآخرة"[(١٢٥)] . وهي في حقّ الذين ينشغلون عن طاعة الله ومحبّته بكثرة المال والرجال والمفاخرة بعدد الأولاد .

سورة الفيل (رقم ١٠٥) التاسعة : نزلت في أبرهة، قائد الجيوش الحبشيّة الى اليمن ، ومنها الى مكّة، يريد صرف الحجّاج عن كعبتها الى كنيسة بناها في صنعاء، وذلك قصد منافسة مكّة في تجارتها وأموالها وأرباحها التي

---

(١٢٤) ألحداد ، القرآن والكتاب ٢/ ٣٨٥ حاشية ١ .
(١٢٥) المرجع نفسه، ٢/ ٣٨٤ .

تجنيها من موقعها ومقام الكعبة فيها ... في هذه السورة عبرة لأهل قريش الذين يحوّلون الكعبة الى سوق تجارة، كما قصد أبرهة، وسيضربهم الله كما ضرب أبرهة وجماعته . وفيها أيضا اشارة الى غنى مكّة ودورها التجاري ..

سورة الليل (رقم ٩٢) ألعاشرة . قيل نزلت في أبي بكر الصديق الذى أعتق "بَلالا" من الاضطهاد . فأبو بكر هو "الأتقى"، ومضطهدُ بَلال هو "الأشقى" . وفي السورة أيضا دعوة الى الاحسان: فمن يعطي من ماله احسانا يعطه الله أكثر ممّا يعطي . ومن يبخل بماله ستكون مجازاته النار . انّ المال لا يغني أحدًا (آية ١١)، بل الهدى واتّباع الصراط المستقيم هما غنى الانسان (آية ١٢) . والذي يسخو بماله يتزكّى بسخائه (آية ١٨) . ومن يعطي ممّا له فسيرضيه الله بالجنّة (آية ٢١) من أجل سخاء كفّه واحسان قلبه .

سورة البَلَد (رقم ٩٠) الحادية عشر: نزلت في أبي الأشدّ بن كلدة الذي ظنّ أنّه، لشدّة بطشه، لا يقدر عليه أحد، ولا يوازيه أحد بجمع المال واسرافه ايّاه على عداوة محمّد . الاّ أنّ الله يرى ذلك، ويجازيه على عمله السيّء . وسوء أبي الأشدّ في أنّه لم يحرّر أسيرا (آية ١٣)، ولم يطعم جائعا (١٤)، ولم يقرّب اليه يتيما (١٥)، ولم يرحم مسكينا (١٦) . فسوف لا يستطيع الافلات من نار جهنّم . في هذه السورة ".دعوة الى الزهد .. الى العدالة الاجتماعيّة .. والاصلاح الاجتماعي .." (١٢٦) .

سورة الانشراح (رقم ٩٤) الثانية عشر . قال السيوطي: "نزلت لمّا عيّر المشركون جماعةَ محمّد بالفقر" . من معانيها انّ الله فرّج عن ضيق محمّد وجماعته، وحطّ عنه ثقل الفقر والعسر، وشرح له صدره بزواجه من خديجة "سيّدة نساء قريش وأعظمهنّ شرفا وأكثرهنّ مالا" (١٢٧) ـ لا بالنبوّة، أو أعجوبة شقّ الصدر،

---

(١٢٦) الحداد، القرآن والكتاب، ٢/ ٣٩٤ حاشية ٧ .
(١٢٧) سيرة ابن هشام ١/ ١٩٩، الحلبية ١/ ١٤٧ .

كما يقول المسلمون ــ (آية ١ـ٢) . هذا الفقر الذى أثقل كاهل محمّد (٣) ، أصبح ، بعد زواجه من خديجة، غنى ، والعسر أصبح يسرا (٤ـ٦) . وبمقدور محمّد ، بعد هذا الانشراح (آية ١) أن يتفرّغ الى مهمّته الاصلاحية (٧ـ٨) . هذه السورة تصوّر وضع محمد بعد غناه، وتدعوه الى الاصلاح الاجتماعي ، والتفرّغ الى الصلاة والدعوة الى الله .

سورة الضحى (رقم ٩٣) ألثالثة عشر . يقال انّها نزلت على محمّد بعد انحباس الوحي عنه مدّة تتراوح بين سنتين وثلاث سنين . يعزّي الله فيها قلب رسوله بأنّه لم يتركه ولم ينسه ولم يبغضه (آية ٣) . بل على محمّد أن يصبر : قد تكون النهاية خيرا من البداية (٤) ، وسوف يعطيه الله أحسن ممّا أعطاه حتى الآن (٥) . وانقطاع الوحي كان بسبب موت القس ورقة الذي قال عنه صحيح البخارى : "ولم يَنشَبْ وَرَقَة أن توفّي وفَتَر الوحي".[١٢٨] . وأيضا بسبب موت خديجة التي "كانت له وزير صدق يشكو اليها" همومه[١٢٩] ، وموت عمّه أبي طالب الذى كان له "عضدا وحرزا في أمره، ومنعة ونصرا على قومه"[١٣٠] . ولكي يتأكّد محمّد بأنّ الله لا يتركه، فليتذكّر نعمة الله عليه في يتمه وفقره (آية ٦ـ٨) ، وكيف أغناه الله وهداه . واذا كان هذا الذي صنعه الله مع محمّد ، رغم يتمه وفقره، فعلى محمّد أن يصنع الشيء نفسه مع اليتامى والمساكين والسائلين منه عونا ورحمة (آية ٩ـ١١) .

سورة عَبس (رقم ٨٠) الرابعة عشر . فيها "عتاب للنبيّ الذى عبس في وجه أعمى وتولّى عنه، وتصدّى لمن استغنى من صناديد قريش"[١٣١]. ومعناها أنّ الذى كثر ماله وزادت عليه ثروته، أن يتبرّر بصنع الصدقة، ويفعل الحسنات

---

(١٢٨) صحيح البخارى بشرح الكرماني ، ١/ ٣٨ .
(١٢٩) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٥، أنظر ١/ ٢٢٤ .
(١٣٠) المرجع نفسه، ٢/ ٤٥ـ٤٦ .
(١٣١) ألحداد ، القرآن والكتاب ٢/ ٣٨٨ .

مع أصحاب الفاقة، فتغفر له ذنوبه (آية ٥ــ٧) . وان لم يفعل فعلى محمّد أن يتصدّى له، وأن لا يقبله في جملة أصحابه . وما هذه التعاليم سوى "تذكرة" (آية ١١) لما في الصحف الأولى (آية ١٣) حيث لا ينفع المال للفوز بالجنّة كما جاء في متى ٥/ ٣ . وعندما تكون الصيحة في اليوم الأخير، لا شيء يفيد الانسان، لا مال، لا أخ ، لا أب ، لا أم، لا صاحبة ولا بنون (آية ٣٣ــ٣٧) قابل مع متى ١٠/ ٢١ .

سورة القلم (رقم ٦٨) الثامنة عشر . نزلت في الوليد بن المغيرة صاحب الأموال الطائلة . وفيها قصّة أصحاب بستان حَرَموا من ثمارِه مساكينَ (آية ١٧ــ ٣٣) . ومفادها أن أصحاب البستان جاءوا الى البستان وقطفوا ثماره في الصباح الباكر حتى لا يشعر بمجيئهم المساكين، وكي لا يفيدوهم بثمرة من ثماره . فكان أن بلاهم الله وأحرقَ بستانهم ، فحرمهم منه كما حَرموا هم الفقراءَ من ثماره . ثم جاء واحد من أصحاب البستان ينصح رفاقَه بالتوبة، ويدعوهم للرجوع الى الله، فراحوا يلومون بعضُهم بعضًا على ما صنعوا بالفقراء ، وتابوا الى الله ليردّ لهم بستانهم . فكان لهم ذلك بعد توبتهم ، وبعد أن قرّروا اغاثة كل مسكين محروم . انّها سورة "منّاع الخير" عن أهله (آية ١١) . وهي تقابل مع ما ورد في متى عن العملة الذين أُرسلوا الى الكَرْمِ وعن أُجرتِهم (متى ٢٠/ ١ــ١٦) ، ومع مَثَلِ الكرّامين القتلة في الانجيل نفسِه (متى ٢١/ ٣٣ــ٤٥) .

سورة الأعلى (رقم ٨٧) التاسعة عشر . فيها اشارة الى ذكر الله الذي يعتني بالجميع . فهو "الذي أخرج المرعى" (آية ٤) ووفّر الغنى (آية ٨) للذين يؤمنون . ولكن ان فضّلَ هؤلاء المؤمنون الآخرةَ على الدنيا (آية ١٦ــ١٧) كما ورد في التوراة (آية ١٨ــ١٩) ، فيتطهّرون ويتزكّون ممّا بين أيديهم (آية ١٤) . أنّها سورة الصلاة والايمان والعمل الصالح .

******

وهكذا تتوالى السور المكيّة الأولى ، في ما بين سنة ٦١٠ و٦١٥ ، في موضوعها العام الذى تعبّر عنه هذه الآية المردّدة والمكرّرة على لسان محمّد ، أحسن تعبير . تقول : " الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون " . وقد جاءت مثلا في سورة التين (رقم ٩٥) ورقم نزولها ٢٠ ، وسورة العصر (رقم ١٠٣) ونزولها ٢١ ، وسورة البروج (رقم ٨٥) ونزولها ٢٢ ، وسورة المزمّل (رقم ٧٣) ونزولها ٢٣ ، وسورة القارعة (رقم ١٠١) ونزولها ٢٤ ، وسورة الزلزال (رقم ٩٩) ونزولها ٢٥ ، وسورة الانشقاق (رقم ٨٤) ونزولها ٢٩ ... الى ما هنالك ... وكلّها تعلّم : لا يدخل الجنّة الاّ من عمل حسنة أو عملا صالحا مع اليتامى والمساكين والفقراء وغيرهم من أصحاب الحاجة .

ويسترعي انتباهنا ما جاء في سورة الفجر (رقم ٨٩) وهي الخامسة والثلاثون في تاريخ النزول . جاء فيها قولها بحرفيّته عن تجّار مكّة الذين ظنّوا أنّ الكرامة بكثرة المال والاهانة بالفقر والعوز (آية ١٥ــ١٦) ، يجيبهم القرآن على هذه البدعة بقوله : "كلّا . بل لا تكرمون اليتيم . ولا تحاضّون على طعام المسكين . وتأكلون التراث (الميراث) أكلا لمّا (شديدا) . وتحبّون المال حبّا جمّا " (آية ١٧ــ٢٠) .. هؤلاء ، عندما يواجهون ربّهم ، سيقول كل واحد منهم ، نادما على ما لم يصنعه من خير مع الفقراء : " يا ليتني قدّمت لحياتي " الخير والايمان والاعمال الصالحة وأعمال البرّ (آية ٢٤) . ولكن ، وبكونهم لم يفعلوا ، لا بدّ من العذاب لهم (آية ٢٥ــ٢٦) .. تذكّرنا هذه السورة بقول الانجيل " طوبى لكم أيّها المساكين فانّ لكم ملكوت الله .. ويل لكم ايّها الاغنياء قد نلتم عزاءكم " (لوقا ٦/ ٢٠ و ٢١) [(١٣٢)] .

ثم نرى في سورة المطفّفين (رقم ٨٣) وهي السابعة والثلاثون قوله : " ويل للمطفّفين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون ، واذا كالوهم أو وزنوهم

---

(١٣٢) انظر الحداد ، المرجع المذكور آنفا ، ٢/ ٣٨٢ .

يخسرون "(آية ١ـ٣) ٠ ثم يحذّرهم محمّد من يوم عظيم اذا ما استمرّوا على التلاعب بالموازين ٠ وكثيرا ما عاد الى تحذير تجّار مكّة من هذا الغش العظيم في المكاييل(١٣٣) ٠

وفي سورة الحاقة (رقم ٦٩) ، الثامنة والثلاثون ، انّ الذين عملوا حسنة يعيشون في جنّة عالية وفي عيشة راضية (آية ٩ـ٢٤) ٠ والذين يهلكون هم المتّكلون على مالهم الذي لم يغنهم شيئا (آية ٢٨ـ٢٩) ٠ هؤلاء سيسمعون صوت الله يقول عن كل واحد منهم : "خذوه فغلّوه ، ثم الجحيم صلّوه ٠٠ انّه كان لا يؤمن بالله العظيم ، ولا يحضّ على طعام المسكين ٠ فليس له اليوم ههنا حميم (صديق) ٠ ولا طعامٌ الاّ من غسلين" (طعام مرّخاص بأهل الجحيم) (آية ٣٠ـ٣٦) ٠ لهذه السورة شبه كبير بالاناجيل الازائيّة(١٣٤) ، حيث النار الابديّة معدّة للذين لم يصنعوا برّا مع أحد الفقراء ٠

وفي سورة الذاريات (رقم ٥١) التاسعة والثلاثون نقرأ "انّ المتّقين في جنّات وعيون ٠٠ انّهم كانوا قبل ذلك محسنين ٠٠ وفي أموالهم حقّ للسائل والمحروم "(آية ١٥ـ١٩) ٠ وفي سورة الواقعة (رقم ٥٦) الواحدة والاربعون نرى "أصحاب الشمال ٠٠ في سموم وحميم ٠٠ انّهم كانوا قبل ذلك مترفين" (آية ٤١ـ٤٥) ، وهي سورة الهالكين بسبب غناهم وترفهم على حساب الفقراء ٠ قابل مع متى ٢٥/٣٢ ٠ وفي سورة المعارج (رقم ٧٠) الثانية والاربعون ، وهي سورة المخلّصين بسبب أنّ "في أموالهم حقّ معلوم للسائل والمحروم" (آية ٢٤ـ٢٥) ٠ وسورة الرحمن (رقم ٥٥) الثالثة والاربعون وهي كسورة المطففين في معانيها ٠ وسورة الدهر (رقم ٧٦) حيث أسباب الخلاص للمتّقين تقوم على كونهم كانوا "يطعمون الطعام على حبّه مسكينا ويتيما وأسيرا" ٠ (وكانوا يقولون

---

(١٣٣) أنظر القرآن: ١٧/ ٣٥، ٢٦/ ١٨١، ١١/ ٨٤ و ٨٥، ٦/ ١٥٢ ٠٠ الخ٠٠
(١٣٤) انظر متى ٨/ ١٢، ٢٤/ ٥١، ٢٥/ ٣٠، لوقا ١٠/ ١٦ ٠٠٠

لهم) : انّما نطعمكم لوجه الله · لا نريد منكم جزاء ولا شكورا (آية ٨ــ٩) · فوقّاهم الله الهلاك (آية ١١) وأجزاهم الجنّة وما فيها من خيرات وملذّات (آية ١٢ــ١٣) ·

وفي سورة الاسراء (رقم ١٧) ذكر للوصايا العشر ، كما في سورة الانعام (٦/ ١٥١ــ١٥٣) حيث وصية جديدة ، وهي : "لا تقربوا مال اليتيم الاّ بالتي هي أحسن" (آية ٣٤) · وفيها ايضا : "وآت ذا القربى حقّه ، والمسكين ، وابن السبيل ·· ولا تجعل يدك مغلولة (أى قابضة بخيلة) ·· ولا تقتلوا أولادكم خشية الاملاق (الجوع) ·· وأوفوا الكيل اذا كلتم ··" (آية ٢٦ــ٣٥) ·· وغير ذلك من وصايا هي معظمها ، في حقّ الفقراء والمساكين واليتامى ·· أى في معرض اصلاح وضع اجتماعي فاسد ·

******

وهكذا استمرّت دعوة محمّد الاصلاحية ، طوال العهد المكي ، أى ١٣ سنة ، وقد توقّفنا على المرحلة الأولى منها ، أى ما بين سنة ٦١٠ و٦١٥ · ولكن ، لم تبرح تعاليمه هي هي في جميع مراحل القرآن ، وان باسلوب متنوع مختلف · ولن نترك هذه التعاليم تفلت منّا ، فنهملها · فهي لنا برهان واضح أكيد على طبيعة دعوة محمّد الاصلاحيّة ·

جاء في سورة النساء ٤/ ٣٦ــ٤٠ : "اعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين احسانا ، وبذى القربى ، واليتامى ، والمساكين ، والجار ذى القربى ، والجار الجنب (البعيد) ، والصاحب بالجنب (الرفيق) ، وابن السبيل ، وما ملكت أيمانكم (من أرقاء وعبيد) · انّ الله لا يحبّ من كان مختالا فخورا" (بماله وغناه) · ومثلها ما جاء في سورة البقرة ٢/ ٨٣ ، وسورة الروم ٣٠/ ٣٨ (١٣٥) ·

(١٣٥) أنظر أيضا : ٢/ ١٧٧ ، ٢١٥ ··· وغيرها ·

وفي دعوة محمّد من يتخلّف عن واجب ديني فعليه أن يعوّض عن تخلّفه بفعل حسنة مع مسكين ما · "فمن لم يستطع (الصيام مثلا) فاطعام ستين مسكينا"(١٣٦) ، أو أقلّه يتوجّب "على الذى (لا) يطيقونه (الصيام) فدية طعام مسكين"(١٣٧) ... والذى يرتكب كبيرة أو صغيرة في حقّ ايمانه "فكفّارته اطعام عشرة مساكين"(١٣٨) ... وكذلك الذى يصنع منكراء فيتصيّد بحجّ أو بعمرة، مثلا، "فكفّارة طعام مساكين"(١٣٩) ...

وأعظم ذنب يقترفه انسان هو أن يأكل مال اليتامى ، فكأنّه، بعمله هذا، يأكل في بطنه نارا ، ويصنع شرّا كبيرا · وحظّه في الآخرة هلاك نفسه : "آتوا اليتامى أموالهم ·· ولا تأكلوا أموالهم ·· انّه كان حوبا (ذنبا) كبيرا"(١٤٠) ، و "انّ الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انّما يأكلون في بطونهم نارا · وسيصلون سعيرا"(١٤١) ...

ثمّ تجلّت دعوة محمّد الاصلاحيّة في ما وضعه من شرائع وقوانين لدولة اسلاميّة يحفظ فيها حقّ اليتيم والمسكين · فسعى ، أوّل ما سعى ، الى الحدّ من طغيان الأغنياء وأصحاب الثروة، ففرض بأن يكون عليهم للمساكين حصّة من ثروتهم ، سمّيت "الزكاة"، وقد جعلها أحد أركان عقيدته، كما رأينا · وقد عيّن القرآن الذين يستفيدون من "الزكاة" و "الصدقات"، فاذا هي "للفقراء ، والمساكين، والعاملين عليها ، والمؤلّفة قلوبهم ، وفي الرقاب ، والغارمين ، وفي سبيل الله، وابن السبيل · فريضة الله"(١٤٢) ·

---

(١٣٦) سورة ٥٨/ ٤ ·
(١٣٧) سورة ٢/ ١٨٤ ·
(١٣٨) سورة ٥/ ٨٩ ·
(١٣٩) سورة ٥/ ٩٥ ·
(١٤٠) سورة ٤/ ٢ ·
(١٤١) سورة ٤/ ١٠ ·

(١٤٢) سورة ٩/ ٦٠ : ألفقراء هم الذين لا يجدون ما يقع موقعا من كفايتهم ، ألمساكين الذين لا يجدون ما يكفيهم ، العاملين عليها من جاب وقاسم وكاتب وحاشر، المؤلّفة قلوبهم ليُسلموا ، الرقاب أي فكّها ، الغارمين أهل الدَين ... ألخ ·

ثمّ منع الرسول تكديس الأرزاق والأموال في أيد قليلة من الناس ، وذلك للحدّ من الخلافات والفروقات بين طبقات المجتمع. فسنّ قوانين ، في كيفيّة توزيع الثروة و"الارث"، لا يزال يعمل بها حتى اليوم. فدعا الى اشراك الاولاد والزوجات والاخوة والاخوات في كل شيء. ويخصّ بالذكر، في شريعته، اليتامى والمساكين. فيقول : "اذا حضر القسمة (قسمة الميراث) أولو القربى ، واليتامى ، والمساكين، فارزقوهم منه. وقولوا لهم قولا معروفا"(١٤٣) .

وكذلك دعا الغزاة والمجاهدين الى أن يشركوا معهم في غنائم الحرب المستضعفين الذين لم يتمكّنوا من الغزو والجهاد. فقال : "واعلموا : أنّ ما غنمتم من شيء، فانّ لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل"(١٤٤) .. ثم دعا الى توزيع "الفيء" كلّه على المعوزين. والفيء هو ما يؤخذ بدون قتال(١٤٥) .

وكذلك أيضا منع كنز الأموال واحتكارها. وتوعّد المحتكرين بأنّ أموالهم المكدّسة ستكون عليهم في الآخرة نارا وسعيرا تحرق أجسامهم وتأكل أعضاءهم : "والذين يكتنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشّرهم بعذاب أليم. يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى جباههم وجنوبهم وظهورهم. هذا ما كنزتم لأنفسكم. فذوقوا ما كنتم تكنزون"(١٤٦) .

... كل ذلك. وغير ذلك، من شرائع في الزواج ، والسرقة، والزنى ، والجهاد ، والدية، والارث ،... كان في سبيل اصلاح مجتمع اختبر محمّد فساده.

---

(١٤٣) سورة ٤/ ٨ .
(١٤٤) سورة ٨/ ٤١ .
(١٤٥) سورة ٥٩/ ٧ .
(١٤٦) سورة ٩/ ٣٤ .

خاتمة الفصل السادس

لم تبرح صورة اليتم والفقر والحالة العسيرة من مخيّلة محمّد طوال دعوة محمّد الاصلاحيّة. وكانت هذه الصورة لا تزال حيّة قويّة في العهد المكّي الأوّل، أى من مبعثه حتى الهجرة الأولى الى الحبشة (٦١٠-٦١٥م) ... واذا أردنا أن نصف القرآن المكّي هذا، قبل الهجرة الحبشيّة، لاستطعنا وصفه بـ" قرآن اليتامى ". ونعني بذلك: انّ كل ما في القرآن المكّي، من تعاليم ومواقف، اجتماعيّة كانت أم عقائدية دينية، هي في سبيل العناية والاهتمام بهؤلاء المساكين الفقراء اليتامى، وقد اختبر محمّد في نفسه كل هذه الحالات.

وليس علينا، والحالة هذه، أن نجحف بحقّ القرآن وتعاليمه الدينية، لأنّ محمّدا عرف أن يقدّم لنا الأمور الماورائيّة في معرض كلامه على أمور أرضيّة حياتيّة واجتماعيّة، هي في غاية الأهمّية والخطورة. وليس هذا بالأمر العجب، فتربية محمّد كانت "إبيونيّة"، في بيت جدّه، وعمّه، وفي رعاية القس ورقة بن نوفل، رئيس " الابيونيين "، " الحنيفيين "، في مكّة. وكانت تعاليم الابيونيّة في العناية بالفقراء تتغلّب على ما سواها من تعاليم. وقد جاء كتابنا " قس ونبيّ " دليلا كافيا وساطعا على هذه الناحية الهامّة ...

ولم يمض العهد الأوّل على محمّد وصحابته بخير وسلام. لقد اضطهدتهم قريش، وطردتهم، فرحلوا الى الحبشة مرّة ثانية. وتحمّلوا في رحيلهم المشقّات. فما كان على محمّد، في بدء العهد الثاني (٦١٥-٦٢٠م)، الاّ أن يشدّد من عزائم أصحابه، ويعدهم بخيرات سماوية ينالونها مكافأة لتصبّرهم. ولم يكن لمحمّد من خيرات الأرض شيء حتى يعدهم به. وكان أخصّ ما وعدهم به،

بعد رجوعهم الى مكّة، بزواجهم الميمون بـ "حور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون" (١٤٧) . وفي العهد الثالث (٦٢٠-٦٢٢م) وعدهم بـ "جنّات تجرى من تحتها الأنهار" (١٤٨) . وفي بداية عهدهم بالمدينة، وعدهم بـ "مغانم كثيرة" (١٤٩) ، وذلك بعد أن أصبح لديه منها نصيب، بسبب غزواته وسراياه.

ويبدو أنّ المسلمين الأوّلين ما كانوا ليتحمّسوا للجهاد والفتح لو لم تأخذ هذه المواعيد المنتظرة بألبابهم وعقولهم. وقد حفظ لنا التاريخ بعضَ أقوال تشير الى الدوافع العميقة التي استحثّت المقاتلين للحرب والجهاد حتى الشهادة والاستشهاد. فها هو عكرمة بن أبي جهل، في معركة حمص، يشرح لنا سبب قتاله المستميت، ويقول: "انّي أرى الحورَ متشوّقاتٍ اليّ. ولو بَدَتْ واحدةً منهنّ لأهل الدنيا لأغنتْهم عن الشمسِ والقمر. ولقد صدقنا رسولُ الله في ما وَعَدَنا" (١٥٠) . وها هو أيضا أبو هريرة يحرّضُ قومه على القتال ويقول: "يا أيّها الناس! سارعوا الى معانقة الحور العِين في جوار ربّ العالمِين" (١٥١) . وكأنّ كلمة السرّ في القتال كانت عندهم: "أطعنوا الصدور تنالوا الحُور. وشرّعوا الأسنّة تنالوا الجنّة" (١٥٢) .

ويحاول علماء المسلمين تفسير استماتة الفاتحين بما ينتظرهم في الجنّة من طيّبات وشهوات. فأبو هريرة يفسّر لنا، مثلا، فَرَحَ غلامٍ مسلمٍ قتيل، فيقول: "نظرتُ الى الغلامِ، عندما سقَط وهو يشيرُ باصبعِه نحو السَّماءِ، ولم يَهُـــلْهُ

---

(١٤٧) القرآن: ٥٦/ ٢٢، ٢٠/٥٢، ٤٤/ ٥٤، ٣٧/ ٤٨ ...
(١٤٨) يرد تعبير "جنّات تجرى من تحتها الانهار" أكثر من خمسين مرّة...
(١٤٩) القرآن: ٤/ ٩٤، ٤٨/ ١٩ و ٢٠ . أنظر المراجع في مكان آخر من البحث.
(١٥٠) الواقدى (+ ٢٠٧هـ) فتوح الشام، ١/ ١٥٧ .
(١٥١) المرجع نفسه، ١/ ٢٠٦، ٢١١ .
(١٥٢) المرجع نفسه، ١/ ٢١٩، ٢٨٤ .

ما لحقه، فعلمتُ أنّ ذلك لفرحه بما عاين من الحور العين"(١٥٣) . وغلام آخر يشهد ويقول : "رأيتُ في احدى القبّتين (في الجنّة) حُورا لو برزنَ لأهل الدنيا لماتوا شوقًا اليهنّ"(١٥٤) .

ثم ذهب علماء الصحابة، الموثوق بهم وبكلامهم، كالمقداد، ومعاذ ابن جبل، وغيرهما، يحمّسون الفاتحين على دخول بلاد النوبة والسودان، قائلين : "معاشر المسلمين! اعلموا أنّ الجنان قد فُتحتْ، والملائكة قد أشرفتْ، والحُور تزيّنتْ، وأشرفتْ من الجنان"(١٥٥) . ثم يحرّضونهم على خوض القتال : "أبشروا بالحور والولدان في غرفات الجنان . وانّ الجنّة تحت ظلال سيوفكم"(١٥٦) .

لكنّنا في الحقيقة نسأل : هل هذا من صميم دعوة محمّد، أم من دعوة المسلمين لأجل حماسة الفاتحين؟ مع أنّنا نعلم أنّ هذه التعاليم وأمثالها يزخر بها القرآن، المكّي والمدني، على السواء . ولكن، يحق لنا أن نسأل أيضا : هل هي من جوهر الدعوة المحمّدية، أم أضيفت على القرآن من عهد الفتوحات، لترغّب الفاتحين في جهادهم وقتالهم، وتبرّر ارتخاءهم أمام فتيات الفرس والروم؟ ومواصفات الحُوريات كمواصفاتِ هذه الفتيات في كل حال . ومن أين للنبيّ أن يصفهنّ بما لم ير شيئا منهنّ! اللهّم الاّ اذا كان لاوعيه، منذ رحلات طفولته الى الشام، ما زال يعمل فيه .

ومع هذا، تبقى هذه الأمور جانبيّة وثانويّة بالنسبة الينا والى القرآن . ألمهمّ في دعوة محمّد، لا ما يركّز عليه المسلمون الفاتحون، أو اذا شئت

---

(١٥٣) فتوح الشام، ١/ ٢٢٥ .
(١٥٤) المرجع نفسه، ٢/ ٨٨ .
(١٥٥) المرجع نفسه، ٢/ ٢٤٣ .
(١٥٦) المرجع نفسه، ٢/ ٢٥٩ .

المسلمون القرآنيون، نسبة الى القرآن الذى جمع في عهد الفتوحات، لانّ في القرآن العثماني منها ما يجعلنا نضلّ عن تعليم القرآن المحمّدي . . . المهمّ اذا بالنسبة الينا ما جاء به محمّد من تعاليم، لا ما حلا لعثمان ولجانِ جمعِ القرآن تدوينُه . ولكي نعرف ذلك، لا بدّ لنا من الرجوع الى الدافع الأساسي في بدء الدعوة .

والدافع الأوّلي، ينبت، في كل حال، من عمق شعور شخصيّة الداعي . وفي عمق شخصيّة محمّد، كما يشير القرآن نفسه، فقر ويتم وعسر وحرمان . والذى دفع هذا الشعور الشخصي العميق الى الانفعال وضع مجتمع مكّة . فتلاقى بذلك، في بدء البعثة المحمّدية، دافعان : دافع حرمان شخصي رهيب، ودافع جوع في طبقة "الأذلّة" أرهب . فما تكون النتائج اذن غير ثورة، وجهاد، وتعليم رفيع في حماية الجائعين !!

خَاتِمَةُ البَحْث

نَبِيّ الرَّحمة وقرْآن الشَريعَة

ثـــلاثون قضيّة بحثنا فيها، ووضعناها كمشكلات أمام أعيننـا لا كمسلّمات. انطلقنا من الشك الى المعرفة. ولا ندّعي أنّنا، فيما توصّلنا اليـه، حصلنا على اليقين. وأنت، ان عرفت، شككت، وبعد الشك واظب معنا على البحث عن الحقيقة. وان كانت هذه القضايا، عندك، من المسلّمات، ولا تريد البحث فيها، فلنا منك أمنية: أن تؤمن بحرّيتك العقليّة، وأن تؤمن بـأنّ اللـه سيفاجئك في منعطف من منعطفات الحرّية. فلا تخف عـلى اللـه اذن. بل خف على حرّيتك من اله جعلته في قبضة عقلك ويديك.

ثـــلاثون قضيّة عالجناها برويّة وهدوء وحرّية. لا خوفا على الله، ولا انكارا للوحي، بل محبّة بالانسان الحرّ، وسعيا حثيثا متواصلا نحو المعرفة، معرفة المعطيات التاريخيّة، والجغرافيّة، والدينية، والاجتماعية، والاقتصاديّة. واذا عجزتْ هذه المعطيات عن أن توفّر لنا بعض المعرفة، فالله قريب. وايماننا بالوحي، والنبوّة، والرسالة، والدعوة، والعصمة، والكتاب المنزل، والشـريعة الالهيّة،... لا يزال حيّا. فالله مجيب. واعتقادنا بـ"الدين الذى ارتضاه الله" لعباده الصالحين، لا بدّ من أن يكون "الاسلام". فالله سميع.

ثـــلاثون قضيّة حاولنا معرفتها، دون أن نكفّ عن البحث المتواصـل فيها. فلا تكفّ أنت أيضا. ولا تأخذ منها موقفا، لا قابلا بها ولا رافضا لها. جلّ همّنا أن نكون وايّاك أحرارا، أحرارا في العقل وفي الممارسة، أحـرارا من نظريّة "الشعب المختار". فالله، ان كان حقا، لا يؤثر شعبا عـلى حساب شعب، ولا يرذل شعبا ويحبّ آخرين. كلّنا أمام الله ضارع ليعطينـا

نعمة البحث عنه، ويرفع عنّا، بنعمته، رذيلة "الاطمئنان" اليه. وخشيتنا أن تكون عصمة الانسان المتديّن، في اطمئنانه، تضاهي عصمة الأنبياء. لكنّ فرقا عميقا بين العصمتين: عصمة المتديّن في ارتياحه واسترخائه، وعصمة الأنبياء جعلت من كل واحد منهم "أنسان خصام ونزاع للأرض كلّها" (ارميا ١٠/٥).

فلا نطمئنّ اذن لئلا نكون من عصبة المعصومين. وشيطان هذا الدهر لا يريد منّا أكثر من ذلك. فمن أين تدخل نعمة الله وشيطان العصمة رابض على الأبواب! واليك الدليل: لكي يحظى انسان خيّر محبّ بنعمة القداسة يتوجّب عليه: الزهد، والتقشّف، والابتعاد عن شهوات الجسد وملذّاته، والتخلّي عن مباهج العالم ومغرياته، وعذاب نفسه بالألم والدموع، وتجنّب الأميال والأهواء.. وبكلمة تحمل عند المسيحيين بعدها، وهي كلمة "الصليب". فكيف اذن يحصل الانسان على الله بعقل مطمئنّ، دون "صليب"! وأنت تعلم الآن لماذا "الشعب المختار"، وأبناء "المعصومين" المطمئنّين قد "صلبوا" المسيح! ألجواب: لأنّهم مطمئنّون، فيما هو يقلقهم.

كلّ مرّة يظنّ الانسان نفسه مطمئنّا معصوما، يمارس عمليّة "الصلب" لا محالة. ولا أحد "يصلب" غير الذى يظنّ نفسه من أبناء "شعب الله المختار". ولا أحد يستطيع أن "يصلب" غير هؤلاء. وكم وكم من شعب يرى نفسه مختارا في هذه الأرض! ومصيبة الأرض بهم. هل يترك لنا هؤلاء نافذة لنرى بدورنا وجه الله! أم أنّهم لله محتكرون! ومن احتكر الله أيتورّع عن احتكار خيرات الأرض! أيستطيع أن يكون محبّا؟ منفتحا؟ متواضعا؟ خيّرا؟ يصعب ذلك.

ولا تظنّن أنّ اليهود وحدهم ألّفوا "شعب الله المختار". هؤلاء قد لا يكونون شرّا من سواهم، لأنّ أمرهم معروف، وعمليّة "الصلب" نفّذوها حتى النهاية. وهم على النهاية مشرفون. وقد لا تكون مديدة... ألدروز أيضا يؤلّفون "شعبا مختارا"، أوصدوا عليهم الأبواب، ومنعوا غيرهم من الدخول

اليهم، ورصدوا على "الحكمة" في الستر المهول، وادّعوا "المعرفة" لِيُبْقُوا غيرَهم في الجهل. فاحتكروا "الله"، وحجزوا عليه في خلواتهم ... هؤلاء أيضا يمارسون "الصلب"، لانّهم كذلك، أي لأنّهم "عصموا" أنفسهم واطمأنّوا، واعتصموا في الجبال لطمأنينتهم. ولطمأنينتهم هذه لوّنوا الجبل بالدم الأحمر. ولئن لم يكن لهم "مسيح" يصلبوه، لكنّ لهم "مسيحيين" معدّين للصلب والذبح كل حين. والمسيحيون، في كل حال، يكمّلون نزاع المسيح الأبدي.

ما زلنا مع "المعصومين"، "المطمئنّين"، "المرتاحين"، "المسترخين". لم يكن محمّد من بين هؤلاء، لكنّ هؤلاء جعلوه منهم وبينهم. ولو كان منهم لما انفعل لأوضاع جنّ بها جنونه. أعداء محمّد هم "آكلو أموال اليتامى ظلما"، وأعداء أتباع محمّد هم "المجاهدون" "الفاتحون" باسم الله. وكلام محمّد لهؤلاء: من أقامكم على الله مدافعين! أيُظْلَمُ عبادُ الله لأجلِ الله! والذين "صلبوا" محمّدا ليسوا "كفّار قريش"، بل الذين اتّبعوه. وهذا خطرهم. ولو كانوا "شعبا مختارا" لبان شرّهم. لكنّهم "أمّة" أنزلتِ الله، أو كلامَ الله، في "كتاب لا يصلب". وهذه عثرتنا معهم.

ثلاثون قضيّة تواجه "كتابا لا يصلب"، فكيف لا يكون أتباعه "مطمئنّين"؟! فيه حقائق الهية أزلية أبدية، نزلت الواحدة بعد الواحدة، فسمّرت الدهر، وجمّدت الدم في عروقه. وقد لا يكون عند الله حقائقُ غيرها ينزّلها، لئلا يكون ظالما. وحاشاه من ذلك. ولكنّنا نحمده عليها، فهي لنا كفاية. "جبريل نزل والانسان كفر! نعوذ بالله". ولو كان في الكتاب الذي نزّله جبريل بعضُ اللين، كما كان لمحمّد، لفرّ الكتابُ وهجر، كما فرّ محمّد من قريش وهجر. ولكن، من أين للكتاب أن يلين، وفيه "الحقّ اليقين" (٦٩/ ٥١)؟ وكيف للحقّ اليقين أن لا يسحب وراءه "مطمئنّين"؟ وهذه أيضا عثرتنا، مع الكتاب لا مع صاحبه، بل مع "المطمئنّين" الى ما في الكتاب من حقائق منزلة.

سيرة محمّد سيرة انسان أدّى رسالة، وعاش حياة مضطربة في كل نواحيها ومستواياتها : بين فقر وغنى ، وضلالة وهدى (٩٣/ ٦ ـ ٨) ، وكعبة ذات آلهة عديدة، ومجتمع يتناحر فيه أعزّة وأذلّة، وقبيلة فيها "كفّار" كما فيها "حمس"، ومدينة تجارية كمكّة، وثانية زراعية صناعيّة كيثرب ، وهجرات متتالية من مكان الى آخر، واضطهاد متواصل، وغزوات في كلّ اتّجاه، ونساء ثيّبات تتجاذب قلبه، وتتنافس غيرة وضغينة، ويهود تربّصوا به شرّا ، وأحزاب نصرانيّة شاء توحيدها ... لم يكن محمّد "مطمئنّا"، ولم ينم على ديباج وحرير...

أمّا تبّاع محمّد فهم "مسلمون". مسلمون "مطمئنّون"، "مستسلمون" لما في "الكتاب الذى لا يصلب"، من نبوّة هي خاتمة النبوّات، ورسالة هي كمال الرسالات، وشريعة هي تمام الشرائع ، وكتاب فيه "الحقّ اليقين"، وعقيدة لا يشوبها أيّ، ويقين ليس فيه من الشك هنة، وحقائق منزلة لا يداخلها ارتياب ، وعصمة في كل المستويات : في اللغة، والبلاغة، والايجاز، والتعبير، والاسلوب، والاعجاز... هؤلاء هم "المطمئنّون"، "القرآنيّون".. فكيف يكونون اذن "محمّديين"؟ ! والاختلاف بين الاثنين يكمن في الصميم !

لم يأت محمّد بدين جديد ، ولا بتعاليم لم تستلهم مجتمعه. ولم يكن في خلده أن يكون رسولا الى غير جماعته وقومه. ولم يدعُ يوما الى اله غير اله بني اسرائيل. ولم يع أنّه نبيّ على مستوى موسى وعيسى ، أقلّه في مكّة. ولم تضطهده قريش "لأنّه سفّه" آلهتها ، بقدر ما اضطهدته ولاحقته لأنّه سفّه تجّارها وأعزّتها. ولم يهجر الى يثرب بسبب وحي جديد ، بقدر ما هجر بسبب "اليتامى والمساكين". ولم يغزُ في سبيل الله، بقدر ما غزا في سبيل المغانم وقوافل التجارة المحمّلة ليستولي عليها ويرفع من شأن فقرائه الأذلّة...

أمّا "المسلمون" فجعلوا كل حركة من حركات محمّد الهاما ونبوّة ووحيا. وجعلوا ثورته الاجتماعية دعوة في سبيل الله، واعتبروا تعاليمه تنزيلا من السماء،

فيما هي تعاليم اصلاحيّة لمجتمع فاسد بأمّه وأبيه . وقالوا بأنّ محمّدا رسول الله الى العالمين، فيما هو أرادهم رسلا لمجتمع يكونون فيه خيّرين محسنين . وأرادوا الاسلام دينا ارتضاه الله للناس أجمعين، بينما شاءه هو حضارة ومدنيّة وثورة على مفاسد اجتماعيّة ظُلِم فيها كثيرون .

فـ "القول بأنّ الاسلام فكرة دينيّة محضة، وأنّ ظهوره وتغلّبه على وثنية العرب (؟) وانتشاره السريع بين أكثر أمم الشرق، وفتوحات الخلفاء الراشدين وبني أميّة الواسعة، ترجع الى الحماسة الدينية، أو التعصّب الديني، يُعَدُّ اليومَ قولاً جزافا بعيدا عمّا أثبتته الأبحاث التاريخيّة والاقتصادية، كأبحاث الاستاذ فيلهوزن والأمير كايتاني والاستاذ لامنس ونولدكه وعضو أكاديميّة بطرسبرج بارتولد، وغيرهم، فقد أصبح اليوم من المقرّر أنّ الاسلام، كغيره من الأديان الكبيرة، ليس فقط فكرة دينية، بل مسألة اقتصاديّة واجتماعيّة أيضا، أو بالأحرى هو مسألة اقتصادية واجتماعيّة أكثر منه فكرة دينية .

قال الأمير كايتاني : "انّ الاسلام لم يكن حركة دينيّة، اذ لم يكن فيه دينيّا الاّ الظاهر، أمّا الجوهر فانّه كان سياسيّا واقتصاديا". ومن فضل مؤسّس الدين الاسلامي ومظاهر عبقريته أنّه أدرك مصدر الحركة الاقتصاديّة والاجتماعيّة التي ظهرت في أيّامه في مكّة عاصمة الحجاز، وعرف كيف يستفيد منها ويسخّرها لأغراضه السامية، دينيّة كانت أو اجتماعيّة .

يظنّ كايتاني أنّ "الاسلام هو آخر مهاجرة هاجرها العرب، وأنّ الدافع اليها هو ما كان يدفع سابقا الى مثلها في جزيرة العرب، أى جفاف أرضهم المستمرّ، وما يتبع ذلك من الضيق والفقر".

ويقول المستشرق الهولاندي كوخيه : "انّ الداعي الى ظهور الحركة الاسلاميّة هو الدين، الاّ أنّ القبائل العربيّة، وسكّان مكّة والمدينة، أقبلوا

عليه، ودخلوا فيه، لأسباب غير دينيّة".

ومعنى ذلك أنّ صاحب الدين الاسلامي استعمل الدين، كغيره من أصحاب الأديان الكبيرة، قبله وبعده، واسطة للوصول الى أغراض أخرى لا علاقة لها بالدين أصلاً، أو لها علاقة ضعيفة.

على كلّ، لا ريب في أنّ الحركة الاسلاميّة بنت عصرها، ووليدة ذلك الوسط الاجتماعي الذى تكوّن في مكّة في أواخر الجيل السادس بعد المسيح. فاذا أردنا أن نقف على منشأ تلك الحركة التي أدّت الى ظهور الاسلام، لا بدّ لنا من معرفة ذلك الوسط وتلك الأسس الاجتماعيّة التي قامت عليها حياة مكّة، وما يجاورها من بلاد الحجاز"(١). وهذا ما حصل.

وما حصل أثبتناه في ثلاثين قضيّة، اعتبرناها معطيات لا مسلّمات. ولا بدّ لنا من التذكير بها وإعلان النتائج :

١" ـ مكّة "واد غير ذى زرع". طبيعة فقيرة. أرض قاحلة. جفاف عامّ.

٢" ـ مكّة عوّضت عن فقر طبيعتها بموقعها الجغرافي التجارى الهام.

٣" ـ مجتمع مكّة هو مجتمع تجاريّ، لا زراعي ولا صناعي. مجتمع حركة.

٤" ـ في كل مجتمع تجارى طبقتان : أغنياء وفقراء. لا حدّ وسط بينهما يحفظ توازنا أو اعتدالا.

٥" ـ قريش، قبيلة محمّد، كلّها كانت "تجارا"، وجلّهم أعزّة أغنياء.

٦" ـ محمّد وحده، منها، كان راعيا، فقيرا، ضالا، ذا عسر وفاقة.

٧" ـ أضف الى ذلك وضعه العائلي : فهو يتيم الأب والأم، لا أخ له ولا أخت. لا مال عنده ولا رزق ... حياة محروم بائس يخار جوعا.

---

(١) انظر بندلي جوزى، من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام، دار الروائع، بيروت، بلا تاريخ، ص ٢٣٨ و ١٧ وما بعدها.

٨ً ـ جلّ أعمامه وأقربائه أغنياء لم يهتمّوا به . وحده عمّه أبو طالب "كثير العيال قليل المال" أخذه على عاتقه وكفله .

٩ً ـ دفعه عمّه الى التجارة ليحصّل قوته، وقد أصبح عليه مع أولاده العديدين عالة. فرحل محمّد الى التجارة وهو دون الثالثة عشرة.

١٠ً ـ خدم عند خديجة " سيّدة قريش"، بأمانة واخلاص، فأكسبته عيشه، وأكسبها أمانته . فتلاقيا ، وتزوّجا ، وأعدّا للمستقبل عدّة .

١١ً ـ وكان القس ورقة بن نوفل، ابن عمّ خديجة، هناك، وهو رئيس الابيونيين النصارى في مكّة . وقد عاش محمّد في رعايته ٤٤ سنة .

١٢ً ـ كان محمّد يختلي ويتعبّد في غار حراء، مع القس ورقة، فتعلّم منه العبادة والصلاة والتأمّل والخلوة . وتدرّب على يده .

١٣ً ـ وهو القس ورقة الذى زوّج خديجة من محمّد . وأقنع خديجة بهذا الزواج ، لأجل غاية في نفسه . فدخلت خديجة بمخططه .

١٤ً ـ قام كل من القس ورقة وخديجة في تدبير أمور محمّد وتدريبه، واتّفقا على اعطائه دورا اجتماعيّا ودينيّا هامّا . فاقتنع بما كلّف به .

١٥ً ـ وقصدُ القس والزوجة أن يكون محمّد "خليفة" القسّ على كنيسة الابيونيين . لكنّ نجاح محمّد جعله، بنظر أصحابه، " نبيّا " .

١٦ً ـ والنبوّة لم تكن أمرا بدعا في الابيونيّة . فالنبيّ ، عند الابيونيين ، هو كل صاحب رسالة، اجتماعيّة كانت أم دينيّة .

١٧ً ـ لكنّ أصحاب السير النبويّة راحوا ، في مفهوم النبوّة، بعيدا ، فحمّلوا محمّدا حملا لم يشر القرآن المكّي اليه . وأوجدوا له الأدلّة في التوراة والأنجيل وتنبوءات الاحبار والرهبان والملوك ...

١٨ً ـ وبعد موت محمّد بعشرين سنة ونيّف ، وكانت مغريات بلاد الشام فعلت في نفوس الفاتحين فعلها ، فأوجدوا في القرآن وفي حياة محمّد مبرّرات لمغرياتهم وشهواتهم . والأصل ليس كذلك .

١٩ ـ وبعد مائة وخمسين سنة ونيّف ، وضعت كتب السيرة وكان كل شيء قد تغيّر، وتطوّر، وتركّز في دولة العبّاسيين، فوضعت أساطير في حياة محمّد ، وأسندت اليه أحاديث بمئات الألوف . وهو منها براء .

٢٠ ـ وكما محمّد دعم تعاليمه الاجتماعيّة بتعاليم دينية، كذلك الفاتحون برّروا فتوحاتهم العربيّة (بسبب الجوع والحرمان) بجهاد مقدّس في سبيل الله . والله والاسلام من جهادهم براء .

٢١ ـ لنعد الى الوراء، الى كتاب القس ورقة، وهو "الانجيل بحسب العبرانيين"، خاصّ بالابيونيين . كان القس ينقله الى العربيّة .

٢٢ ـ ترجمته الى العربيّة تسمّى القرآن المكّي . تعاليمه، وعقائده الدينيّة، وفرائضه، وممارساته التعبديّة ... هي نفسها في القرآن المكّي .

٢٣ ـ حثّه على الاهتمام بـ"اليتامى والمساكين" والفقراء .. من تعاليم الابيونيين الأساسيّة . ولم نجد في بدء رسالة محمّد غير هذه ..

٢٤ ـ حماسة محمّد الى رفع شأن "اليتامى" تأتي من وضعه الشخصي ، ومن اختباره الفقر والعسر الكبيرين . وفعَل اليتم فيه فعله، وانفعل محمّد ليتمه، فكانت "ردّة الفعل" عنده عنيفة، جارفة .

٢٥ ـ قرار محمّد ، بعد غناه بمال خديجة، كان صعبا . وصعوبته هذه أعطته دفعا جديدا . فاستعان بالمال لمحاربة المتموّلين .

٢٦ ـ ثورة محمّد ابتدأت، في مكّة، لأجل اليتامى والمساكين ، وانتقلت الى المدينة لاجل محاربة الاغنياء والجهاد في سبيل الثروة كما في سبيل الله .

٢٧ ـ دين محمّد لم يكن جديدا على قريش . ولم تكن محاربة قريش له بسبب معتقد جديد . قريش قبلت في كعبتها كل صاحب عقيدة . التاجر يهمّه الكسب والأرباح ولو على حساب الحقيقة والعقيدة .

٢٨ ـ عربيّة قريش جاءتها من لغتها ، لا من عرق أو انتماء جنسي ما .

والعربيّة جاءت من "غرب" الفرات ، لا من اليمن ، بواسطة تجّار مكّة، والواعظين المبشّرين من رهبان نصارى الحيرة والأنبار .

٢٩"_ لغة القرآن عربيّة _ نصرانيّة، وتعاليمه ابيونيّة _ نصرانيّة، لكنّ جهاده، كفتوحات خلفائه، كان بدافع الجهد والجوع والحرمان .

٣٠"_ وأطرف ما يكون أن تكون أوّل حرب حدثت بعد موت محمّد ، هي حرب وقعت بين المسلمين أنفسهم ، بسبب دفع الزكاة . وهي "حرب الردّة" . ومعناها : المتخلّف عن الزكاة كالمرتدّ عن الاسلام .

هذه معطيات تاريخية، بعضها يحتاج الى مزيد من البحث ، وبعضها ساطع كنور الشمس . وكلّها تستدعي رسم علامة استفهام كبيرة على ما قدّمه لنا "المطمئنّون" . ويكفينا منها رسم هذه العلامة، لنشير الى خطر جسيم في عمق عقل "المطمئنّين" . فهل يعاد النظر في مفهوم جوهر الانسان، أي مفهوم الحريّة ؟ هل يتحرّر الانسان من "الكلام الفوقي" ليصبح مسئولا عن كلامه هو؟ حدّث هذا الانسان "المطمئنّ" عن مشكلة ما فيسقّط عليك الآية بعد الآية حتى يفحمك بكلام فوقي ، منزل، وبآيات من "كتاب لا يصلب" . حدّث هذا الانسان عن أيّة مشكلة بشريّة، اجتماعيّة كانت أم دينية، عاطفيّة كانت أم عقلانية، تاريخيّة كانت أم مستقبلية .. ، فينزّل عليك حشدا من الملائكة، وشحنة من آيات الله ، تسدّ عليك منافذ القلق والشك . ويقول مطمئنّا ومتعجّبا في آن معا : "جبريل نزل والانسان كفر !!! نعوذ بالله" .

مع هؤلاء : كل حوار باطل من أساسه . وهم المنتصرون مسبقا لا محالة . والحقائق عندهم في ملفّات جاهزة . واليقين يقدّمونه لك ببسمة ساخرة . والمعرفة علميّة حسابيّة لا موضع للشكّ فيها . والله في العبّ والجيب . والدين في "كتاب" . والشريعة من الكتاب . ونظم الحياة والكون محدّدة في الكتاب

عينه . والعلوم كلّها ، من طبّيّة وفيزيائيّة وكيماويّة وفلكيّة وتحت أرضيّة وكونيّة .. ، تستنبشها من آيات هذا الكتاب... فأيّ حوار يكون مع هذا الاطمئنان العظيم !

... ويبقى لك عندنا تنبيه ونصيحة : اتّق "ردّ فعل" المطمئنّ . احذر منه الانتقام . واخش ثأره الالهيّ منك . فانّه يعمل لله، ويجاهد في سبيله، ويدافع عن حقوقه، وينتقم منك اكراما لله عينه ... وما زلنا وايّاك نسأل عن حرّية الانسان وكرامته !

... ثمّ بعد ، عليك أن تسأل ــ وأنت مؤمن بالله وقدرته ــ ومن حقّك أن تسأل: كيف يكون الاسلام دينا ودولة، عقيدة وشريعة، تعاليم الهيّة وتعاليم اجتماعيّة .. فهل يكون المجتمع في خدمة الدين؟ أم الدين في خدمة المجتمع ؟ أم كلاهما يكمّل بعضهما بعضا لأجل تثبيت ملك الله ؟

لكنّ المجتمع يتطوّر ويتغيّر ، والاسلام شريعة أزليّة أبديّة . الدين، بمعناه الحقيقي ، صبغة روحيّة عميقة في انسان رهيف الشعور، متواضع العقل، نحيل الوطء على الأرض، زاهد بكل ما في الدنيا ، روحانيّ المسلك والسيرة، يربطه بالله سعيُه الحثيث المتواصل نحو قداسة نفسه، وخلاصها ، ولا يرى العالم الاّ بمنظار هذه القداسة ... والاّ كان الدين شرائع ونظما وقوانين وعقائد ، قد تفيد مجتمعا ولا تلزم آخر، وتطبّق في عصر دون عصر، وتصلح لشعب ولا تصلح لآخر..

أمّا اذا كان الدين شريعة الهيّة سرمديّة تلزم الانسان في كل مجتمع وعصر، فأين حرّيّة الانسان مع شريعة جامدة ؟ وأين جزاء الانسان مع اله يجبره ويقيّده في أطر تاريخيّة زمنيّة بالت وزالت ؟ وكيف يتصرّف البشر مع كتاب لا يصلب ؟

ثمّ اذا كان الدين اصلاحا لمجتمع ما ، فقليلا ما يصحّ لأصلاح مجتمع

آخره، لأنّ سبب وجود هذا الدين هو ما كان يوجد في المجتمع من فساد دعا الى اصلاحه. وعندما يرفع الزمان، بتطوّره، بعض تلك المفاسد، يزول، لا محالة، مبرّر وجود بعض تعاليمه... وهذا ما تنبّه اليه بعض العلماء المسلمين، في كلامهم على الناسخ والمنسوخ، عندما قالوا: هناك آيات في القرآن نُسِخَتْ أحكامُها ولم تُنْسَخْ تلاوتها، أى أزيل العملُ بحكم الشريعة، وبقيت الآية التي تشير اليها.. وفي هذا القول تبرير مخيف لتأخّر الشريعة الالهيّة عن الالتحاق بتطوّر المجتمعات.

واذا كان المجتمع والدين يتكاملان لأجل تثبيت ملك الله، فهل يوجد بين الاثنين تكافؤ؟ كيف ذلك؟ والأوّل منهما بتطوّر رهيب، والثاني ثابت جامد لا يتزحزح! أيشدّ الدين بالمجتمع الى التخلّف؟ أيتحكّم بالانسان الى هذا الحدّ فيبقيه في حمايته وتحت مراقبته؟ أيحدّ من طموحه فيخليه من ذاته؟ أيجعل مصير الانسان في المجتمع كمصيره مع الله وأحسن؟ يبدو منه ذلك طالما خيرات الجنّة وشهواتها هي صورة عن خيرات الأرض وشهواتها.

في الاسلام من ذلك كثير: مجتمع أهل الجنّة كمجتمع أهل الدنيا. ألدين دولة، والعقيدة شريعة. كلاهما في مستوى واحد. فأين يكمن الشرّ اذن؟ بل قل: كيف تكون الحياة الروحيّة؟ والسعادة الروحيّة؟ بل كيف يكون الله؟ أإلى هذا الحدّ، وفي هذا المستوى، يكون "الله الصمد"؟ وكيف يكون متعاليا هنا ويحيط به الانسان هناك؟ أيكون الانسان هو الذى ارتفع، أم يكون الله هو الذى هبط؟

وأين الخلاص أيضا؟ لنفترض الشريعة القرآنيّة طبّقت ومورست في مكان ما على الأرض، فهل لا يكون هذا المكان صورة كاملة تامّة عمّا سيكون في السماء؟ ليس في الأمر، اذا ما حدث، عجب. بل العجب أن لا يكون عند الله أفضل ممّا نزّل علينا في بيئة الخلعاء والصعاليك وآكلي أموال اليتامى!

والعجب الأكبر أن يكون عنده في السماء شريعة أفضل · وفي كلتا الحالتين نحن في دولة الله محرومون من الأفضل، ونحن معه، هنا وهناك، مظلومون · ويكون معنى ذلك : انّ محمّدا الذى جاء رحمة للمحرومين، ترك لنا، بنظر أتباعه طبعا، كتابا وشريعة أحكما علينا، باسم الله، حرمانا أبديا · وبذلك يكون محمّد رسول رحمة، ويكون القرآن شريعة ظلم أبدي · والمسلمون، في كل حال، قرآنيون لا محمّديون، أى الهيّون لا انسانيّون، ودينيون لا اجتماعيون ... وما ينتج عن ذلك من خطورة في مفهوم الخلاص ·

ويبقى، بعد ذلك، أن يكون "خليفة" القس ورقة أرحم بنا من "خلفاء" القرآن · وذهب المسلمون بصورة محمّد المكيّة الجليلة الرحيمة، ووضعوا مكانها صورة الهيّة ألصقوها بمحمّد المدني · والمدينة، كما نعلم، تعوّدت الظلم منذ عهد اليهود · ونسفت رحمةَ مكّة وربَّ كعبتها الرحيم · و" الرحيم " بالعباد أبهى ممّن جعله العباد " رحمانا " · الرحيم اله مكة، والرحمان اله المدينة الذى أخضع القبائل والعشائر لاجل أن يبقى رحمانا ·

كم هي المدينةُ مدينةٌ لمكّة · ولكنّها دونها في الرحمة · مكّة أنشأت للناس خلاصا، والمدينة أعطت العالم حربا · تلك جاءت بالعقيدة، وهذه جاءت بالشريعة · تلك رحمة، وهذه جهاد ... وكم القرآن مدين لمحمّد، وهو دونه في الرحمة · محمّد جاء للناس بالخلاص من ظلم اجتماعي مهول، والقرآن دفع بالمخلّصين الى ارتكاب المظالم · ذاك جاء بتعاليم ابيونيّة رحيمة، وهذا جاء بالقتال والجهاد والفتوحات والغزوات · وكيف يكون الفرق اذن بين خلفاء محمّد وخلفاء القرآن ؟!

محمّد قد مات، والموت للأنبياء خلاص البشر · والقرآن لن يموت، وبقاؤه في الأرض كعين رقيب جسّاس رهيب على البشر · وليت في العين بعض الرحمة، لكان رُفِعَ ظلمُ الشريعة عن يتامى مكّة ومساكينها، ومحمّد منهم ومثلهم مظلوم ·

المصادر والمراجع

١٠ ابن حبيب (أبو جعفر محمّد) ، + ٢٤٥هـ ، كتاب المحبر ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد ، ١٩٤٢م .
٢٠ ابن حنبل (الامام أحمد) ، + ٢٤١هـ ، المسند ، تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر ، دار المعارف بمصر القاهرة ١٣٧٥ هـ .
٣٠ ابن دريد (محمد بن الحسن الازدى) ، ٣٢١هـ ، الاشتقاق ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٥٨م .
٤٠ ابن سعد (محمّد) ، + ٢٣٠هـ ، الطبقات الكبرى ، ٨ مجلّدات ، دار صادر ، بيروت ، بلا تاريخ ، تحقيق احسان عبّاس .
٥٠ ابن العبرى (غريغوريوس الملطي) ، + ٦٨٥هـ ، تاريخ مختصر الدول ، دار المسيرة ، بيروت ، بلا تاريخ ،
٦٠ ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم) ، + ٢٧٦هـ ، كتاب المعارف ، تحقيق ثروت عكاشه ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٦٠م .
٧٠ ابن النديم (محمد بن اسحق بن محمد) ، + ٣٨٥هـ ، الفهرست ، المكتبة التجارية القاهرة ١٣٤٨ هـ . ودار المعرفة بيروت ١٩٧٨م .
٨٠ ابن هشام ، + ٢١٣ هـ ، السيرة النبويّة ، ٤ أجزاء قدّم لها وعلّق عليها وضبطها طه عبد الرؤوف سعد ، دار الجيل بيروت ١٩٧٥ .
٩٠ الأزرقي (أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد) ، + ٢٥٠هـ ، أخبار مكّة وما جاء فيها من الآثار ، جزءان ، دار الاندلس مدريد ، بلا تاريخ .
١٠٠ الألوسي (محمود شكرى) ، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، ٣ مجلّدات ، تحقيق محمد بهجة الأثرى ، المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٢٥ .

١١ . ألبخاري (محمد بن اسماعيل بن ابراهيم) ، + ٢٥٦هـ. ، ألجامع الصحيح ، ٤ أجزاء ، طبعة الحلبي ، القاهرة ، بلا تاريخ .

١٢ . ألبخاري ، التاريخ الكبير ، ٨ أجزاء ، تحقيق الشيخ عبد الرحمن المعلمي ، دائرة المعارف العثمانية ، حيدرآباد ، ١٣٧٨ هـ.

١٣ . ألبلاذري (الامام ابو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر) ، + ٢٧٩هـ. ، فتوح البلدان ، علّق عليه رضوان محمد رضوان ، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٧٨ .

١٤ . الترمذي ، الجامع الصحيح ، المعروف بـ " سنن الترمذي " ، مطبعة البابي ، القاهرة ١٩٣٧ .

١٥ . ألثعالبي (عبد الرحمن) ، ألجواهر الحسان في تفسير القرآن ، الجزائر ، ١٣٢٣ هـ.

١٦ . ألجلالين .. (جلال الدين المحلي ، وجلال الدين السيوطي) ، قرآن كريم ، المعروف بـ " تفسير الجلالين " ، مكتبة الملاح ، دمشق ، بلا تاريخ .

١٧ . ألجمحي (محمد بن سلام بن عبيد الله) ، ٢٣٢هـ. ، طبقات فحول الشعراء ، تحقيق الاستاذ محمود محمد شاكر ، دار المعارف القاهرة ١٩٥٢ .

١٨ . جوزي (بندلي) ، من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام ، دار الروائع بيروت ، بلا تاريخ .

١٩ . ألجوهري (اسماعيل بن حماد) ، + ٣٩٣هـ. ، الصحاح ، ٦ أجزاء ، تحقيق أحمد عبد الغفور العطار ، دار الكتاب العربي القاهرة ١٣٧٧هـ.

٢٠ . ألحداد (الاستاذ) ، القرآن والكتاب ، جزآن ، لا دار نشر ، ولا تاريخ ، سلسلة دروس قرآنية .

٢١ . ألحلبي (علي بن برهان الدين) ، + ١٠٤٤هـ. ، السيرة الحلبية في سيرة الامين المأمون انسان العيون ، ٣ أجزاء ، دار المعرفة ، بيروت ١٩٨٠م .

٢٢ . ألحموي (ياقوت) ، معجم البلدان ، ٥ أجزاء ، دار صادر ، بيروت سنة ١٩٧٩م .

٢٣ ـ ألخشني (مصعب بن محمّد بن مسعود) ، + ٦٠٤هـ ، شرح غريب سيرة ابن اسحق . جزءان ، نشره يوسف برونله ، مطبعة هندية القاهرة ١٩١١ م .
٢٤ ـ د روزة (محمّد عزّة) ، تاريخ الجنس العربي ، ٨ أجزاء ، وبخاصة الجزء الخامس ، المكتبة العصرية صيدا ـ بيروت ١٩٨٣ .
٢٥ ـ ألزّبيرى بن بكّار (+ ٢٥٦هـ) ، جمهرة نسب قريش ، تحقيق الاستاذ محمود محمد شاكر ، القاهرة ١٣٨١ هـ .
٢٦ ـ ألزمخشرى ، الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، مطبعة محمد مصطفى ، القاهرة ١٣٥٤ هـ . ٤ أجزاء .
٢٧ ـ ألسهيلي (+ ٥٨١هـ) ، الروض الانف ... من شرّاح السير النبوية .
٢٨ ـ ألسيوطي (جلال الدين عبد الرحمن) ، الاتقان في علوم القرآن ، جزءان في مجلّد واحد ، المكتبة الثقافية ، بيروت ١٩٧٣ .
٢٩ ـ ألشريف (أحمد ابراهيم) ، مكّة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ، دار الفكر العربي ، سنة ١٩٦٥ .
٣٠ ـ ألطبرى (محمد بن جرير) ، + ٣١٠ هـ ، تاريخ الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، ١٠ أجزاء ، ذخائر العرب ، دار المعارف .. ١٩٧٩ م .
٣١ ـ علي (د . جواد) ، المفصّل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ١٠ أجزاء ، دار العلم للملايين بيروت ـ مكتبة النهضة بغداد ، ١٩٦٨ م .
٣٢ ـ قطب (سيّد) ، التصوير الفني في القرآن ، دار الشروق ، بيروت ، بلا ت .
٣٣ ـ لامنس (الاب هنرى .. اليسوعي) ، النصارى في مكة قبيل الهجرة ، المشرق مجلّد ٣٥ ، سنة ١٩٣٧ .
٣٤ ـ لامنس ، الاحابيش والنظام العسكرى في مكّة ، المشرق ، مجلّد ٣٤ .
٣٥ ـ مالك بن أنس (الامام) ، + ١٧٩ هـ ، الموطأ ، نشره الاستاذ محمود فؤاد عبد الباقي ، جزءان ، مطبعة الحلبي القاهرة ١٣٧٠ هـ .
٣٦ ـ ألمسعودى ، + ٣٤٦هـ ، التنبيه والاشراف ، دار صعب بيروت ، بلا ت .

٣٧ • المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق يوسف داغر، دار الاندلس بيروت ط٢، ١٩٧٣، ٤ أجزاء في مجلدين •
٣٨ • مسلم (بن الحجاج بن مسلم القشيري)، + ٢٦١ هـ •، الجامع الصحيح، نشره محمد فؤاد عبد الباقي، ٥ أجزاء، الحلبي، القاهرة ١٩٥٦ •
٣٩ • ألنيسابوري، غرائب القرآن وغرائب الفرقان، المطبعة الاميرية القاهرة، ١٣٢٣ هـ •
٤٠ • الهمداني (أبو الحسن بن أحمد)، كتاب صفة جزيرة العرب، تحقيق عبدالله النجدي، القاهرة ١٩٥٣، وفي ليدن بريل ١٨٨٤ •
٤١ • وات (مونتجومري)، محمد في مكة، تعريب شعبان بركات، المكتبة العصرية، صيداء بلا تاريخ •
٤٢ • ألواحدي، أسباب النزول، مؤسسة الحلبي، القاهرة ١٩٦٨ •
٤٣ • ألواقدي (محمد بن عمر بن ••)، + ٢٠٧ هـ •، كتاب المغازي، تحقيق د • مارسون جونس، مؤسسة الاعلمي بيروت ١٩٦٦ •
٤٤ • الواقدي، فتوح الشام، جزءان في مجلد واحد، دار الجيل، بيروت بلا تاريخ •
٤٥ • وهبه (حافظ)، جزيرة العرب في القرن العشرين، ١٩٥٦ •
٤٦ • أليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب)، + ٨٩٧ م، تاريخ اليعقوبي، جزءان، دار صادر، توزيع دار صعب بيروت، بلا تاريخ •
٤٧ • Lammens, H., La Mecque à la veille de l'Hégire, Impr.Cath., Beyrouth, 1924.
٤٨ • Lammens, H., Le Berceau de l'Islam. Le Climat, Les Bédouins, Rome, 1914.
٤٩ • Lammens, H., La cité de Taïf à la veille de l'Hégire, Beyrouth, 1912.
٥٠ • Lammens, H., L'Arabie occidentale avant l'Hégire, Beyrouth, 1928.

مواضيع البحث

مواضيع البحث

هـذا الكتاب...

فيما نحن نبحثُ في مجتمعِ مكّة، عهدَ بدءِ الدعوةِ المحمّديةِ، خطرتْ على البالِ أسئلةٌ وأسئلة: إلى أيّ مدى كان محمّدٌ يعي أنّه نبيّ؟ هل جاءَ برسالةٍ دينيّة، هي من ألِفها الى يائِها، وحيٌ من السماء، أم جاء ليصلحَ مجتمعًا فاسدًا بأمّهِ وأبيه؟ هل مجتمعُ مكّة هو الذي قرّر نوعيّةَ الرسالة، أم نوعيّةُ الرسالة - وهي في رأي المسلمين نبوّة - هي التي أرستْ دعائمَ نظامٍ إلهيٍّ شامل؟

والبحثُ في مكة، في طبيعتِها، وتجارتِها، وسكّانِها، ومجتمعِها... يُؤدّي، لا محالة، الى مفهومٍ جديدٍ لهويّةِ الرسالةِ المحمّدية، التي لم تكنْ، من البدايةِ حتى النهاية، الاّ اصلاحَ مجتمعٍ طغتْ فيه نقمةُ الفقراء، والمساكين، والأذلّة، والصعاليك، واليتامى... وقد كان محمّدٌ منهم، بل كانَ أشدَّهم فقرًا وبؤسًا وجوعًا وحرمانا.. فهو يتيمُ الوالِدَين، لا أخَ له ولا أخت، لا مالَ ولا رزق...

وفجأةً، وبزواجِهِ من خديجة، أصبحتْ أموالُه تضاهي نصفَ أموالِ قريش... فالى أيّةِ فئةٍ سينتمي؟ أينصرُ الفقراءَ على الأغنياء، وقد كان منهم؟ أم ينصرُ الأغنياءَ على الفقراء، وقد أصبحَ مثلهم؟... صراعٌ واضطرابٌ في نفسيّةِ محمّد، نقمةٌ في العمق، قرارٌ خطير، ردّةُ فعلٍ، لا بدّ عنيفة... ما حفزَه الى القيامِ بثورةٍ اجتماعيّةٍ عارمة.. دعمَها بتعاليمَ "إبيونيّة"... اعتبرَها دينًا سماويًا ووحيًا في كتاب...

أسئلةٌ كبيرةٌ وكثيرةٌ وخطيرة، تُعالَجُ بصراحةٍ ووضوحٍ ودقّةٍ علميّة... في الهمّ الاّ الحقيقة التي كانتْ أعظمَ ضحايا أهلِ التاريخِ وكتّابِ الس[illegible] وكلّ ما عدا الحقيقة لا همّ لنا فيه.